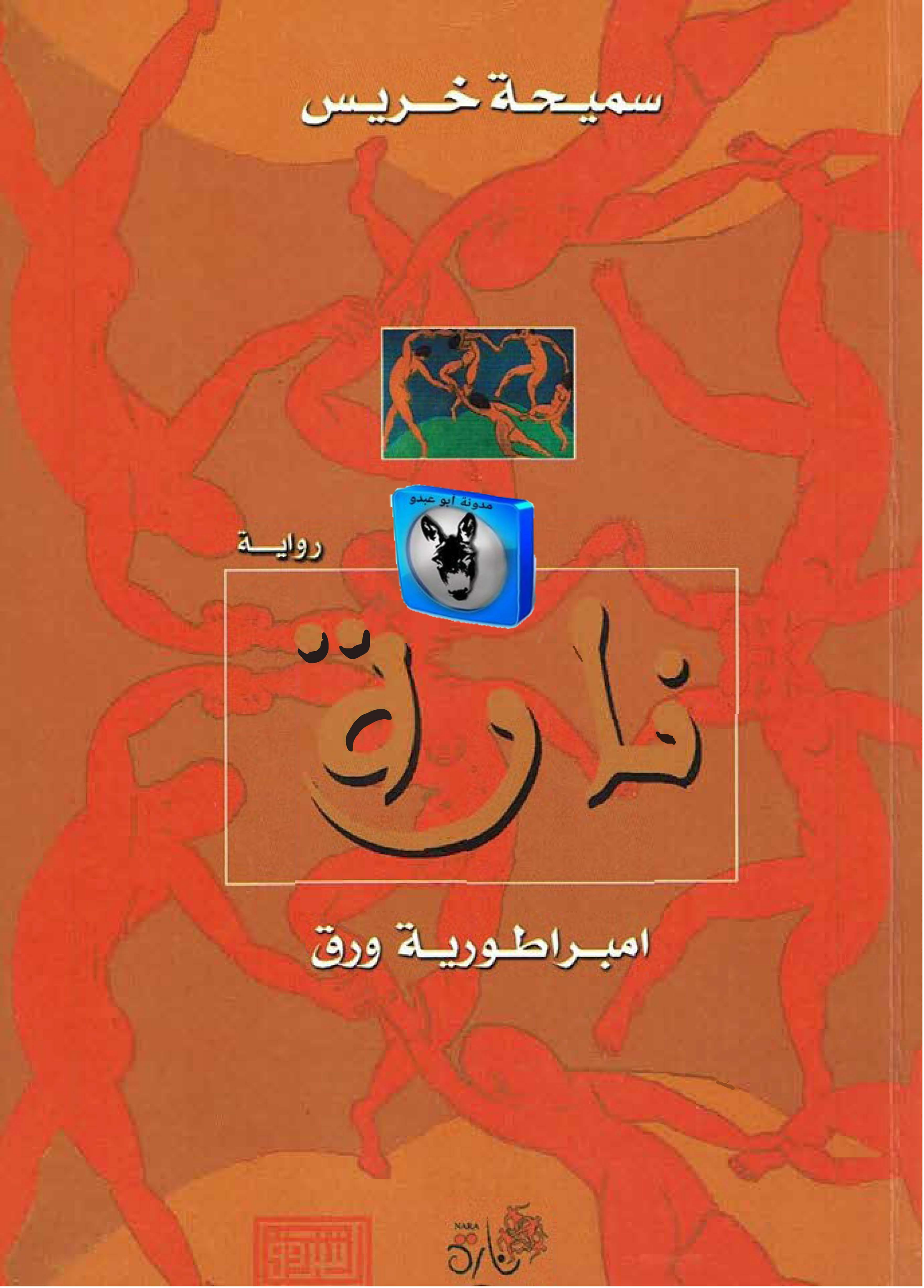

سميحة خريس
مدونة ابو عبدو
رواية
امبراطورية ورق
NARA

"نارة"

إمبراطورية ورق

رواية

سميحة خريس

المقدمة الأولى

ما قالته "نارة"

أمضيت عمري (القصير.. القصير) بين سخام المطابع وبلاط صاحبة الجلالة "الصحافة"، احتكّت أناملي بالورق وتلوثت بالحبر حتى النخاع . رغم أن حلم الطفولة الأول كان تلويث فستاني بالشوكولاته إلا أنها لم تكن مادة سهلة المنال، فإذا ما توافرت رحت أمتصّها ببطء مستبقيةً رطوبتها وحلاوتها في لساني مانعةً أيّ قطرة أن تسيل خارج فمي.
حلم الطفولة الآخر، نوعٌ من الصعلكة البريئة، إذ طالما اشتهيت دعكَ ركبتي بتراب الحارة، وتمزيق بنطالي على الإسفلت الأسود، ولكني بنْت، لهذا بدا حلمي الثالث (الصحافة) متاحاً جداً، منطقياً ومقبولاً.. الادّعاء بوصل رائق وخاص يربطني بالقلم، الأداة الوحيدة التي يعني التلوث بها شرفاً من نوع ما، أو انتساباً إلى حلم ممكن، أو تأهّباً لوضع اقتصادي غير واعد بكل الأحوال .. عرفت أني منذورة للحبر لا عن طيب خاطر، ولكن هكذا، كاحتمال وحيد لعبور العالم .. إنها نافذة الحرية المتوهمة، أو التعبير المنقوص (إن صح التعبير)، فمنذ اللحظات الأولى التي تفصّد فيها الحبرُ من مؤخرة القلم إلى أصابعي، ملطّخاً كمّ المريول الأخضر وإبهامي والسبابة مبقعاً الرسغَ حيث تتكئ يدي على طاولة في صفّي المدرسي، عرفت أن الحبر يحاصرني، و إنْ فاتتني البلاغة بمعناها المعجمي والنحوي والأدبي.
معلمة الصفّ (التي كنا نسميّها "الأم مدرسة") تنظر نحوي شزراً إذا ما قرأت موضوع التعبير . بصراحة أنا لا أعرف لماذا عليّ أن أكتب موضوعاً عن الربيع، أو رحلة الجمعة، أو عيد الأم؟! لم يكن بالإمكان أن أترك "جبل الأشرفية" حتى في الجُمَع الندية الربيعية لأتسكّع في رحلة في وادي شعيب مثلاً. يحدث هذا مع أترابي اللواتي يمتلك آباؤهن سيارات قديمة تُصدر "كركبةً" وتترجرج فوقها الحُصر وطناجر الطبيخ ومناقل الفحم وزجاجات البيبسي كولا والسفن أب، الربيع! كيف يكون لي أن أعرف أن ربيعاً حلّ ما دام الفصل الذي يتغنون به لا يمر بـ "الأشرفية"، وما دام جسد جدّي الملقى في القبو، أو على طرّاحة عتيقة بين الباب الرئيسي وشرفة متصدّعة تقود إلى الدرج، يعيق رحلاتنا المتمنّاة؟! لا أقول هذا عن حقد، فالتعاطف يحكم علاقتي بالرجل الصامت

الناسي، ولكني أتذكر فقط أسباب غيظي من موضوع الإنشاء الأبله.

أما عيد الأم! كيف سيكون هناك عيدٌ لأمّ لا وجود لها إلا طيفاً بعيداً في الذاكرة! كأنهم يقولون: "اكتبوا عن ما لا تعرفون".. لو أن معلمة ذكية قالت : "اكتبوا ما تتخيلون " لقادتني إلى بدايات أفضل، ولكن بما أن الحال على ما هـ ي عليه، فإني أكره واجب التعبير، فضلاً عن عجزي عن استخدام ما يقرعوننا به من طباق وجناس و "كلاكيع" (هنا أجدني بحاجة لشكر الروائية التي تحرر قصتي، وتسمح لي بوضع مقدمة أتحدث فيها بمثل هذه العبارات التافهة، أعني "كلاكيع" وما شابه).

"نارة عدنان". يا سلام! اسمي الجميل يصلح اسماً حركياً أو فنياً لراقصة. أعتذر إذا كان التشبيه فجّاً يخدش الحياء، أو خارج اً عن الذوق والآداب العامة المتفق عليها، وإن كنت لا أوافق على احتقار الراقصة ضمنياً، بينما نحتفي بها فنانةً على صفحات صحفنا. لقد أرسلوني مرة، أنا الصحفية المحترمة ، لأُجري لقاءً مع راقصة شرقية، تغنّجتْ في إجاباتها مثلما تفعل في رقصها، حرّفتُ كلماتها في مقالي، وأجبرتها على الحديث عن الفن وأهمية التعبير بـلغة الجسد كفيلسوفة بارعة تباري أفلاطون!

أعود إلى اسمي الذي يزين صفحات صحيفتي الصفراء (نسبةً إلى لون ورقها)، وعندما أقول : "صحيفتي" لا أقصد أنني أملكها .. حاشا لله أن أكون من ذوي الأملاك . لست أملك من حطام الدنيا إلا الثياب التي أرتديها، وحذاء أنتعله، وسيارة رُبْع عمر، مستورة بحمد الله!

أنا مجرد اسم بهي، ورقم متواضع في عالم الصحفيين المندلقين كل يوم على سطح الورق . اسم جميل وخاص، يمكن أن يلفّ رؤوس الرجال ويغيظ النساء..

قد تتوسع "الروائية" فيما بعد لتفسير أسباب اسمي "المولّع" المتّقد.

"عدنان" أبي.. هذا أيضاً يأتي من الذاكرة البعيدة، وريث مجد غابر . على أية حال، أتعامل مع يتمي المبكر باستخفاف يليق به. نسيت منذ زمن ما يسمونه "اسم العائلة"، ومن الطبيعي أن لا أورّط قراء الصحيفة القلائل بأسماء هلامية، من النوعية التي لا تدل على شيء ولا تؤشر إلى مكان، ولا يمكن إلحاقها بمرجع ما، حتى و إن أمكن إلحاق ا سم أبي بمرجعية تاريخية بعيدة، فالمنطق المعاصر لا يعترف بمثل هذه التسميات التي تُطلق من باب التعوّد لا غير، كما لا يمكن

لطرف أن يتخيل أني بنت عشائر أو من الشمال أو الجنوب .. هكذا حال اسمي ؛ محايد بلا دلالة قبلية.. مرتاحة وسعيدة من دون مرجع جغرافي أو عصبي.

ولكن ليست هذه هي الحكاية

الحكاية أنه قد أستبدّ بي شوق كبير لكتابة الحكاية، ولما كنت أكتب التقارير وتفاصيل الأخبار باقتضاب وخوف وخجل، مدركةً أن المحرر العجوز صاحب النظارات (كعب الكبّاية) سيمصمص شفتيه وهو يقرأ، ويشطب، ويعدّل من صياغة الكلمات ويمحو أثر أخطائي النحوية والإملائية قبل أن يدفع بالعمل إلى الطباعة، وقد يقول لي:

- الله "يهديكِ" يا بنتي، خففي من أخطائك، أما آن أن تتعلمي؟ !

ولشدة ما يغيظني استخفافه الذي استمر سنوات وسنوات، فإني أقول في سرّي: "يا بنتي!! على مين يا عمو؟! أنت تصّحح أخطائي الإملائية والنحوية لأنني أعجبك، أو على الأقل، يثير اسمي خيالاتك!".

يا لقسوة ما أذهب إليه، فالكهل الرصين، والذي صار عجوزاً جداً فيما بعد، لم يُبْدِ طوال السنوات التي عملنا فيها معاً، أيَّ سلوك يمكن تفسيره على هذا المحمل الشيطاني، ولكني كنت بحاجة للدفاع عن مستواي المهني الذي لم يتقدم أبداً، على الأقل أمام نفسي.

ليست هذه هي الحكاية.

محسوبتكم "نارة" ارتأت أن لديها حكاية بعد أن تخطت الثلاثين عاماً (الدقة غير مطلوبة هنا، لا تشكل فرقاً بالنسبة لكم) . إذاً، ثلاثون، منها عشر سنوات في بلاط صاحبة الجلالة . أعرف أن كل الهامشيين مثلي يعتقدون بوجود الحكاية الأكثر إثارة لديهم دون سواهم، حقيقة أو توهماً. ليست هذه هي القضية، فحياتي مكتظة بالتفاصيل، ليست كلها خاصة أو فضّاحة أو مذهلة . ليس هنالك حدث انقلابي يصلح لأ ن يكون فيلماً سينمائياً. لم أخسر شيئاً، فبلادي لا تتعامل مع صناعة السينما، وكل ما لدي مجرد تفاصيل عني وعن الناس الذين أعرف . أدّعي أني أعرف وجوهاً بائسة كثيرة، ولا أقصد بؤساء "هيجو" ولا أدعوكم للتعاطف مع بؤسائي، أو حتى معي، أقصد أنهم يثيرون اليأس والملل، ويستحقون الإعدام. تحتمل الكلمات تعدد الوجوه والدلالات، انظروا ماذا أفعل الآن! أخلدّهم في الكتابة. لو كنت على يقين بأن الكتابة تخليدٌ من نوع خاص

لما أقدمت على ذلك، فهم لا يستحقون، أعرف أني أضيع القارئ في تفاصيل غير مترابطة غاية في الغرابة، ولكن "طَوْلُوا بالكم معي"، أنا أكتب مجرد مقدمة، يمكنكم أن تقلبوا الصفحات على الرواية مباشرة وترتاحوا من ثرثرتي، لن يكون هناك فرق!

مثل الحواة أحمل جراباً يمكنني أن أخرج منه أرانب حية، كما يمكنني أن أحوّل فتافيت الورق إلى ضمّة أزهار ملونة، وحبره إلى عطر . هيا، هذا مجرد تعبير مثلما يهوم الشعراء وكما يعرض الحواة فنونهم الخادعة محاطين بتصفيق الإعجاب، فالحياة "سيرك" أكبر من السيرك المتواضع الممل الذي يضربون أوتاد خيمته المزركشة كل صيف في شارع المدينة المنورة، لاصطياد المصطافين من العائلات القادمة من الخليج.

فلض جرابي، وشعرت أن لدي ما أقوله. تذكّرتُ المصحح العجوز، مخلفات وزارة التربية والتعليم، الأستاذ المتقاعد منذ عشرات السنين، وهو يقول بلطف أبوي:

- "نارة".. "نارة".. متى تتعلمين أين يوضع الاسم وأين يوضع الخبر؟!

أرد ضاحكة:

- عَلِّمْ بالمتبَلِّمْ يصبح ناسي.

عندها، يضحك أبوياً ويقول:

- حاشاكِ!

أرد بالهرج والمزاح البريء رماحَ هجومه المثقلة بالهمّ وصدأ التقاعد . هو ليس سوى مصحح متواضع في صحيفة صفراء يحاول الالتحاق بكادر مصحّحي "الرأي" الغراء، ويفشل عاماً بعد عام في اقتحام تلك القلعة الحصينة، يقول ببساطة:

- يتجاهلون قدراتي لأني من نابلس.

ولأني لا أعرف علاقة نابلس بالأمر، أتوقف عن استغابة المصحح الجهبذ، انظروا هذه "الجهبذ"! لو سألني أحدهم عن معناها ما عرفت، ولكني كتبتها هنا بجسارة أُحسَد عليها . أساساً ليست هذه هي الحكاية . القضية - وكما سيكتشفها قارئ فطن (فطن هذه أيضاً كبيرة) - أني استفدت من قراءة الصحف ولغتها التي لا تخلو من فـذلكات، أو أن ثقافتي أوسع مما أحسب . تعلقُ الكلمات المقعّرة بجلد الصحفي كشعر بدنه . سيكتشف القارئ الفطن أن مشكلتي هي

الدونية التي أظنها حول لغتي وقدراتي في الكتابة، وحتى لا يبدو تواضعي ذليلاً في أعينكم، فلكم أن تعلموا أني اكتفيت من الحظّ بتمتّعي ب اسم مثير وعدد لا يُحصى من التقارير الصحفية البائسة، التي يحلو لي أحياناً أن أقرأها على مسمع جدّي من دون توقُّع هزة من رأسه تشي بوجهة نظر محددة. لو أن له ذاكرةً ككل السائرين على الطرقات، لأفصح عن زهو عارم، على الأقل لظهور اسم ولده المتوفّى "عدنان" إلى جانب اسمي كلما مر يومان أو ثلاثة . لست على يقين من تذكّرهِ ابنَهُ الذي هو أبي . أترك جدّي على طراحته غارقاً في عالمه الخاص وأعود إلى جراب الحاوي . شعرت برغبة في إطلاعكم على محتويات جرابي .. تنامت الرغبة، دودة تقرض بمثابرة وإصرار وتلذُّذ أطراف ورقة شجر خريفية .. مئات أو آلاف التفاصيل المتناثرة من جرابي بحاجة إلى من ينضدها، بحاجة إلى محرر . يقولون إن أعظم الشخصيات في العالم من صحفيين وساسة ونجوم السينما وعشيقات المبدعين ومرافقي الرؤساء والملوك، يكتبون كتبهم المثيرة وسير حياتهم والفضائحيات الأكثر مبيعاً مستعينين بمحررين مختصين، ولقد فكرت بالأمر ملياً، لأكتشف افتقارنا في الساحة الإعلامية والثقافية لمثل هذا ال تخصص الفريد . غالباً ما يصيبنا الغرور تجاه ما نخطّ، فنظن أننا وصلنا بحمد الله ورعايته إلى الكتاب المعجزة.. أعرف كاتباً يخربش مثل مخلّفات الدجاج. المفروض أن أقول: "خرابيش الجاج"، هذا التعبير العامي أكثر تهذيباً من الفصحى، الخرابيش تعطي إيحاءً بأنها نتاج فعل الحراك المرتبك لسيقان الدجاجات المسنّنة، أما المخلفات فتؤشر إلى نتاج فعلٍ مختلف ، لكنه أقوى . كلمة "خرابيش" على شيوعها بعيدةٌ عن الواقع، طفيفة الإيحاء، يجلس صاحب مخلفات الدجاج عادةً في وضعية انزلاق، مادّاً قدمه أفقياً، بحيث تقصر المسافةُ بين مرآة قفا حذائه ومرمى بصر الجالس قبالته. هذا المصاب حتماً بالانزلاق الغضروفي، يدّعي أنه مهم للغاية، عالميّ الأفكار واللغة، لكن حظه العاثر شاء أن يكون في مدينة عمّان الصغيرة النافلة حيث لا مجال للإعلام وا لإعلان وا لاحتفاء بالعبقريات الفذة .. يدّعي سالف الذكر أنه أكثر أهمية من شكسبير، ولأن شكسبير ليس مهماً (عندي) ألبتة، فإن صاحبنا تافه بامتياز، مغرور كما الكثير ون. لهذه الصورة المقيتة لن أسمح للغرور بالنيل مني . واجهت نفسي بصراحة، وأمضيت وقتاً طويلاً أبحث عن بداية البداية، أي بداية الكتابة، بالأحرى عن المحرر .. تحدثت بين الزملاء عن مشروعي الغريب في الردهات الضيقة والمكاتب

المعتمة التي نجلس فيها مختنقين ما يقارب نصف النهار. أسرّ لي السادة المصححون – ليس فقط صاحبنا لابس النظارة كعب الكبّاية، ولكن آخرون – (بحذر) بأن معظم الصحفيين في حالة يُرثى لها لغوياً، يقدمون ويؤخرون ولا يعرفون موقع الهمزة في الكلمة، مثلي، إضافة إلى أن طالباً نجيباًفي المرحلة الابتدائية سيطيح بهم في مسابقة الإملاء .. أخبروني عن مثالب زملائي وبؤس حالهم اللغوي . بصراحة، شعرت بالراحة من واقع الشراكة في الضعف على أن أكون وحدي متواضعة القدرات، صرفت النظر عن الاستعانة بأحد الزملاء، فإذا كنا كلنا في "الهوا سوا"، لِمَ أورّط كنوز جرابي بين يَدَيّ من لا يتجاوزني براعة؟ أوشكت على الانصراف عن الفكرة تماماً. في النهاية ماذا سأقول، وأية إضافة تستحق إعدام الأشجار لتصير أوراقاً تحمل ترّهاتي؟! الأمر شهوة ذاتية لا معنى لها، وأنا لست شخصية عامة ولا خاصة بحيث يستميت أحدهم لاقتناء مذكراتي أو سيرتي الذاتية .. لم أجالس عليّة القوم ، ولكني صادفتهم بحكم مهنتي، و جلّ معلوماتي عنهم متخيَّلة.. ربما هذا هو الخبث الذي أريده ؛ أن أفشي معلومات متخيّلة لئيمة عن هؤلاء، وهكذا رحت أتقلب، حماسةً وإهمالاً.

في تلك الفترة، اكتشفتُ معشرَ الكتّاب ؛ أعني الموهوبين المبدعين، الذين نسمّيهم في مقالاتنا رموزاً وروّاداً ومرجعيات تثير الفخار، ثم لا يعترض من كان في قمة الهرم من سياسيين ومسؤولين وأصحاب القرار .. يوافقون بتواضع على تصنيفنا المخاتل للمبدعين ، لعلهم يتواطؤون من مبدأ "ابعد عن الشر وغنّ له".

المبدعون الذين ينظرون شزراً من فوق أنوفهم إلى الوزراء والسفراء والساسة ورجال الأعمال، الذين يتأبطون دفاترهم وكأنها كتب منزَلة مقدسة، أولئك المغرورون الكبار الذين يتوزعون بين لابسي ربطات العنق الباريسية ومرتدي الجينز المقطَّع والمرقَّط ناكشي شعورهم، وبين مرتادي "الأوتيلات" الراقية حمَلة أقلام "الشيفر" الذهبية، والمتسكعين على طرقات المدينة، أو السكارى في حانات قلب البلد الرخيصة آخر الليل، أصحاب أقلام "البِك" التي تسيل من مؤخراتها فتلطخ جيوب قمصانهم المتواضعة، اكتشفتهم .. وجدتها.. وجدتها، وعنّ على بالي أن دربي تمر من دربهم، وأنني سأتمكّن من استكتاب أحدهم.. يبدون أكثر رفعةً من أن أشتريهم بالمال (هذا تصور خاطئ صححته فيما بعد) . أنا أصلاً لم أكن أملك المال، فقلت إن عليّ إقناع أحدهم

بأني أمتلك حكاية تُحكى ليوافق ويرتضي القيام بمهمة التنضيد والتنسيق والتحرير . رحت أتصفح الصحف كل يوم، أنبش عن أسمائهم، أقرأ بإخلاص لم أفعله من قبل، وكأني أنتقي أجملهم أسلوباً وأكثرهم إقناعاً.. انظروا، كنت أشترط الصف الأول، أريد اسماً مشهوراً، أشهر من النار! ما أشدّ تهّوري!

تصفحت صحيفة "الدستور".. يسترعي انتباهي اسم سينمائي نوعاً ما، أقل إثارة من اسمي ولكنه يُحفَظ بسهولة: "خيري منصور". قرأت مقالاته بنهم لأرتطم في كل سطر بمعلومة. لا بد أن حصيلته من المعلومات مخيفة، رجحت أن تلك اللغة التي يكتب بها ستربط حكاياتي بالحبال وتجرها مخفورة إلى حيث هو يمتلك حكايته الخاصة، رأيت صورته بالقميص "السبور".

كيف سأذهب إلى رجل يرتدي قميصاً مفتوحاً، وأخاطبه قائلة : "يا أستاذ!! ".. وهل كنت بحاجة إلى أستاذ أم محرر؟

إنها بدايتي ولكن ذروة حيرتي، أجهل ما أريد بالضبط، لهذا صرفت النظر بسرعة عن فتى "الدستور"!

قبل الدخول في التفاصيل التي استرعت انتباهي في صحيفة "العرب اليوم"، يحلو لي أن أتوقف عند اسم الصحيفة. يا عيني، ويا سلام، والله الله على العرب اليوم، وأمس وغداً، أقصد العرب الأمة، الشعب، الشتات، لا الصحيفة التي تحلم وتمطّ حلمها من المحيط إلى الخليج مثل علكة في فم طفلة. عذراً على المداخلة اللئيمة، ففي صحيفة "العرب اليوم" قرأت اسم "محمد طمليه".

كتاباته مجنونة بجدارة وتناسب مزاجي ما دمت أرغب في أن أسخر قليلاً، ولكنه كثيراً ما يقع في قعر بئر معتمة، ويحدث أن يطفو طحلب مُرّ وتزعق أشباحٌ رمادية على الورق، تحديداً في المكان الذي مرت فيه أصابعه. خفتُ مجردَ الاتصال به، لم أعثر على الهدف بعد.

فتحت "الرأي" الغراء.. لا أعرف لماذا عليّ أن أضيف هذه الصفة الممجّدة كلما تحدثت عن "الرأي".. الغراء طبعاً! كنّا في مطلع عام 2002 الذي يتوّج عمّان عاصمة للثقافة العربية، لم أسأل كيف ولماذا وبأي الأدوات ؟! فهذا شأن منظمات عالمية، أما بالنسبة لي فهو مجرد لقب احتفالي يتيح لي سهولةَ العثور على المثقفين المنتشرين على صفحات الصحف وفي المنتديات كالفطر، لذيذ ونافع وسامّ.

قرأت مرة أو مرتين مقالاً لـ"مؤنس الرزاز" حول أحداث العالم المأساوية، خُيّل إليّ أنه يمسرحها لتكون بهذه السوداوية، فكل الأشياء البسيطة والعادية تحدث كل يوم ولا من معترض. لماذا عليه أن يحول الأحداث التي أدمنّاها إلى حدّ افتقاد يوم خلوّ منها، إلى مأساة ؟ ما الجديد في سقوط الأطفال في جنين؟ ! ما الجديد في بيانات الاستنكار العربية؟ هع، هذا هو رأيي الصريح بمثل هذه البيانات .. وما الجديد في الحفر في شوارع عمّان الشرقية؟ ! ما الجديد في تلويث مياهنا بـ"خرائهم"؟! أليس هذا ألطف من سرقة المياه التي نسينا أمرها؟ ! لا شك أن الرزاز مأزوم، ولا أظن أن كاتباً مثله يمكن أن يفي بالغرض الذي أسعى إليه، ولكني غّيرت فكرتي عنه عندما كتب نصاً وجدانياً حزيناً - سرقت تعبير "وجداني حزين" من مقال لأحدهم ولم أبدعه من بنات أفكاري، لهذا اقتضى التنويه - أقول، عندما قرأت كلّ هذه الرقة، اعتقدت أني عثرت على جَمَلي الذي أحمل فوق كتفيه الحكاية، خاصة أن حكايتي لا تخلو من العواطف والأوجاع، ومقاله الوجداني يفيض بها. هاتفته بحماسةٍ فائقةٍ في الصحيفة ليقولوا لي:

- مش موجود!

يكذبون ! يحدث هذا، فسكرتيرة رئيس تحريرنا المتواضع في الصحيفة الصفراء تكذب بشأن وجوده وغيابه عشرات المرات من دون أن تتلجلج أو ترتبك، ولكني تأكدت بعد ذلك أن استنتاجي غير صحيح، فالرجل لا "يداوم" في الصحيفة، لكنه يعمل في وزارة الثقافة مستشاراً . ما أصعب الأمر وأسهله معاً؛ أن تتحدث مع مستشار!!، اتصلت بمستشار الوزير وأنا أرتجف، يا أخوان ، للألقاب "وَهْرَتُها " .. إنه مستشار.. قد يهزأ بي ويغلق السمّاعة في وجهي، ولكن صوته الناعس المشوب بالترحيب التلقائي رفع عني حمل الخجل والتردد . تقمصتُ دور قارئة، وأشرت إلى حكاية مهمة أريده أن يسمعها . اتخذت المكالمةُ مساراً غريباً أزال "الوهرة" المتخيَّلة عن المستشار .. كان هنالك رجل لطيف على الطرف الآخر من السمّاعة . لم يُبْدِ اهتماماً بحكايتي، قال ضاحكاً:

- اسمك مخيف!

لم أعرف ما إذا كان استحسنه أم استنكره، وقال أيضاً:

- صوتك ناعم!

لم أنتبه، سألني عن عمري وإذا كان بالإمكان أن نشرب فنجان قهوة معاً، ورغم أني أعي ضرورة شرب فنجان قهوة معاً لنتحدث، إلا أنني تلكأت في الإجابة، ثم قلت:

- مع السلامة.

أغلقت السماعة بتهور طفلة ضبطها والدها تغازل على الهاتف. لم يضبطني أبي ولا مرة. لم يكن في بيتنا إبان مراهقتي هاتف ولا أب، ومن العسير أن أغازل من بيت جارتنا "أم صبحي" حيث نستخدم هاتفها عند الضرورة القصوى، أو من دكان "أبو حسين " البقال الذي يرابط وجهه بوجهي وكأنه مسؤول عن كل كلمة تمر في أسلاك هاتفه الخاص، يقول أهل الحي إن همّة "أبو حسين" العالية في التلصص على المكالمات عادةٌ اكتسبها من أيام تنظيمه في جهاز المخابرات .

أعود إلى السبب في إغلاقي سمّاعة الهاتف بعصبية في وجه مستشار الوزير . بصراحة، انزعجت وخفت من هذه الدماثة التي تستفسر عن عمري، وتلحظ الرقة وتوزيع النغمات في حبالي الصوتية، وقلت: "سأجد كاتباً آخر، لن يكون الأمر صعباً".

عثرت بسهولة على رقم هاتف دارة الفنون، حيث يعمل الروائي والشاعر إبراهيم نصر الله، هل أجد لديه الوقت لسماع حكايتي وهو منصرف إلى "الملهاة الفلسطينية"!

تحدثت مع الكاتب في إطار محاولة أخاف فشلها . عبر الهاتف جاء صوته أيضاً نعسان . لماذا يتحدث الكتّاب وكأنهم قادمون من عالم بعيد!

ادّعيت أني قارئة (في الحقيقة لم أقرأ له ، ولكن عنه في مقال مصحوب بصور ته في الصحيفة). باشرته بأن لدي حكاية أعتقد أنها ستفيده بالكتابة. كنت أكثر جرأة ؛ إذا كان المستشار أبسط مما تصورت، ماذا عن مدير قاعة للندوات! هكذا يجب أن نعامل معشر الكتاب، نمنّ عليهم بحكايتنا وتفضُّلِنا بقراءتهم قبل أن يمنّوا علينا بتميزهم ومواهبهم، فأنا مَن سأعطيه الحكاية ليكتبها بدلاً من غرقه في مستنقع القضية العربيةِ الخاثر. لهذا تحدثت من موقع المانح ولم يشعر بما رميت إليه، وقال بأدب المتعجل والمنشغل والمستهين بما لدي:

- عظيم، واصلي الكتابة، يمكنك أن تتركي كتاباتك في رابطة الكتاب عند محمد المشايخ، هذه هيئة تهتمّ بالهواة.

لم يفهمني، وقيّمني بصورة مجحفة.. لست هاوية تكتب الخواطر وتنشد رعايته أو رعاية مؤسسة ما. لم يفهم، رغم أنه بدا فهيماً في الصورة، ولم أجد الشجاعة في نفسي كي أشرح، قلت:
- مع السلامة.
أن تبحث عن محرّر لهمّكَ أمر ليس بالهين، ولو استسهلته لحين. لو أني سعاد الصباح مثلاً لكان الأمر أيسر، لأن عوامل الشهرة والمال ستزين الحكاية، ولكني "نارة عدنان"، اسم في صحيفة لا يقرؤها إلا أصحابها، وفئة أخرى تهتم بمعرفة بماذا تفكر النملة وهي تجمع فتافيت خبز الفقراء، وقد اكتشفت خلال بحثي عن المحرر المرتجى أني خجولة حيال الرجال، رغم عملي معهم، فمسألة عقد صفقات الكتابة وما شابه تجعل كل خطوة شبهة . هذا بعض الانزعاج الذي أصابني عندما سألني "مؤنس الرزاز " عن عمري و طالب بجلسة " فنجان قهوة ". بعدها بشهر واحد بكيت بذهول كأني شربت قهوته. ليتني شربتها.. فالرجل مات. هكذا كما يموت ملايين البشر كل يوم. صار مجرد صورة ونعي في الصحيفة. لم أتمكن من شرب فنجان قهوتي الصباحي، حنقت على متعهد الخدمات في الصحيفة، قلت بغلظة للفتى الذي حمل صينية رشرشت فناجينُها قهوتَها، إنه أقذر قهوجي على وجه الأرض، ولم يردّ، يعرف أني أقول الحقيقة، وأني صاحبة غضب مفاجئ ومؤقت.
ألا تستحق الحياة التافهة المعاشة أن نكتبها مناكفة لمجهول ما! لا أبحث عن تبرير شرعي للكتابة، ولكني ارتطمت بحديث شريف في مجلة عابرة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله (صلعم) يقول: "أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، ثم قال له: اكتب . قال : ما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة".
قد تسخرون من استعانتي بالحديث تبريراً، لكني أعترف باللجوء أحياناً إلى ثقافة دينية أختزنها وأوظفها حسب رغباتي، وقد اخترق الحديثُ النبوي حجابي الحاجز، وتوغل في أعماقي كأنه الباب الكبير ينفتح على السر العظيم، وازداد إصراري على كتابة الرواية، سميتها الآن صراحة ومن دون مواربة "رواية"، لأن اختياري وقع على الكاتبة "سميحة خريس" لتحرر ما هو محبوس من أفكاري، وهي كاتبة مهووسة بصفة "الروائية". عرفت ذلك عبر أحاديث طويلة ومضنية معها. عندما وقع اختياري عليها لم أهاتفها، إذ إن كونها امرأة عالج ترددي و ضاعف جرأتي،

فداهمت مكتبها في الطابق الثالث في صحيفة "الرأي" الغراء من دون موعد . توقعت أربعينية بوجه باسم منشغلة أو متشاغلة إلى حدّ بعيد . توقعت أن تقول لي : "عشرات النساء يخبرنني القصص كل يوم، ولكن ما هكذا تُكتب الرواية"، وحدث كل ما توقعت،. لم أسألها كيف تُكتب الرواية، ولا نية عندي لسماع محاضرات في فنون الكتابة و أصولها. أريد أن أحكي، وأن تتحمس هي لي فتكتب. أهدتني روايتها "خشخاش" بفوقية واستعلاء مدثّرين بتواضع ظاهري، قالت:

- كتبت مثل حكايتك مرة واكتفيت.

عندما قرأت "خشخاشها" في المساء، طار برج من نافوخي . لست جنيّة، ولا مخلوقة عجائبية مثل بطلة روايتها تلك . أنا "نارة" . امرأة من لحم ودم . وأريد كتابة قصتي . وجدت في نفسي الشراسة اللازمة لاقتحام مكتبها مرة أخرى، ومرات بعد ذلك. شعرت أنها تتأهب لطردي يوماً، ولكني واصلت إلحاحي مثل قرادة لاصقة على بدنها، إلى أن لانت وبدت أكثر صبراً معي، قالت:

- ماذا لديك يستحق أن يُكتب؟

لا تدار الأمور هكذا . عندي كل ش يء، ولا شيء. علينا المجازفة بمغامرة رعناء، ثم عليها أن تكون ممتنّة وشاكرة . من ذا الذي يتسنى له فرصة ذهبية كهذه؟ أضع ذاتي لحماً ودماً وروحاً وخيالات تحت إمرتها . أتحول إلى قطعة "ستيك" شهية في صحنها . بإمكانها تقطيعي بالشوكة والسكين، أو تنسيل لحمي بأظافرها الطويلة المزدانة بالمناكير، ثم "قرمضتي" تحت أضراسها، ولن أبخل عليها بالمشهّيات، كومة بازيلاء من الناس عسيري الهضم، وكومة جزر من مفكرين وإعلاميين وأدباء "تتمزمز" بهم قبل البلع . عليها أن تكون شاكرة حقاً، لا أن تفتح معي تحقيقاً مستهيناً مثلما فعلت. في خطوة من خطوات الخلاص مني ادّعت أنها لا تكتب عما لا تعرفه. لا تنطلي حيلتها عليّ، ولا أصدّق أن كل ما كتبته في رواياتها تعرفه تماماً، وها هي تدعي جهلها بأروقة وأجواء صحيفتي الصفراء، وتقول باستهانة إنها لا تعرف إلا "الرأي" ، فإذا كتبت (إذا كتبت!!) فإن ذلك سيكون عن أحداث تقع في دهاليز "الرأي" الغراء. يا لمجدي القادم ! كلنا نحلم بأن نُحسب على كادر هذه الصحيفة، طمعاً بالقراء والتأمين الصحي والمزايا المادية . ما ضرّ لو قالت إن ما حدث، حدث في "الرأي" الغراء رغم أنه لم يحدث فيها؟! ليس مهماً إذا كان قد

حدث حقاً، فأنا ومن خلال محادثات طويلة مع الكاتبة الروائية، تسمّ البدن -أقصد المحادثات لا الكاتبة- كنت على يقين بأن كتابتها لن تكون كما أريد تماماً، فهي تميل إلى تسريب بعض الأمور، وأبغى تحقيق أخرى، وسيختلط الحابل بالنابل، ولكني لا أملك خياراً، لهذا كان شَرطي كتابة هذه المقدمة بكل سقطاتها ، بعجرها وبجرها (هل هذا التعبير مفهوم؟ !)، وتتعهد الروائية بجعل كلماتي مقدمةً للرواية من دون تبديل أو تحريف، بينما أتعهد أن لا أتدخل في الحكاية كما ترويها طالما كانت تستعين بجراب الحاوي الخاص بي.

بصراحة، لا أعرف حتى هذه اللحظة كيف أقنعتها ووافقت!

أظن أني كنت مقنعة، و"نارة" حقيقةً أيقظت شيئاً خفياً في أعماقها، ولكنها أيضاً احتالت على الأمر بصورة خبيثة، فكتبت مقدمة تلي مقدمتي . لعلها تسخّف أمري، أو تبرأ مني، أو تقيّمني بقسوة. لا يحق لي قراءة مقدمتها. هكذا أبرمنا اتفاقاً مسبقاً، ثم إني لا أمتلك وقتاً كافياً لقراءتها .

لا أعرف ماذا ستقول لكم عني ولا أهتمّ، وأدعوكم لتصديق الرواية فقط وترك المقدمات، فهذا هراء وفائض نحاول فيه أن نشرح أنفسنا، ربما لا تحتاجون إلى كل هذا الشرح!

المقدمة الثانية

ما قالته سميحة

هنا أكسر القاعدة..

النص عندي عادةً صحن شهيّ ووجبة للروح تقدم نفسها طازجة وحارّة من دون مقبلات ولا شروحات إضافية، إذ يجدر بالعمل الجميل أن يتقدم وحيداً متفرداً متغندراً ونرجسياً، ولأني دُفعت إلى هذه الزاوية دفعاً ، فقد اضطررت إلى كسر القاعدة ودخول النص بمقدمتين، إحداهما ما قالته "نارة"، والثانية ما قلته أنا.

أدرك كم هي كلماتي جافة وتقريرية بعد مقدمتها، لكن "نارة" الملعونة، السخطة التي حظيت بها فجأة، وحطت فوق حياتي من دون تمهيد، تعمدت خلطَ أوراقي بأوراقها بصورة محرجة، فكان لزاماً أن أقوم بمهمة الفجر، أبيّن الخيط الأسود من الأبيض، حتى لو كتبت مقدمة تبريرية خشنة مثل هذه.

حين اقتحمت الصبيةُ المرأة مكتبي ذاك الصباح، لم تكن لدي أي هواجس أو أفكار مسبقة تتعلق بها. لعلي قرأت اسمها مرة في صحيفة بائسة من دون أن يسترع ي انتباهي، لذلك لم يكن لحضورها أيّ معنى عندي، بل إنها، وقد بدأتْ تفصح عن رغبتها، حظيتْ مني بإهمال تام وسخرية باطنية. لم أسعَ إلى صدّها بطريقة تفتقر إلى التهذيب، فقط تحدثت بصدق عن تكرار المشهد أمام ناظري منذ عشرين عاماً.. صبايا، ونساء، أحياناً رجال، يدخلون إليّ حاملين أوراق حياتهم، مستعدّين لتحويلي إلى طبيب نفسي، ومضحّين بأدق أسرارهم عسى أن يقرأها العا لم بأسره في رواية أكتبها، يراهنون على عدد قرائي من ناحية، ويولونني ثقة لست جديرة بها، فقرائي قلّة، لا في العير ولا في النفير، وما أكتبه لن يزعزع بلادة العا لم وانحداره نحو الهاوية، ولكنهم متعَبون يرغبون باعتراف مكتوب . حدث هذا كثيراً، ولم أكن مغرمة بتقمص دور الطبيب، ولا أملك القدرة وطهارة الروح ورفعة النفس كي أ لعب دور الكاهن الجالس بوقار ورحمة وراء شبّاك الاعتراف في الكنيسة. أكتب بنرجسية أنحاز فيها لذاتي ولو تناولت وجع الناس، أستلّ منهم ما أريد من دون أن "يشرّفوا" إلى مكتبي أو بيتي لأكتبهم، أذهب أنا إلى مناطقهم الحرجة الداخلية كما أتخيّلها وأرسمها، من دون أن أجشّم نفسي عناء لقاءات مباشرة تحمل طابع الصفقة . مثل هذه التدابير بعيدة عن الصدق، كما إنها لا تخلو من السوقية . يهينني ويغيظني للغاية الشعورُ أن امرءاً مهما بلغت براءته وسذاجته يتصور اقتداره على اكتراء قلمي، وقد طورتُ مع الوقت أسلوباً ناجعاً في صدّ هؤلاء المتعَبين، المتعِبين، أسلوباً وسطاً بين الرقة والدماثة والحدة والحزم، هو صدٌّ دمث أو طردٌ مهذب. قد أنصرف إلى تسخيف قلمي والنيل من أهميتي، كي يقتنع الدّاعي بأني لست الشخصَ المناسب لكتابة تاريخه التليد . هكذا تصورت الأمر مع "نارة " التي جلست في اللحظات الأولى على استحياء في مقعد إلى يساري، ثم ما إن طلبت لها فنجاناً من القهوة سكّر خفيف، حتى علقت قدمها اليسرى فوق اليمنى واسترخت. تعاملتْ مع منفضة السجائر المتروكة

على الطاولة الصغيرة أمامها بألفة . رفعتها عن الطاولة إلى حضنها واستخدمتها بشراهة، كأنها ممددة بقميص النوم على أريكة في بيتها. تحاول رفع الكلفة ، كما تحاول فرض وجودها كصديقة أو مشروع مربح بالنسبة لي. ورغم إحساسي بما تنطوي عليه حركاتها من الوقاحة والبله، إلا أنني استمعت إليها بصبر معقول . لم يكن لدي كثير من المهام في ذلك اليوم بالتحديد . لم يفاجئني حديثها تماماً ، كون هذه الصورة تكررت مراراً في حياتي، ولكني لم أتوقع اقتحاماً جريئاً من شخص لا أعرفه، ويبدو أنها لم تصدّق أني لا أعرفها . تفترض أن كوني صحفية (مثلها) يدفعني لمتابعة مقالاتها النارية . ادعت أن مقالاتها نارية ! ولم ألمح شيئاً نارياً عدا اسمها !! لا أعرف سبباً واحداً مقنعاً يدفع بأسرة أردنية محافظة لإطلاق اسم "نارة" على مولودة أنثى . لماذا نفترض المحافَظَة في أسرة أردنية؟! رغم شرود ذهني إلى تفاصيل بعيدة عنها تارة، أو تتعلق بها كوقْع اسمها على السامع، فإني منحتها من الوقت القليل قبل أن أبتسم بخبث وأقول لها إن الحكاية ليست جديدة عليّ، و إن روايتي "خشخاش" كانت عبارة عن التباس بين كاتبة ومكتوبة . قدمت لها الرواية بإهداء أخطه دائماً : "إلى نارة.. مع الود"، لم أكن بحاجة إلى هذا التعبير الودود، ولكني أكتبه كما يفعل نجوم السينما بآلية واعجاب بالذات فحسب .. "مع الود" كذبة صغيرة لا تضرّ، يمكنها أن تنقلب إلى حقيقة! بإمكان الود أن ينبت فجأة في هواء الحجرة.. رأيته لحظتها ينمو رغماً عن الأفكار الطاردة التي تتعلق بانزعاجي من طريقة جلستها، وعدد السجائر التي "معستها" بسوقية في المرفضة.

انصرفتْ تؤرجح روايتي في يدها و رجحتُ استحالة عودتها، فقد بدت على قدر معقول من الذكاء. سرعان ما ستدرك أن نزوة مخجلة حملتها إلى بابي. لن أرى وجهها بعد اليوم، لهذا لم أتذكرها بتاتاً في اليومين اللذين مرّا بين زيارتيها الأولى والثانية. لا أثر لها في الذاكرة وأنا منصرفة إلى حالات من الحزن واليأس والعمل المكثف . إنه عام حزين مثقل بالوجع، عام الثقافة، 2002. فيما بعد أدهشني أن "نارة" تسمّيه "عام السخافة". تقلصت ملامح وجهي استنكاراً. لا يجدر بي قبول هذا النوع من المزاح مع مواطنة شابة تتقدم مني بطلب أسخف من السخافة . كنت أحتاج إلى مزيد من الإيمان بكل ما نفعله بعام الثقافة هذا ريثما يمر بسلام، لهذا لم أتجاوب مع مزحتها . أشياء كثيرة لم أتجاوب معها في البداية، ولكني أصدقكم القول ؛ إن "نارة"

هذه لعنة لطيفة، كارثة لا يمكن الفكاك منها، وقد يحلو الاستسلام لها. لقد تمكنت من إقناعي، رغم شعوري أن كل ما تتحدث به نوع من الهراء لا يناسبني ولا أحترمه، فهي دائمة الضحك، ضحك يميت القلب ويُتفّه المواقف ويمسح الهيبة، حادة السخرية حدّ المسخرة، ثقيلة المزاح حد الإيذاء، تنتمي إلى فئة من البشر لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، غير معنية بالأصول عموماً، أرجّح أنها لن تصل إلى نجاح مهني أو حياتي وهي على هذه الحالة المزرية من الافتقار إلى اللياقة وأبسط أساليب التصرف وقواعد السلوك، ولكنها حركت منطقة منسية في ذاكرتي، أضاءت بقعة معتمة واستفزّتني إبداعياً. كنت قد خرجت للتوّ من عملين مجنونين ؛ رواية هلوسة استنزفتني وكادت تلمسني بالجنون، أسميتها "الصحن"، نبش ت فيها وراء الأكمات، وزوّرت أمراضاً عقلية ونفسية مستعيرةً ملامح بشرية قاسية من خيالات الشياطين، كذلك كنت أنتشل نفسي الغارقة في سيل عمّان القديم الذي تجرّأت على بعثه مجدداً في رواية أسميتها "دفاتر الطوفان". اندفعت إلى زمن مغاير بحثاً عن الرضا وعدت من هـ غريبةً عن زماني. روايتان في عام، هذا بحد ذاته أمر مُضْنٍ يمتص رحيق الروح ويُلقي الكاتبَ خرقة بالية على قارعة الطريق . كنت بحاجة ماسة إلى استراحة المحارب . حتى في الحياة وبعيداً عن هلوسة الكتابة أحتاج إلى هذه الراحة. برامج إذاعية ومسلسلات ولجان ومحاضرات في المنتديات الثقافية ومساهمات هنا وهناك، وصحيفة مؤقتة أتولى رئاسة تحريرها، ووظيفة جديدة في "مركز دراسات الرأي ". مهام بالكاد أعرف أبجدياتها، أج ذ ف في بحر من التعب والتوتر والقلق، كما أفتقد الأصدقاء الذين يموتون فجأة من دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التلويح لنا. وحيدة على صخرة في مهب الريح، أتماسك بصعوبة كي لا يذروني الهواء، أُمَنّي النفس بالراحة مع انتهاء عام السخافة، عذراً، عام الثقافة ! أفكر أن أتحلل من بعض المهام، وأن أتفرغ لطباعة روايتَيّ "الصحن" و"دفاتر الطوفان" . أفكر بتنظيم برنامج للمشي السريع في طرقات عمّان بهدف تحرير الروح ومسح صد ئها، والتخفيف من وزني الذي زاد مؤخراً . أفكر بالسفر إلى جزيرة معزولة، أخترع طرقاً للا ستمتاع مع عائلتي وأحبابي. كنت أمنّي النفس بالراحة حين هبطت "نارة"، لتشعل إوار رواية جديدة لم أسع إليها. استفزّتني، أقنعتني، سلّتني، لا أعرف حقاً العامل الأكثر ترجيحاً في قبولي هذه المهمة، خاصة أن هنالك أمراً غامضاً ألحّ على حدسي . هذه المرأة الغامضة ليست موجودة أساساً! أضحكني الأمر

بداية لما يحمل من تشابه ساذج مع نصّي "خشخاش"، ولكن الغموض الذي اكتنف حالتنا معاً ظل يدفع بي نحو مخاوف غريبة ملتبسة. مثلاً، أنا لم أتمكن من لمسها، لم أسع إلى ذلك. بصراحة خشيت الاقتراب منها، ظننت أن مجرد تمرير رأس إبهامي على كتفها قد يؤدي إلى اختفائها كلياً.
عذّبتني هذه الأفكار أحياناً، وتجاهلتها أحياناً أخرى، لأني وجدت رغبتي عارمة بكتابة قصتها، ربما انسياقاً نحو العبث والسخرية . أعترف بحاجتي الماسّة للضحك ؛ الضحك من الحياة وعليها !
ورغم أننا اتفقنا أن أكتب بحرية من دون خيانة روايتها، ورغم أن "الآنسة نارة" لم تتوقف عن انتقاد أسلوبها، وهذا ما تجده المبرر الكافي للاستعانة بمن يحرر لها الحكاية وهو ما قادها إلى مكتبي محمّلةً بهذا القدر من الحكايات الغريبة، إلا أنني لا أجد غضاضة من الاعتراف أني استمتعت بأسلوبها وتأثرت بسخريتها، بل وبتّ أرى الأشياء بعينيها، وأعتقد يقيناً تاماً أن التخريب الذي تُحدثه هذه الـ"نارة" في الكلمات والأفكار ليس مجرد تغيير عادي، ولكنه تجديد كامل، خروج من قلب الرماد إلى ضوء الحياة!
الملعونة، كانت في نظرة واحدة وكلمة خاطفة تمسخ الفيلَ نملة، وتضحك . ليس من السهل أن نضحك عندما يتوجب البكاء. المجانين وحدهم يرتكبون إثم الضحك في غير موقعه من دون أن يُلاموا ويقرّعوا، وقد يشدون ربطة عنق العاقل لمشاركتهم . لا يعني هذا أن ضحكها ضربٌ من الجنون أصابني بالعدوى فرحت أقهقه وراءها، ولكني تدبرت الحال فوجدت أنه من العبقرية أن تمشي ضاحكاً في مأتم الحياة المضنية؛ أن تقفز منفرجَ الأسارير وسط جمع من أشباح حزينة لطّامة ندّابة. ستكون لك فرادتك ، وقد تتمكن من إنقاذ نفسك في المذبحة اليومية التي تقف فيها منتظراً دورك في صفّ طويل، إذا لم أضحك معها فإن قلبي ميت لا محالة!
ضحكنا كثيراً، ثم كتبت هذا العمل ساخراً، راقصاً، كما هي ضحكتها الصبيانية، ووفقاً للاتفاق بيننا لم أسمح لها بقراءة ما أكتب . لقد أولتني ثقة عمياء كأنها لا تهتمّ بكمّ التخريب الذي قد يُحدثه قلمي أو رغباتي الدفينة . شعرت مراراً باستعلائها الغبي على ما سأكتبه عنها ، وتظاهرت بأني لم ألمح تلك الخصلة القبيحة من طباعها.
هكذا مضينا في خياراتنا باحترام كامل ؛ لم أخبرها أني اخترت كتابة العمل بصيغة المتكلم وبأسلوبها حتى أَحُول دون ارتباكها وأنا أتلقى الحكاية سرداً كأنما أجالس شهرزاد. هكذا ضمنت

الحفاظ على نارها متقدة. بقى أن أُخْلي مسؤوليتي تماماً حول الذين تجنّتْ عليهم، أو حوّلتهم إلى أراجوزات، وألعاب ظل، ودم ى مسرحية مربوطة بشرائطها وحبالها المتشابكة في كواليس مسرحها الفنتازي العجيب . لا أدّعي أني أعرف أحداً منهم، أو أني كنت يوماً شاهداً على صحة تلك الأحداث.

كل ما ورد في هذا النص، هو ما تدّعيه "نارة".. ومن يصدّق "نارة"؟!

إلى قارئ محتمَل

لا أعرفك. ببساطة ومن دون تعقيد نتعارف الآن. لولا لقائنا المحتمل هذا ما بُحت بكلماتي.

متى ستقرؤني؟

ربما بعد مئات الأعوام من قيام أسيد ا لأرض بامتصاص جسدي وإذابة لحمي فيه ؛ لحمي الذي عرف من المسرات أعلاها وأحلاها، ومن الأوجاع ما لا داعي لذكره في لقائنا الأول. أكون هذه اللحظة تحديداً، لحظة وقوع ناظرَيك على كلماتي، مضيتُ كلّي، بينما حروفي تنبض بين يديك، تمسح عينيك برفق، وتعانق روحك، وتقول لك عكس الواقع المادي، تخبرك أني ممددة على أوراقك، أجالسك القرفصاء و في مرمى حواسك لو أتقنتَ قراءتي . لهذا، حاول بجدية عالية وعبث ساخر أيضاً. ابْذِلْ جهداً للوصول إلى العبث، كونه أكثر صعوبة وأبعد درباً . "لا جدوى من أخذ العا لم على محمل الجدّ"، لا أعرف قائل هذه العبارة، أقول عبارات كثيرة لا أستطيع

تحديد مصادرها.. تأتي من القراءات، من نثار السادة الكتّاب الذين يستبيحون عقولنا كل يوم، أما هنا فأدعوك للجدّ واللعب في آن واحد.. لا جدوى من اتباع نهج واحد في قراءة مملة . دعنا نتواصل عفوياً.

لا أعرف زمانك ومكانك . طبعاً لم يعد هذا مهماً بالنسبة لي، فأنا في اللا مكان واللازمان. سأكذب لو ادّعيت أني أكثر سعادة أو أكثر شقاءً مما كنتُ لحظةَ بَوْحي بهواجسي، لأني في حقيقة الأمر لا أعرف ولا يمكنني أن أقدّر ذلك، إذ أحاول اقتباس النار قبل أن تنطفئ، وأهجس بهذه الكلمات على وجه التحديد في زمان يسبق الوقوع في حالة الغياب التام، ولا أريد اختراع مشاعر أضللك به ا.

هل تقرؤني عبر شاشة أم ورقة مطبوعة؟ لن أشغل بالي بالوسيلة التي تصلك كلماتي بها . هذا شأنك وطبيعة زمانك وظروفك . قد يستحيل عليّ تصوّر ما تصلون إليه من تقنيات، فالعالم يُبدي جنوناً متسارعاً في هذا الاتجاه المرعب، بعيداً عن طرائق اتصالنا . استمتعْ معي بلقائنا العبقري. سأجلس برفقتك نحتسي الشاي إذا كان لديك بعضه، أو أي مشروب ساخن . المتوفر بلا حرج . صديقان نحن . لا يهمني أن يقرأ لي جمهورعريض . أفضّل الجلوس إلى فرد صديق. هكذا يكون للحوار معنى وروح. نتضاحك، نتمازح، نتباكى، نتشاكى، نتلامس ونتعارف. يمكن للمئات أن يتواصلوا معي، فرادى كأنما كل منهم مستأثر برفقتي، بحيث أختلي بالواحد وأتمكن من استدراجه إلى عالمي . في زماني الذي أهلوس فيه أفضّل أن أكون لقارئ واحد . لا شيء تغير. أنت هذا القارئ. أنا وأنت اثنان في واحد. قل: "مرحبا" للصديقة التي ذابت في الأرض لتنبت فيك، في صدرك، في قلبك، على حفاف الروح، زهرة أو شجرة أو مجرد حشيشة أرض ناحلة، نور جذل على شباكك، أو لهابة حمقاء تداعب أصابعك، لست أدري.. ما أعلمه علم اليقين أن الكلمات باقية.

لنبدأ من السطر الأول.. الحدث الأول.

تنطبق السماء على الأرض عادة، تساحقها تماماً، فلا تترك مجالاً لنسمة أو بريق.

من يقول هذا؟!

أنا "نارة" أصرّح بما أعرفه، و أدرك أن السماء لم تتزحزح عن موقعها ولا توانت عن إحكام

التصاقها الوشيج بسطح الأرض إلا عندما تمطّى جسدي، وتجرأتُ فرفعت ذراعي العبقرية، ثم مددت سبابة كفّي كذؤابة مشتعلة، وبإصرار أزحت الفضاء المعتم عن صدر الأرض . كان حالكاً إلى حد مرعب، وراح يتكور فوق الأديم رشيقاً، متمهلاً، لينسرب النور إلى الظلام. لعل الضوء انبثق من سبابة كفي، لعله انبعث من ذاته، تقدّم على مهل ولوّن الأفق مواصلاً الاعتلاء في ليل كحلي غامض ما لبث أن أضاء انفلاشاً أزرق صريحاً. عندها فقط، خفقت النسمات في الفراغ، هسهست رائقةً في سمعي . وحدي من كنت أملك سمعاً في عالم أصمّ. تتابع النسيم مبتهجاً وماج حتى أزبد، صار هواءً عاصفاً ثم زوابع متلاطمة وضوضاء مخيفة، وبمثل ما ربض على الكون انحسر، استرخى العالَمُ هنيهة و تنفس بانتظام كالهسيس. حدث كل هذا بلمحة بصر، وفي الثواني التي ارتدّت فيها أناملي لتستريح، تَشكّل تاريخ البشرية الطويل ؛ ذاكرة الخير والشر، العقل والجنون، إمبراطوريات وشعوب ودول سادت ثم بادت، وأخرى تجددت، ثورات ونضالات تشتعل وتذوي، فيض من الخبرات والمعارف والضلال والشك واليقين، مشعوذون ومهرجون وساسة، شياطين وأنبياء، عشاق وأوغاد يحترفون الكراهية، ضحايا وقتلة، أبرياء وخونة، رجال يرتدون الأقنعة، وأطفال دهنوا وجوههم بالسكّر، ونساء مطليات بمساحيق التجميل، وعمال يلوّثهم سناج أسود، وآخرون مطمورون بأتربة بيضاء وغبار، جن وإنس .. كل هؤلاء، وما حدث لهم، وما وقع بين الأرض التي انتصبتْ فوقها قامتي والسماء التي ظللتني، أعرفه يقيناً، وأعرف أن لا أهمية له على الإطلاق .. مجرد حكايا أؤثث بها فراغ الدنيا، أحترق بها وأشعل الأشياء لنموت معاً ونتجدد في كل حين.. حكايات تشبه ما سبق وما سيلحق، ولكنها الآن.. هي الدنيا!

تلك الحكاية غير حقيقية، أعني أنكم تعرفون أننا لا نوجد هكذا، لا نُبعث مثل مَرَدة أو عفاريت من لهب يشبّ بين الأرض والسماء. لسنا بهذا الحضور القدسي الأسطوري الجليل. لعلنا مجرد بتلات زهر تذروها الريح، مجرد هباء! فما هي الحكاية إذاً؟!

"هيستا" آلهة النار، حامية البيت! المنعزلة التي ما مالت يوماً إلى بشر! حملت ابنتها في يومها الخامس ودارت بها حول الموقد، وألقت تمائمها والتعاويذ، قالت : "أيتها الروح الحارسة، باركي ناري واحفظيها، امنحيها الخلود ما بقيت جذوةٌ من نار في الموقد "، ثم انحنت "هيستا" العظيمة

فوق جذوة النار واختطفتها، وفي سواد الليل خبأتها في جرّة الفخار فلا تطفئها عينٌ حاسدة . تتجدد الجذوة في قعر الجرّة كل حين، وخلافاً لكل نواميس النار وانصياعاً لتعويذات "هيستا"، كل ماء اندلق في بطن الجرّة وهّجَ جذوتها كأنها استقت إكسير الحياة.

لا أتحدث لغو المجانين، ولا لهو العابثين، ولا حكمة العاقلين . "نارة" لغةٌ بذاتها ولذاتها، خليط الماء والنار، وأن يعثر امرؤ على هذه الأوراق يوماً ويقرأ، يعني بالضرورة انبعاث جمر "نارة" بين عينيه. كم نار ستشتعل كلما قرأ أحدكم كلمة! هذا كثير.. لا يُحتمَل.

ستحترق الدنيا وتترك إمبراطورية الورق رماداً، تتفحم المعاني وتتطاير الأفكار لتولد مرة تلو مرة...

ما لي والأساطير! إنها احتيال بدائي على المعاني، أما أنا ، قلبُ النار، الكيان الشكّاك واللغز الغامض الكاشف، فليس ما ترون من بهاء اللهب مجرد صورة وادعة، ولا عبثً بلا معنى . إنه مخاتلة منقوشة على أعصابكم بانتظار وصول اللسان المتوهج إلى الأشياء، يلمسها بداية كأنه يمر مصادفة، يداعبها بانعكاسات اللون الأزرق الصافي، ثم ينشب سعيره فيها أحمرَ نافثاً دخاناً مسوَدّاً. هي النار تتفحص بدقة، وتنخل معدنَ الأشياء، لا ترتضي مجرد النظر ، تخلل المادة وتتخللها، تفككها وتمتحنها لمعرفة ماهيتها الخفية قبل إحالتها إلى عناصرها الأولية. مَن لا يعرف النار الكامنة في الأعماق لا يتذوق لذة طعم الحياة في أعلى مراتبها.

ما لكم وسفسطة الفلسفة، إنها بلا طائل، أفضّل وتفضّلون عنها الحكايق

***

انتعلتُ حذاءً مضحكاً، شبشباً أنيقاً ، في "الأشرفية" حيث البشر كلاسيكيون وبسطاء، ليسوا بسطاء تماماً، ولكنهم لن يصدّقوا أني أذهب في يومي الأول إلى العمل مبرزةً أصابع قدمي هكذا، يطلّ الأصبع الكبير من طرف، ثم تتراصّ الأصابع الأخرى إلى جوار بعضها بعضاً، قد يفسرون فعلتي "قلة قيمة"، ولا يلاحظون فرقاً يُذكر بين شبشبي وزنّوبة الشطف الزرقاء الجلدية الرخيصة التي تنتشر على أرصفة سقف السيل وتُباع بخمسة عشر قرشاً فقط، كانت بخمسة قروش، حتى هذه عرفتْ تضخّمَ الأسعار، وطالتها شروطُ البنك الدولي، على أن سعرها ظل عادلاً، وفقاً لمقولة نسبية العدالة، فالزنوبة الكاوتشوك لا تخدم في قدم الصبيّة أكثر من أسبوع، خاصة إذا كانت مثل جارتنا "وداد"، مولعة برفع بنطالها عن ربلة القدم الممتلئة البيضاء تلاحق

سلسول الماء بمقشتها المهترئة من قاع الدار وحتى المزراب، بالكاد تخدمها الزنوبةُ أياماً معدودة ولكن هذا الذي أنتعله مختلف تماماً، ليس من الكاوتشوك الرخيص و إن كان من جلد صناعي تافه، التمعَ وراء فترينة أنيقة في "جبل الحسين" وناداني لابتياعه، رأيت مسبقاً بنات "عبدون" ومن جرّ جرّهن ينتعلنه في أقدامهن البيضاء الناعمة الرشيقة ذات ا لأصابع المصبوغة بالأحمر المـلالئ يجلسن على شرفة مقه ى "لوجانس" وقد شعلقن الشبشب في الهواء وشددن أنفاس الأرجيلة، ونفثن من فتحات مناخيرهن الصغيرة هواء معطراً بتنباك التفاح والفراولة كأبرع سائق حافلة. لا أعرف لماذا يطيرّن أقدامهن على هذا النحو، ففي المجلات التي ترشدنا إلى "إتيكيت" الجلسة الأمثل، تُفرَد صور سيدات المجتمع والنساء الشهيرات وهن يسدلن قدماً على قدم في وضع مستقيم أنيق، بفعل الرشاقة، أو الأصول، كأن أحداً ربطَ الف خ ذين وشدّ وثاق عراقيب الكاحلين. قطعاً يشعرن بالأ لم ويتحملنه إكراماً للصورة أو الموقع الاجتماعي. لعل بنات الأحياء الراقية المعاصرات يتفادين هذه الأوجاع عندما يفشخن أفخادهن في الأماكن العامة بجرأة يُحسدن عليها ، أو يعامدن أرجلهن لتطير الشباشب في الهواء وتقابل أقفيتُها الممسوحة وجوهَ المارة اللعينات، لا يشعرن بالحرج أو ارتكاب فعل فجّ . لا بد أن تكون هذه هي الموضة، حتى و إن أثارت سخرية بنات "الأشرفية"، هيا! "الأشرفية"! وبناته الطيبات جارات المستشفى الحكومي والمسجد القديم، المحاصَرات بالأبواب وعيون الجيران الوقحة، ماذا يعرفن عن الدنيا! تدرّبن طويلاً على جلسة خجلى، يضممن أفخادهن بقوة خوف انفلات العصافير، ثم إن تمسّكهن بالصنادل التقليدية المصنوعة من البلاستيك كأنه جلد أصلي لا يخوّلهن حق انتقاد حذائي الجديد الذي يسلخني عن طبقتي.

للأمانة، من عاداتي القبيحة تصوُّر ما يعتقده الناس قبل أن تفصح ألسنتهم، فـلم أسمع مثلاً أي انتقاد مباشر لشبشبي. فقط قرأت ما تقوله العيون المحملقات المستنكرات في قدمي هذا الصباح عند موقف السرفيس، ولأن قدمي ناعمة -مصادفةً - وأصابعي تصطفّ من دون عيوب أو طلاء كيخنات الملفوف في صحن ربة منزل بارعة، لم أجد بأساً من هذه الموضة. في الحقيقة هي فرصة لملامسة الأرض الجديدة التي سأخطو فوقها، فبلاط المؤسسة من المدخل مروراً بالدّرج وصولاً إلى مكتب الرئيس من الرخام الأردني الفاخر ، يدّعون إنه ينافس ا لإيطالي، لهذا سعدت

بشبشبي، واغتنمت أول فرصة غفلتْ فيها عينا رئيس التحرير عن تفحصي، لأُقارب بين قدميّ . دفعت الشبشب بيسر فانزلق من قدمي اليسرى، لم تلتقط نظرات رئيس التحرير المشهد. حررتُ قدمي بيسر من الشبشب الموضة، وبحذر ومتعة وضعت باطن قدمي على الرخام الوردي البارد في المساحة الضيقة بين الحائط وسجادة قبيحة تتوسط الحجرة، بات ب إمكاني الاستمتاع بلذة البلاط البارد يدغدغ لحم قدمي بلطف، وقبل أن ترتدّ عينا رئيس التحرير نحوي ليكتشف وقاحة خلعي حذائي في حضرته فيزايله الرضا الذي أبداه في لقا ئنا القصير، دفعتُ بالشبشب مجدداً ليعتنق قدمي التي ابتردت وسعدت . هكذا أنا، "نارة" تحب تفحّص الأشياء مباشرة، حارة، حقيقيةً. لا يمكن أن أقنع بالسير على أرض لم أستشعر مقدار حرارتها على لحمي الحيّ، أكرر هذا الاختبار البسيط مرات ومرات، في الصيف، في الشتاء، في الحافلات العامة، في البيت، على الأرض العشبية، في النكد، في الاسترخاء . تختلف الحرارة بين مرة ومرة، مثل اختلافها المذهل بين قدمَي عاشقَين يتصبّبان عرقاً أو يرتعشان برداً ماتعاً. تلك مداخلة لا ضرورة لها الآن، لا أقصد فيها استعراض خبرات جسدية لم أختبرها، ولكني أؤكد الخبرات العامة التي أسعى للإمساك بها من قرونها، وهزّها، وقطافها.

كذا كانت أولى خطواتي في بلاط صاحبة الجلالة، الصحافة، تلك التي تاجها بالشقلوب وكرسيها مقلوب، كنت "نارة" شكاكة، أتفحص الأشياء عياناً وخلسة .. إذا اجتزت الدرابزين الذي يقود إلى المكاتب، فـإني أتحسسه، أحتضنه تماماً بقبضة يدي، أتعرف إليه يقيناً في فعل منافٍ للنظافة والرقة، خاصة أن كفّي على ما يبدو الممسحة الوحيدة التي تتكفل ب إزالة الأتربة عن الدرابزين.. تصرف متهور مثل حماقة فتى مراهق يصعد سلّماً محتكّاً بكل الموجودات حوله . إنها لحظة اكتشاف متوحشة بدائية، أغازل فيها الخشب وجدران الممر في باطن الكف قبل أن أدفع الباب بثقة وأدخل إلى مكتبي، يجفّ ويتقشف باطن راحتي تدريجياً جراء ملامسة المادة الجيرية التي دُهن بها الحائط . كان ذلك قبل طلائها بدهانات "أملشن" الملونة اللامعة التي لا تخرش كفي الناعمة.

يصمت زملائي لدى دخولي بصورة مريبة، ينكمشون كحشرات مذعورة داهمها مفترسٌ من فصيلة مغايرة، أتصوّر مواضيع تمتمتهم ووتوتتهم .. لو أنهم يتكلمون علناً، لكان أفضل لهم،

فخيالي يفترض أحاديث سقيمة.

النار الشكاكة تحب اختبار الأشياء بقسوة، قد تلتهمها تماماً، تأتي عليها قبل أن تتعرف على طبيعتها. عليّ أن أتدرب على الاستجمام برهةً قبل إعطاء النار فرصتها للتوحش الكامل.

للنار خطاياها بالطبع . أحياناً وعلى سبيل التفحص، أبلل لساني بحبر القلم، غالباً ما يزرقّ لساني، وتعتريني متعة غامضة.

في العمل باتوا يلعبون بي مثل جندي على رقعة شطرنج، منذور للإطاحة به في أية لحظة .. كل يوم في قسم، لم يتبقّ إلا قسم خدمات البوفيه، كأني الصحفية العبقرية، الجوكر الذي يصلح لكل موقف، أو كأني تلك التي تفشل في كل المواقع!

للفشل مرارة دبقة أزيلها كل يوم بحمّام من ا لاستهانة وإدانة الكون واتهام الأبرياء، لا أشغل نفسي بأسباب النقل المتواصل وأطيع الأوامر بانضباط تام، ولكني أريد أن أضحك، أن أرسم الكاريكاتير.. لماذا يرسلونني إلى المهمات ثقيلة الظل حيث المكاتب الضيقة ومراوح صغيرة تُصدر أزيزاً مزعجاً ؟ حيث السكرتيرات يمشطن قامتي بنظرات فاحصة كأنها الميزان، قبل أن يتفضلن بالإشارة إليّ للدخول إلى حرم السيد المسؤول، "حرم" هنا ترد تبجيلاً لمقرات المسؤولين ومكاتبهم العامرة، ولا علاقة لها بزوجاته م اللواتي قد يكنّ في تلك اللحظة، لحظة دخولي مكتب الزوج، جالسات باسترخاء تحت مبخرة الكوافير يُخضعن شعورهن الجميلة لحمّامات الزيت . أما في حرم المكاتب، فهنالك رجال يرتدون البزّات الكحلية المقلّمة تقليماً خفيفاً وربطات عنق غامقة شُدّت بحرص على أعناق مكتنزة، وشماغات حمراء مثبتة بِعُقل سود فوق شيب الرأس، يحرصون على التقريب بين العينين في نظرات جادة ترسم خطوطاً طولية قصيرة بين الحاجبين، تزداد عمقاً وفقاً لعمر المسؤول وحجم مسؤوليته، في الأربعين 11، في الخمسين 111، في الستين تتقاطع الخطوط العمودية بأخرى أفقية، في السبعين هناك من قضى نحبه ومنهم من ينتظر بأثلام لا عدّ ولا حصر لها على صفحة وجهه، ولكن -وإقراراً للحقيقة – للمسؤولين هيبة الرجال وكشرة الأبطال.. معلوم، أنت في الأردن، حيث يلصقون في منتصف الوجه فوق الشفاه مباشرة أشناباً كثة، كما يعلّقون أقدامهم رجلاً على رجل مثل بنات مقاهي " عبدون"، مع اختلاف بسيط، فأقدام الرجال تتخذ زاوية متعامدة، أعوّل كثيراً على طريقة الجلوس كأمر مهم يستدعي التفكير،

إذا ارتفعت القدم إلى حدّ غير لائق تمكنت من تفحص أسفل الحذاء , غالباً ما أجده نصف عمر، وكلما ارتفعت رتبة الرجل الوظيفية جدد حذاءه .. هذه ظاهرة جديرة بالدراسة . يتناسى أصحاب الأحذية المرفوعة كا لمرايا الصقيلة أن ملك البلاد الراحل كان يجلس وقدم اه مضمومتان بأدب جمّ .. هؤلاء، ينفثون دخان السجائر مستصغرين شأني، يجيبون باقتضاب ع ن أسئلتي، تلك التي كتبها لي سكرتير التحرير، وتلك التي خطرت ببالي كتحدٍّ للسكرتير الذي يظن أنه أفهم مني، قطعاً كنت أفهم منه، أتحرك من قلب الحدث، ويتفلسف مُنَظِّراً من وراء مكتبه المعزول، ومع ذلك أتخذ وحدي هيئة المتسولة في مكاتب المسؤولين.. كنت على يقين أن عملي كصحفية سينتهي بي إلى الضحك المرير، لهذا ومنذ البداية حاولت رسم الكاريكاتير ساخرة من عدوّتي الحبيبة ، الصحافة، عيني عليها، سأرسمها مغناج اً ملتويةً، لفافةَ ورقٍ قابلةً للاحتراق تتقد شعلةً ثم رماداً، في الاسكتش الأولي خطرت ببالي لفائف يتم إحراقها في الأفلام المصرية إكراماً لأعين الراقصات.. افتقر الرسم إلى الإتقان. أعدته عدة مرات رغبةً في عرض فكرتي على مختص، فلنتهيت إلى رسم بديع يصور حزمة من ال صحف منطعجة ومربوطة الوسط، راعشة كراقصة شرقية, لا أعترض على الرقص، كتبت تحت الرسم بخطّ متراقص "ميلي ما مال الهوى يا عيني ".. لم أنسَ العبارة التي يذيّل بها كبار رسامي الكاريكاتير رسوماتهم "مع الاعتذار للأغنية الشهيرة". نظر رسام الصحيفة المحترف "منذر الفاتح"، الذي كان لونُ بشرته غامقاً ، إلى رسمتي، هازّاً رأسه بصورة لا تفضي إلى معنى:

- مش بطّال.

بسّ!!

إنها الغيرة, فـ"الفاتح " لم يحتمل منافسة لاذعة خفيفة الظل مث لي , ينغّص عيشَهُ "بهجوري " و"عماد حجاج " و"جلال الرفاعي " ولا ينقصه سواي، ولأن رأسه الأقرع المدور يعجبني, ولا أحب أن أراه متكدراً, احترم ت ابتسامته الصافية, وانسحبت من عا لم الكاريكاتير.. لن يخسر أحدنا شيئاً, لكني أتوقع أن يموت رسام الكاريكاتير الجاد مبكراً، وأعيش أنا طويلاً، لأني قررت مزج المرار بالضحك.

***

من يرى "نارة" تركب السرفيس هبوطاً إلى قاع المدينة، ثم الباص صعوداً إلى الجبل، يرجح كونها مجرد "تلموذة" صغيرة، رغم أني أنهيت كابوس الجامعة المفزع منذ أعوام. قطعاً مهما حاول الراصد فإنه لن يرى تحت الخصلات القصيرة لشعري الأسود المصفف بإهمال والمقصوص على طريقة "ألا جرسون" أحلام اليقظة التي ترافق ني في حلّي وترحالي. أركب التاكسي إذا ذهبت في مهمة إلى وزارة الخارجية على الدوار الثالث، فللبلد مقامات، وشبشبي البسيط المفرط في تواضعه يليق بالسرفيس الذي يركبه الفقراء أمثالي، كما يليق بالموضة التي تخترعها بنات عمّان الغربية الراقيات .. إنه شبشب التنوع والاستجابة للاحتياجات والمواقف . شبشب التعددية والحرية، الحرية!! أستاء من أغنية مبتذلة قديمة تقول "يا شبشب الهنا، يا ريتني كنت أنا ". تُغضبني بلاهة المطرب الذي يتمنى لو أنه شبشب في قدم امرأة، ولكني أقع في مطبّ أكثر بلاهة بالربط بين تلك القطعة من المطاط في قاع القدم والحرية المجيدة!! تلك التي تستميت في سبيلها الشعوبُ وتقوم دونها الحروب، لا أصغّر من شأنها، ولكن حاولوا أن تفهموا تقديري الكبير للشباشب . لقد لمست تأثيراً فعالاً لهذه القطعة المهملة تحت قاع القدم في مختلف المواقع والمواقف. في وزارة الخارجية مثلاً، حيث تلك الأبّهة العالية النا جمة عن التصرفات البروتوكولية والأناقة المدروسة للعاملين، يتم تصنيفي كصحفية "سبور" بنت عصرها، بينما أصير في الباص والتاكسي ابنةً لهذا الشعب البسيط الفقير المكافح.. يلعب هذا المركوب دوراً وسطياً ذكياً. إنه جواز مرور معترف به على أكثر من صعيد، وفي أماكن متباينة.. كيف لا أقدّر الشبشب عالياً إذن!!

أركب السرفيس بعنجهية، يمكن تفسير تصرفي وفق دلالات متباينة أيضاً، فالرجل الخمسيني الذي يركب السرفيس معي يومياً، يحترم عنجهيتي وحجزي المقعدَ الأمامي بالكامل، يقدّر أني ابنة لعائلة محافظة محترمة دُرّبت على حماية جسدها الغضّ من ملامسة غير مشروعة. أما الفتى الذي يمسح زجاج السيارة يومياً لقاء دائرة معدنية، خمسة قروش أو عشرة، فيقدّر أني امرأة ثرية، أدفع ثمن مقعدين لأجلس على راحتي، تقول عيناه: " بطر ورب الكعبة ". الفتاة التي تصبغ شعرها باللون الأحمر وتتسكع تحت أعين سائقي السيارات العمومية بين الحين وا لآخر، أي بين اختفا ء واختفاء يطول أو يقصر تبعاً لظروفها، هذه الحمراء منكوشة الرأس، تقدّر أني متعجرفة ما دمت

أحصّن جسدي النحيل العادي العاطل عن الإثارة ، بالمسافات، بينما جسدها الجميل المدكوك لحماً متناسقاً والنافث عطراً رخيصاً على قمصان الرجال الملاصقين وقماش السرفيس المهتر ئ ينحشر بين ذَكَرين على المقعد الخلفي. يظنني سائق السرفيس معجبة بفحولته الفاقعة. لعله يعدّ انفرادي برفقته الطيبة على الكرسي الأمامي محاولة تحرّش علنية تُرضي غروره .. كلهم يختلقون الافتراضات، وكلهم على حق، ولكني أتعامل مع افتراضي الخاص فأجلس في المقعد الأمامي بعيدة عن الآخرين وقريبة في ذات الوقت، أشمّ عرق السائق، يصعب التقدير إذا ما كان شحّ المياه أو إهمال زوجة كارهة أو شقاء الدنيا أو عطل حاسة الشم وراء موجات العرق المهلكة التي ينخّها جسده. أتحامل على قرفي بالالتفات صوب النافذة، وأحرص على أنفي مرفوعاً بكبرياء ومعلقاً في فراغ، حيث لا أحصل على هواء نقي في معظم الأحيان، قد تمرحافلة "تويوتا" خرقاء ومخروقة، تلك التي يطلقون عليها اسم "بكم" فتتحفنا مؤخرتها بسحابة من دخان المازوت الأسود تماثل رائحتها ريح جدّي الذي يتفنن في إطلاقهإذا ما تناول الفجل أو العدس، مع ذلك تظل رائحة بكم "التويوتا" القديمة إنقاذاً وخياراً معقولاً مقارنةً مع فرن الروائح المختلطة المنبعثة داخل السرفيس عرقاً وعطراً وأنفاساً عطنة .. أحرص على تفادي الاحتكاك بالأجساد الغريبة داخل العلبة المتحركة رغم استهانتي بالتلامس الذي يحدث عرضاً .. قد ترتطم يدي بيد السائق وأنا أضع قروشي القليلة فيها، أو بيد الخمسيني حين يساعدني على فتح الباب قائلاً:

- تفضلي عمّو.

- شكراً عمّو.

إذا قدّر منظف الزجاج المراهق أني ساهيةٌ لوهلة، يحتكّ بي كتفاً بكتف متعمداً الارتطام بنهدي الصلب وأنا أمرر جسدي بين المصطفّين على الدور، تبدو ملامسة سريعة غير مقصودة، لا يمكن ا لاحتكام إلى التهم والنوايا إزاء مثل هذا الاحتكاك العرضي .. تثقل لحظات ركوب السرفيس قلبي، لا أحب أنفاس الرجال الغرباء القابعين على الأريكة الخلفية و المصحوبة بشحنة من التنهدات المستترة لذئاب هرمة تلوذ بالجوار .. "يعفرتني " التوتر الغامض في وسائل المواصلات، وأفضّل إعطاء وجهي للطريق ووجه من أحب. لا تغريني الاشتعالات الج انية العابرة، ففيها من السوقية ما ينتهك إجلالي لذاتي وجسدي .. أنا نار خامدة بخبث عظيم، أتسلّى

بلهيب الوهم ومخاتلة من أسمّيه "حسن".. تقلع "المرسيدس" القديمة ويلحق بها بخار "ا لأكزوزت" المعطوب، أنقل انتباهي كله إلى الطريق التي تمر بنا أو نمر بها، لا تفوتني لافتة ، إذ أحب قراءة الإعلانات وأسماء المحلات وأرقام السيارات من اللوحات الخلفية الممحيّة ،كما أعدّ سيقان الأشجار المطلية بالشيد في اللحظة التي ندخل فيها عمّان المشجرة . من أين يجلبون الماء لسقاية شجر الشوارع في حين لا يتوفر لدى زوجة سائق التاكسي المهملة ؟! لعل تماهياً يبلغ الذوبان يسود بين الزوجين.. انسجام مرير يَحُول دون التميز بين مخلوقين، تماماً مثلما يتناول عمّي البصل على العشاء فتفعل زوجته ذات الفعل ، يتحولان معاً إلى وجبة بصل نيَ ء كي يحلا الالتصاق السريري فيما بعد.

ما أسعدني بسيل الأفكار التي تبعث رائحة البصل في ذاكرتي .. هذا الفيض البريء من الصور والروائح يمكن أن يُوأَد ويتبخر لو جاورني أحدهم في مقعدي، فيحرمني من الذهاب بعيداً حيث صحون الفجل والبصل وإيقاع صوت المضغ العالي الصادر عن فكّي عمي وزوجته .. أفكاري بشعة في مجملها، وإلا كيف أهرب من صهيد العرق والأنفاس مستحضرةً الفجل ومضغ عمي مزدرداً الطعام جرشاً مقززاً؟

قد يدفعني جلوسُ ذَكَر ملاصقاً إلى تفكير شيطاني!! العياذ بالله، لهذا أنفرد بالكرسي الأمامي مثل أميرة أسطورية، وأُجلس رفيقي "حسن" جواري خطَّ دفاعٍ يصدّ عني الهبات المتفرقة من رائحة عرق السائق، ويحوّل أفكاري إلى الأشجار وهي تعبر الطريق .. يوماً ما، سأجمع مبلغاً متواضعاً من مهنة الحرّاثين تلك (الصحافة) لأقتني سيارة "فولكس فاجن" صفراء. لا تسألوني لماذا أريدها صفراء، ولا تتجشموا عناء تفسير اختيار اللون، ولا تتشاطروا عليّ بالنظريات الساذجة لعلم النفس وتحليل مغازي الألوان . تعجبني سيارة الغد هكذا، صفراء، من دون مبررات، أجلس فيها وحدي كأني في عربة بابا نويل ، وأتفحص الشارع متمنية الهدايا واللعب، وأغنّي.

تصطفّ مواكب مركبات السرفيس في موقف رغدان ، والكلمة "رغدان" مشتقة من رغد العيش ورفاهه، واسم "قُصَير" يطل على المشهد العام من أعلى هضبة خضراء، أصاب بخلط لطيف بين شقاء الواقفين في الطابور بانتظار المركبات، وبين تاريخ الرفاء الذي يعلن عنه الاسم.

يقول "عبد الرحمن منيف"، وهو كاتب عربي كبير ! "كبير" لفظة مضحكة لأنها تختص بالحجم، وبما أننا شعوب تفتقر إلى المعرفة الدقيقة بإمكانيات لغتها مثلما هي حالي، فإننا نصف أديباً طوله 160 سنتيمتراً بالكبير، ثم نحمّل الكلمات ما لا تحتمل، فنقول إننا نقصد كبر مقامه، يا سلام!! هذه انزياحات لغوية واحتيال صريح على المعاني.. المهم، هذا الكاتب وحتى لا تفهموني غلط أؤكد أنه كبير حقاً، يتذكر أنه سبح في قلب سيل عمّان، ويعزز دعواه بصورة فوتوغرافية مشحطة وممحية وشاحبة من طفولته، كأنها كذبة، فيها صغار يلبطون في ماء جارٍ كان هنا يوماً، تتصدر الصورةُ غلافَ الكتاب وتبدو المياه شحاراً أسود لا يبلل الورق .. أقف هنا حيث بلبط صاحبنا على أرض جافة تماماً، وأسمع أصوات الباعة: "بدينار.. بدينار، يا صاحب العيال بدينار".

من قال إن صاحب العيال وحده يرتاد "سوق الحراميّة" في منطقة "الجورة"؟ هناك مضاربة مذهلة، بعضهم يصيح بصوت مفخم واثق : "بنص دينار.. بنص.. بنص.. بنص.. ".. من المعيب أن نسمّي سوقاً "سوق الحرامية". عيب! يعني! إذا كانت البضائع رخيصة ومستخدمة ومتناثرة وغير مكوية، تكون من جلايب اللصوص وقطاع الطرق وغزاة الليل! لماذا نحترم ونجلّ البضائع الغالية المنمقة بعناية والتي يبتلع سعر قطعة واحدة منها راتبي كاملاً أو ضعفه في "مول عبدون" المجاور السعيد للسفارة الأميركية في عمّان الغربية؟! هذا لو تهوّرتُ وابتعت شيئاً من هناك لا سمح الله، فأنا لا أقوى على سوق الأوادم هذا، وأفضّل سوق "البالَة" و"الحراميةِ"، على الأقل أتفادى الغضب الناجم عن رؤية الإجراءات الأمنية المحيطة بالسفارة العظمى، أجارنا الله من الحرامية في "الجورة" و"عبدون"، ومن كل لصوص الأسواق على امتداد النظام العالمي الجديد.

إذا قررتُ "الفشخرة" أرتاد "جبل الحسين "، وإذا جرؤت على تدليع نفسي قليلاً أعرّج على "الصويفية".. قطعاً أن مهنة الصحافة مقلب كبير شربته طوعاً . إنها تتطلب الحفاظ على هيئة مقبولة، تشترط أحياناً أناقة عالية في المناسبات، ومما يزيد الطين بلّة وجود عدد من الصحفيات القادمات من "الرابية" و"عبدون" و"دير غبار "، بنات العائلات اللواتي يبتعن ملابسهن من محلات مرموقة تتعامل مع الماركات المعروفة عالمياً، أحرص شخصياً على تفقد "الليبل" في ظهر القطعة كي أتأكد فقط أن القطعة التي ستستر جسدي النحيل وتداري ناري لم تُصنع في أم يركا

كمعظم بضائع "البالة".. تحيا الصين وهونج كونج، تعيش سنغافورة والهند.. لقد منحتنا هذه البلاد راحة البال، فألبسترل من دون أن نخون فلسطين، ونمنا من دون تأنيب ضمير.
النجاح.. النجاح.. هذا ما تبحث البنت عنه . طبعاً لن أصبح من الأثرياء، ولست أطمح إلى اللعب بصرر النقود، بل إن صرّة "أوزي" بالأرز والمكسرات من مطعم "جبري" ألذُّ عندي وأمتع من تلك التي تظهر في المسلسلات المملة حين يصرخ الحاكم : "أعطه يا غلام"، فتطير الصرة ليتلقفها المرْضِيُّ عنهم .. أنام وأصحو على شهوة النجاح حتى وأنا أحصد الفشل . ما حققته لذاتي ليس يسيراً، أنا "نارة عدنان" اليتيمة، حفيدة بائع الهرايس عند كوع "مستشفى الأشرفية"، يظهر اسمي كل يوم، لأكن أكثر تواضعاً ودقة، يظهر اسمي بمعدل مرتين إلى ثلاث أسبوعياً على صفحات صحيفة توزَّع بالآلاف عند مفترقات الطرق والإشارات الضوئية وعلى رفوف المكتبات وتُحفظ بالأدراج وتُمَدّ تحت موائد الفقراء.. صحيح أنني أكتب عن افتتاح الوزراء للمعارض, عن التعيينات والترفيعات الجديدة وأمسيات الشعر الذي لا أفقه رموزه وغموضه، وربما أكتب أخباراً عاجلة عن صدور قوانين وتشريعات حديثة . في العام الحالي 2002 صدر من التشريعات أكثر مما صدر في عمر المملكة كلها . لا أعرف إذا كان هذا خللاً أم ميزة ؟! عبثاً أم إصلاحاً؟! وليس من مهامي أن أحلل الأرقام ، كما لا أتحدث في السياسة، ولكنه إحصاء بريء، فلا تفهموني غلط .. وضعي كله لا يحتمل هذا النوع من التشويش، أقصد ضعف بنيتي الجسدية وقدرتها على احتمال الأذى، إن وقع. أما وضعي الأسري فلا أحظى "عشائرياً" إلا بظهر مُنْحَنٍ على "الزهايمر"، جدّي "أبو عدنان " الذي كان يوماً بائعَ هرايس متجوّ لاً.. أعرف حجمي وحجم الآخرين، وبيني وبينكم أنظر أحياناً إلى مسألة الحجوم كالناظر في مرآة محدبة. أرى نفسي على الهامش، ولكني طويلة ممتدة وملتفة على مجمل حافة المرآة السحرية، وأراهم في قعر الزجاج العاكس، صغاراً مبطّطين وكأنهم غرقى يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وحتى لا يقوّلني أحد، أنا لا أتحدث عن أحد، لقد غرقوا في المرآة ولم يعد لهم وجود، بَحّ.. لا أتحدث عن أحد موجود حقاً يمتلك دفتر عائلة وبطاقة أحوال مدنية، مجرد خيالات غرقت في بحر متوهم في قاع فنجان...
"نارة" القادمة من "الأشرفية" حيث يُسمع ا لأذان فجراً مثل صدى لصوتٍ إلهي في جنبات القفص الصدري، قبل أن يتداخل بأصوات العباد وكركبة حراكهم المتواصل ظهراً فاقداً صفاءه

وأثره، هذه الـ"نارة" وبحكم جنونها ومهنتها، ترتاد الأماكن الغريبة التي تصبح بمرور الوقت أليفة أكثر من سطح البيت الذي ذرعته آلاف المرات إبان الاستعداد لامتحانات التوجيهي .. أدخل مكاناً لا ينتمي لأية نكهة ، بحيث يمكن أن تسأل ببراءة : من الذي ألقى بهذا المبنى هنا في منتصف الطريق القادمة من الجامعة الأردنية إلى جبل الحسين! أغطّي أخبار ندوة تقام في "المركز الثقافي الملكي"، ويحيرني التنوع في موضوعات الندوات عموماً، يورطني في أمور لا أفقهها .. ندوة عن البيئة، أخرى عن أدب الأطفال، ندوات عن حوار الشرق والغرب، الحريات وحقوق الإنسان، "الجندر" والمرأة، الأدب الاسلامي، "الإرهاب والكباب"، عفواً، هذا اسم فيلم انزلق من دون قصد، الإرهاب والهباب، لا أعرف على وجه الدقة عنوان تلك الندوة ولكني لم أفهم تصنيف المنتديين لابن لادن، إرهابي أم فدائي ؟! الندوات لا تخلص إلى فكرة، مجرد "سفسطة" . هذه الكلمة أيضاً لا أعرف من أين جاءت، ولكني أشعر من صلصلة ووشوشة حروفها أنها ترمي إلى توصيف الوضع "شوربة"، كأن هذه الشوربة ساحت على الورقة التي تم توزيعها على الصح افيين وحملت عنوان "توصيات الندوة"، على كل حال إذا لم أكن مصيبة وتجاوزت حدودي بالإساءة إلى المفكرين المنتدين ، فإن المحررة التي تكتب روايتي ستحذف الكلمة وتستعيض بأخرى أكثر ثقافة وتهذيباً وأرقّ دلالة. هذه مسؤوليته!!

أما الندوات، الجثث المحنطة ! مومياءات ملفوفة بالبياض فوق جلد خشن وعظم متخشب، تنطلق الكلمات الجوفاء من أبواق واسعة، عفواً أقصد من أفواه واثقة .. مجرد استعراض عضلات مراهق يضغط بمجموع جسده ليبرز طابة متواضعة أعلى ذراعه، أو تسميع ثقيل لمحفوظات كتلك التي مرمرت أعمارنا في مرحلة نيل شهادة الثانوية العامة .. انقضى عام التوجيهي ولم أفلت من كابوسه بعد، يكاد يشد فروة رأسي ويقتات أعصابي كلما ولجت إلى ندوة في مكان سمج .. تعاودني دروس الخوف والألم. في البداية كان جهلي مكشوفاً في مثل هذه المحاضرات، يتضح حين أسجل بسرعة ودقة كل ما يقال، وأعيد تصفيفه من دون الانتباه لكلمة تنزلق هنا أو هناك فتغير المعنى كله . من المستبعد أن يكتشف سكرتير التحرير مثل هذا الخلل، ففهمه ليس أعدل من فهمي. أما القراء، إذا وجدوا، فلا يتوقعون الخطأ في الكلمة المطبوعة .. للمطبوع قداسته التي نغتالها كل يوم بدم بارد ولا من يحاسبنا . تأتي المخاوف من أصحاب الشأن أنفسهم عندما

يتصلون هاتفياً برئيس التحرير محتجّين، أو عندما يرسلون باعتراضاتهم مكتوبة، عندها يجعلون من حكاية ضَعفي المهني فضيحة.. يدفعني الأمر لمراقبة مستواي المهني بكل تواضع واستعداد صادق للتعلم.. اكتشفت عيوبي شيئاً فشيئاً، فأنا مثلاً أفهم بذات الطريقة التي تعلمتها في الجامعة، أي عكس ما يقول المحاضر، ولم يكن هذا عيبي وحدي، فمعظم الصح افيين مصابون بهذه الآفة ويقعون في مغبة الفهم المعوج، للحق بعضهم يعالج أدواته، وأنا فعلت ذلك على طريقتي، لهذا كنت أتفرج في مثل هذه المنتديات على الناس، المشاركين، والمداخلين، هواة الكلام، أولئك الذين لهم في كل عرس قرص، هذا مَثَل شعبي ذكي قيل خصيصاً منذ أزمان بعيدة في انتظار ولادة العبقري "عبد الباري" .. كيف تمر ندوة من دون أن ينبري "عبد الباري " المثقف الذي أنحله التفكير وذهب ببهاء وجهه عناءُ القراءة والتدبير، المتواجد بكثافة في كل المنتديات، كيف لا ينبري ليقول قولته في موضوع الندوة! وإن ظن السامعون أن مداخلته العظيمة جاهزة قبل المحاضرة، فهو عبقري من نوع خاص، موهوب، لا أسخر والله، فليس من السهل على امرئ متواضع القدرات إعدادُ مداخلة تصلح لكل موضوع، هذه موهبة ربانية ومنحة لا تتاح لكل عابر طريق.. يلقي عبد الباري مداخلة "مدوزنة" ورفيعة اللغة بمجرد اطلاعه على عنوان المحاضرة وموضوعها، وقد يفوق صاحبَ المحاضرة في مداخلته العصماء، فالمحاضر يشطح بعيداً عن عنوان محاضرته محاولاً فرض عناوينه الخاصة، متمرد اً على الموضوع المعلَن عنه لصالح ما يريد هو الإفصاح عنه، ولكن "عبد الباري " لا يسمح له بالإفلات بفعلته، ويرد السامعين إلى العنوان مقدماً رؤيته المعمقة.. إنها معركة، حرب كلام وعضلات وخزعبلات، وعلى المنصات الوقورة أرى مقاصدهم تمسك بتلابيب بعضها بعضاً، وتشد الياقات حتى تطير أزرار القمصان، والمخلوقة التي سخطها الله صحفية، وركب بدل عينيها كشّافات، تقوم بتسجيل كل هذا السقام والسخام بأمانة لتنتهي إلى موضوع جاف حول إ عمار البلاد والحفاظ على البيئة، القاسم المشترك الأعظم، هذا التعبير من بقايا الدراسة ا لإعدادية، القاسم المشترك بين المتحدثين هو ا لإشارة الجريئة لهدر الأموال .. بات سقف الفضفضة الكلامية عالياً، يمشون الهوينى فوق القانون ويتغندرون بدلال قائلين إن الأموال العربية تُهدر على بناء القصور! جرأة منقوصة لا تذهب إلى التحديد الجغرافي " رحم الله امرءاً عرف سقف كلمته ".. أحتج على احتجاجهم! طَوْلُوا بالكم

معي قليلاً، أنا لست ضد بناء القصور والمرافق العامة الفخمة المبهرة، لماذا علينا أن نرتضي بقصر متواضع؟! كيف يكون قصراً إذن؟! أحرام علينا أن نحلم بقاعات فارهة ومسارح باذخة وساحات تذهل الناظرين؟ هل مجرد خلوّ ديارنا من النفط يعني أن نتواضع ونقصر أكتافنا، ونقطع أيدينا ونشحد عليها؟ ! ما أهمية التزايد المطّرد لأعداد الجائعين والشحاذين وبائعي العلكة وفارشات السجائر الرخيصة في شارع "الملك طلال "، ما علاقة هذا بذاك؟ ! طولوا بالكم ولا تقذفوني بالتهم، فلست أرستقراطية تقترح أكل "البسكوت" إذا انعدم الخبز، حتى هريسة جدّي التي يبيعها لم أتذوقها إلا في المناسبات، ولكني أفكر بالمستقبل، ربما كان القادة العرب العظام يفكرون به مثلي، في المستقبل، القريب، البعيد، تغدو القصور العربية مصدرَ رزق للشعوب، وتتحول إلى مزارات سياحية مهمة .. هل تتصوّرون كم يدرّ قصر فرساي على فرنسا، أو قصر الحمرا الذي بناه أجدادنا لينعم بريعه أحفادُ الإسبان؟ لماذا تعجبنا قصور أباطرة الروس الذين ولّى زمانهم وذهبت أيامهم! المسألة فيها بُعد نظر وتضحيات، لكن الشعوب الرعناء لا تنظر إلى أبعد من أفواهها ، ولا تسمع إلا نداءات أمعائها المستصرخة .. هذا قصر نظر و خيانة وطنية للمستقبل، أو فراغة عين وحسد. يا رب، ارحمني من أفكاري الحمقاء العابثة التي تضيّع عليّ فقرات مهمة من المحاضرة أو المداخلات الثمينة.

يتدافعون في الاستراحة حول طاولة الشاي والقهوة التي تسبح بما اندلق من الأباريق والبرادات، ويبتلعون حبات "الديزي فور" الصغيرة الناشفة الملونة بالكاكاو ، والتي تسميها زوجة عمي "قلاعيط الكيك السخيفة".. ألقي بقامتي كما تسقط فزاعة على المقعد الجلدي الوثير، وأسأل نفسي: كل المقاعد في المراكز والمنتديات ومكاتب كبار القوم وصالونات البيوت وثيرة، كبيرة ! يغطس جسدي النحيل في المقعد إذا ما تراجعت إلى الخلف حتى ترتفع قدم اي عن سطح الأرض مليم ترات قليلة. يحدث الأمر نفسه للجميع، من هنا تؤرقني مسألة الحجوم، تسخر الكنبات المستوردة من قاماتنا القصيرة في منطقة البحر المتوسط ولا تسمح لأقدامنا باتخاذ موقعها على الأرض، المسؤول القصير اللاحم تتقطع أنفاسه وهو يغرق في وثير الجلد أو الجوخ المنجَّد، فإذا فقد توازنه لحظةَ صافحَنا بكرْشٍ معتبَرٍ تربّى على المناسف، ارتفع عنوان الوجاهة مثل علم على سارية مكسورة.

مد "عبد الباري" يده نحوي بفنجان الشاي:

– والله زمان، صحفيتنا الرائعة، "نارة"، ست البنات، مش معقول، حلوة الحلوات، لا تشرب الشاي!

أشرب البلى الأزرق، أشرب السم الزعاف، ولا أهضم عينيّ "عبد الباري" تلتمعان في لحظة غزل، وأسنانه الصفراء ترسم لي حكاية محتملة عن قبلة الموت .. حِلّ عني يا رجل، لست ست البنات ولا شعر البنات، والله تأتي بي مهنتي إلى كل المنتديات .. لا تتوهم أنني ألاحقك، لست مهتمة بغزلك، أشعر بك سمجاً وثقيلاً، ولا تفتنني ثقافتك الموسوعية، اكتشفت كل ألاعيبك وجهلك، وافتقارك للذوق والمنطق، مع ذلك أنهض جزئياً من ارتمائي على المقعد الوثير، وأمد يدي ألتقط فنجان الشاي وأبتسم (أرجّح أن أسناني تصير صفراء مثله في تلك اللحظة) وأقول بتهذيب عال:

– تسلم إيديك، كلك ذوق، مداخلتك كانت رائعة.

لا أتذكر ماذا تناولت من طعام، ولكني أشعر برغبة عارمة في التقيؤ على سجاد المركز.. لا بد لي من السيطرة على الشريرة التي في داخلي، والتي تجعل من عبد الباري كريهاً..

***

أتحدث من دون ترتيب زمني، فإمكانياتي الفنية أو الإبداعية لا تساعدني على هذا .. أنا خليط من فوضى، يقفز عقلي في الثانية الواحدة بين الجحيم والفردوس عشرات المرات، يتحرك مثل جناح عصفور نزق محبوس .. تتصارع الصور، أبيض وأسود وبا لألوان. أتشظى، ولست معنية بترتيب هذا السيل المتدفق في ذاكرتي ومخيلتي مزيج اً من رغائب ومكاره، أمنيات ومخاوف، أحداثٍ ووقائع وتخيلات، فالكاتبة مسؤولة عن الترتيب المنطقي للنص المكتوب، أما سيل الكلمات المنبعث من لساني فليس معنياً بضابط أو منطق.. إذا استسهلت الكاتبةُ الأمرَ وأراقت أمامكم كل الترهات التي قلتها معجونة ببعضها بعضاً فهذا أمر يخصّها (هي من ستحصل على حقوق ملكية الرواية على أية حال).. أنا عليّ أن أقول، وهي تعيد الترتيب.. أتمنى أن تحولني إلى عبقرية لغة، إلى مثقفة كونية، إلى كائن خرافي بقدرات خارقة، لأني أعتقد أن شيئاً غريباً حدث لحظة تشريفي هذه الدنيا، الفانية.

لا تفوتني روايتي لحكاية مولدي مرتين وبصورتين مختلفتين، حسناً، إليكم حكاية ثالثة
كان جدّي بائع الهرايس يقول:
"دنيا فوني وعا لم ألموني ا.."، سارقاً التعبير من فيلم مصري .. "أبو عدنان" المسكين لا يستطيع حتى في زمان حضور ذاكرته المتواضعة اختراع كلماته الخاصة . حالياً شُطبت ذاكرته بالكامل، ضربه "الزهايمر" ضربة موجعة.. لعلها ضربة رحيمة، إذ من السذاجة تصوُّر جدّي مستمتعاً بذكريات شقائه! تكمن المتعة في نسيان أحداث عمر شقي تَعِس.. لعل الفراغ الذي يعيشه اليوم أرحم به وأبهى له، من يعرف! هذا الذي تسميه شمطاءُ عمي "الخَرِف"، صاحب نظرية أنقذتني في الطفولة، تقول نظريته إن الله مسؤول عن الموت كما الحياة، وإن أرواحنا كلنا من دون استثناء ملك العلي القدير، وما نحن إلا أمانات في الدنيا، وله أن يسترد الأمانة ساعةَ يقدّر ويشاء، وبالكيفية التي يختار.. لولا هذه النظرية الفذة لكنت احترقت بنيران ضميري التي راودتني بلؤم كبير وأنا في السادسة من عمري .. غريب أني كنت يوماً في مثل هذه العمر الطري! لعلها أنثى سواي، ولكنها عذّبتني، في السادسة حكت لي النساء عن أمي وأبي اللذَين لم يكونا يوماً هنا، على الأقل لم أرهما، مجرد حكايات مثل "علاء الدين والأربع ون حرامي"، أو" الأميرة النائمة"، ما أبشع تلك الحكاية، أقصد "الأميرة النائمة"، لا أحتمل النوم عمراً حتى يشرّف الأمير.. أما حكايتنا نحن فبسيطة؛ راح أبي يوماً إلى فلسطين ولم يعد.. لماذا يروحون إلى فلسطين التي راحت؟! يروحون ولا يعودون!! هنالك أسماء كثيرة للبطولة والاستشهاد أو الضياع والفقد، أبطال القصص والقصائد والخطب الطنانة الرنانة يعودون حاملين سيوفاً مضرجة بدم الأعداء ورايات انتصار وأكاليل غار.. أبطال الواقع يغيبون للأبد، يصيرون أوهاماً ثقيلة وأشباحاً مفزعة . هذا ما حدث مع أبي . أما حكاية أمي التي تلت قصة أبي، إذ إنها كانت حية تُرزق ساعة شرّفتُ أنا. يا لذكائي!! منطقيٌّ وعاديٌّ حضورُ الأمهات لحظة الولادة.
كانت أمي تصرخ بحرقة وجنون، ستقولون كيف لي أن أعرف! في الواقع لا أحد يعرف مقدار وجعها سوا ي، لأني كنتُ الوجع الذي اخترق رحمها بركاناً غادراً تلك اللحظة، ودفعها لعضّ أطراف اللحاف.. أطلقت الآهَ من قعر بطنها، وخرش الصياح حنجرتها اللاهثة شاتمةً أبي الذي راح وخلاّها .. لم تنفعه البطولات ولم يشفع له غيابه الدرامي، ولا وقفت فلسطين سداً يَحُول

دون توقف السّباب، ولا هدّأها محاولات جدّي الحانية، اهتزت كهولته حيرةً ووحدة لحظةَ تعسّر وضعِ كنّته لحملها، مصرّةً على تعذيبه صارخ ة:

- يمه.. آهآه...آه.. كَنْهَا "نارة" بقلبي..

اضطرب الرجل مردداً:

- الله معك.. الله معك..

جعرتْ بحنق:

- الله ينتقم منكو، انت وابنك.. الله لا يكَسرْه.. أخ خ..

اكتشفوا في حجرة الولادة أن الكهل ليس زوج المرأة ولا حتى والدها، صاحت الممرضة:

- برّه.. برّه.. شو بتساوي بأوضة الولادة؟!

أخرجوا الحما من حجرة المرأة التي لا أهْلَ لها، فشرّفتُ أنا .. لعلي تأخرت خجلاً من الرجل الحائر الواقف يرقب ارتجاج القدمين وأنا أتلجلج بينهما.. للصراحة كان الجدّ طويلَ البال خفيفَ الروح صاحبَ نكتة، سلّ ى نفسه ليداري مخاوفه .. حين حملني بين ذراعيه تضاحكَ مع كنّته وحبس دموعه، أطلق نكتته الأولى والأخيرة:

- هاي هي الّ"نارة"!! شقفة لحم ممعوّ! هرشتي بيها دماغنا، هاي نارك؟!

النكتة البايخة صارت حقيقة تفغر فاهها بالصراخ وتلبط بيديها وقدميها مطالبةً بحلمة ثدي أمها، صار اسمها "نارة"، اعترض عمي "رمضان" لغرابة الاسم. اعتراض لا أهمية له ، فقد جاء اسمي معي، ودافعت أمي في عزّ ألمها عنه كحقّ مكتسب.. إنها نبوءة لا يصح تجاهلها أو التظاهر أنها لم تكن، خاصة أن صاحبتها تُنازع الحياة أو الموت لحظتها .. هل تحدثت عن موت أمي بحمّى النفاس؟! تصوروا، كنا نقطن قرب المستشفى، وما نزال، إلا أن أمي ماتت لسبب تافه كهذا، ما الذي جاء بالصبية التي ولدتني من حي ماركا البعيد حيث كانت تقطن قرب كراج السيارات ؟! لماذا لم تتزوج بميكانيكي يستلقي تحت قعر السيارة ويعود كل مساء إلى بيته ؟! لماذا تعثرت بأبي الذاهب إلى فلسطين بلا عودة، لتموت في حمّى نفاسها؟!

عذراً، كتبت لأضحك، لنضحك معاً، ولن أبتزّكم بيتمي المبكر . لا أحاول أن أتشبه با لأنبياء يتماً، خاصة أني لم أشعر بوقْع اليُتْم كما يتم تصويره في الأفلام الهندية العاجزة عن نيل تعاطفي.

من السهل مواجهة معلمة اللغة العربية بالامتناع عن الكتابة حول عيد الأم. ببساطة، أمي ماتت، ولا أعرف لماذا تنظر الطالبات نحوي بكل هذا الحزن، فلست حزينة وإن طرأ ببالي في السادسة من عمري أن مولدي قتلَ أمي، وأن ناري الخبيئة سببت لها الحمّى، صهرتها من أعماق فرجها لتموت.

لولا نظرية جدّي اللامعة لأمضيت العمر أجترّ دموعي، لكن الرجل الذي نس ي كل شيء فيما بعد، أكد لي أنها ماتت لانته اء العمر المقدّر لها، وأني وُلدت لأن عمري بدأ. بهذه البساطة، مثل تاريخ انتهاء الصلاحية الذي يُطبع على علب اللحم المعلّب المعدنية، لذا لن أكتب موضوع الإنشاء في معنى ا لأمومة على وجه الخصوص. زميلتي حورية أيضاً يتيمة، ولكنها تصرّ على أن تكتب عن الأم في كل آن، و لا تنتظر الواحد والعشرين من آذار، فتسطّر كلاماً أهبلَ عن الحنان والفقد والضياع.. أنا أختلف، ليس لأن من حولي لعبوا أدوار الحنان بنجاح تام، فلم تكن زوجة عمي "فتحية" حانية، ولا تشبه الشريرة في حكاية "سندريلا" الشهيرة، حاولوا معي نسيان حكاية الحبس في القبو، فلقد اعتقدت لزمن غير قصير أنها أمي، ففي الحارة الضيقة، كلما كانت هناك طفلة وامرأة في بيت، هما أم وابنتها، وإن درّبتني فيما بعد على مناداتها: "خالتي".

جاء عمي "رمضان" (زوجها) للعيش معنا بعد فقدان جدّي للذاكرة، وعرفت في وقت متأخر أنه ليس عمي "لَزَمْ"، ولكن ابن عم أبي.. هؤلاء جميعاً، حتى جدّي قبل أن يتحول إلى طفل خالي الذهن يتسلل إلى الحارة ويتعبنا في إرسال الأطفال والشبان بحثاً عنه، حتى هو والآخر ون كانوا هناك دائماً يفيضون على حياتي بأطيافهم وألوانهم، ولكني كنت مكتفية بنفسي..

تقول زوجة عمي لنساء الصبحية:

- "نارة" بنت زَيّ النسمة، ما بتغلّبنا بشي.

نسمة تخبئ حمماً بركانية قاتمة الاحمرار والسواد . تسيل جنباتي بالتماع ذهبي ، وتختلط معادني وتذوب كما يذوب مسحوق النسكافيه في ماء ساخن، نسمة ندية!! أنا من درّبت نفسي على ارتداء ملابسي والاستحمام وتناول الطعام من دون ضجيج، على الجلوس أقرأ كتبي هادئةً ممسكةً بجمري في منطقة خفية بين لحمي وعظمي، منذ اليوم الأول لفقد أمي تعلمتُ العناية بنفسي، تخجل النار في إهابي من أشياء الحياة الصغيرة المتواضعة، أختزن ناري للفتاة المتأججة

التي صرتُها، طفولتي مجرد إذكاء للهب، أحرك الهواء بدعة حول موقدي، أتجلى وأراقب، و أمر بالزمن مشتعلةً في غفلة مره..

لعلّي أتخابث على قارئي قليلاً، ولكني أعترف اعترافاً خاصاً شديد السرّية، كما يحدث حين أثرثر بلا انقطاع بما يعنّ على بالي أمام جدّي و أرقب عينيه لا ترمشان، فـأتنفس الصعداء، مودعةً أسراري في صندوق مغلق لا يُحْتَمَل أبداً العثور على مفتاحه .. الآن أبوح على ذات الطريقة ، ولكن مع أمنياتي أن تنسوا تلك الواقعة، لأنها لا شيء حقاً في مسار حياتي، فقد استلزم المرورُ بمتاعب الحياة تدريباً ذكياً هنياً وهادئاً يعود في معظمه إلى ذكائي الفطري، أو مرونتي الذاتية، والدرس البليغ الذي علّمتني إياه خالتي "فتحية" جعل مني تلك الحكيمة.

يومها عدّلت جارتنا " أم صبحي" منديل رأسها الحافل بالأزهار البرتقالية مثل حديقة بوذية، شدته لتختنق به وهي تراقب جدّي الناسي متجولاً في الحجرة كأن امرأةً ستلد، يذهب يمنة ويسرة ويفرك كفّيه، وتتمتم الخالة "فتحية":

- عَمى ضونا.... اللهم طَوِّلِك يا روح.

ترمقني "أم صبحي" بعين تنحرف جانباً ، أتظاهر بالانصراف إلى خيالاتي، فتستهين بسمعي وفهمي وتوشوش رافعةً كفّها ستراً فوق شفتيها:

- تأكدي كله يدخل، ما يسيل اشي، ولا نقطة... أحسن ترفعيهن فوق.

- فوق!! كيف؟!

- فوق.. يمّ، هيك (طعجت ظهرها إلى الوراء رافعةً ذراعيها) .. ظهرك عالسرير... أقولّك.. تشعبطي وعلقيهن بحديد التخت، وارفعي حالك منيح، حطي مخدّة، تنتين، تا.. يمّ كله يروح هناك.. لا تخلّي إشي يسيل..

تعاود "أم صبحي" ملاحقتي بطرف عين، فأنصرف إلى الاهتمام بورقة قصصتها من دون إتقان على هيئة حصان ذيله منفلت رغم اعوجاج قدميه .. لم أكن أدرك آنذاك أن الخالة تعيش محاولاتٍ مستميتةً للّحاق بركب ا لأمهات، و "أم صبحي" الخبيرة تساعدها بالنصائح الثمينة . يمكنني اليوم بغفران تام تقدير الفزع الذي عشناه ذات ليلة أنا وخالتي والذي نظم علاقتنا فيما بعد. ليلتها اضطجعتُ قرب جدّي، أشمّ رائحته التي تبث نحوي هواءً مثقلاً بالحزن والغبار

والنسيان، شيئاً قادماً من الماضي .. كان متناوماً ، كذلك أنا، نغفو عادةً مثل كلاب الشوارع، بيقظة تامة، ورغم الخدر الذي سببته رائحة جدّي، ومكابدة نومٍ لا يكتمل، فقد ضغطت مثانتي بقوة حتى لم أعد أحتمل. جررتُ قدمي نحو بيت الخلاء، أعرف اتجاهي في العتمة، لامستُ الجدار فماد جسدي نعاساً، ولكن فحيحاً انبعث من حجرة العم وزوج ـهـنبّه سمعي. استقمت مرتكزةً على الحائط، لم أتعمد استراق السمع فليس هذا من عادتي، ولديّ من المشاغل الليلية ما يَحُول بيني وبين مجريات الأمور خارجي، لكن شخرة عمّي المفاجئة والتي امتزجت بـشهقة زوجته دقت جرسَ إنذار في أذني. لم أكن بريئة تماماً، فجسدي يلحّ لمعرفة المزيد عن الاحتكاك البشري. تجمدت في مكاني متناسيةً إلحاح مثانتي . لم تعد الحجرة معتمة تماماً، أضاء الوقوفُ المتنبه العتمةَ تلقائياً. ظل جسد جدّي مكوراً أمامي فوق فراشه ا لأرضي كظل جاثم في المكان . همدت الأصوات تماماً للحظات، ولم أتحرك. بصراحة أعجبتني هذه الوقفة التي تنذر بعاصفة من نوع ما. تقلص أعضائي فأضمّ رجلَيّ بقوةٍ الواحدة فوق الأخرى لأمنع ارتجاف فخذي، وتنتصر مثانتي على فضولي فأندفع برعونة إلى بيت الخلاء، تحت الضوء المنبعث من مصدر غامض عبر النافذة، ذلك أن حجرتهما لها نافذة وليست كتلك الصالة التي نتكوم فيها أنا وجدّي . تحت بقعة الضوء الداخلة من شبّاكهما و المنفلشة كقمع رأيت "فتحية " وقد استلقت على ظهرها شامرةً قميص النوم حتى منتصف البطن، رافعةً عجزها العاري بعدد من الوسائد، و رِجْلاها معلقتان في الهواء، رأساً على عقب أو عقباً على رأس، كلاعب أكروبات خبير . أدركت دلالة التفاصيل بلحظةٍ خاطفة، ولم أتبين حمقَ تحركي عند الباب إلا حين قدحتْ عينيها، رأتني إذ رأيتها ، وفزعت واستنكرت، أظنها صرخت أيضاً ولكني لم ألتقط إلا غضب عينيها، وكيف تهاوت رجلاها فجأة من عليائها وانسدل القميص، بينما يغالب عمي بقايا رجفةٍ مر بها وهو يسحب سروال بيجامته إلى الأعلى، مغطياً فتحته الواسعة بحركة عشوائية بكفيه.

- شو؟ شو مالِك؟!

- بنت الكلب..

بنت الكلب المقصودة أنا . سيطرت العتمة على المكان مجدداً، وهيكلها يتقدم نحوي بسرعة . أمسكت كفاها بساعدي مؤرجحةً جسدي لحظة، وصوت عمي يقول:

- اتركي البنت.. شو صار! ما خلص..

طريقة فذة لتعاطف العم معي، اتركي البنت! كلمة خاملة تنم عن ضجر. لم تسمعه "فتحية" وواصلت شدّي بقبضة قاسية، أين تذهب بي! انسحبتُ وراءها فوق درج البيت المظلم. أنفاسها تتهدج. أنفاسي أيضاً، وآهات قصيرة تختنق في صدري، بينما تتفجر حروفها وكلماتها.. أنشغل بكيفية انسحالي متفاديةً إصابات جسدية بليغة وأطرافي تخبط فوق الدرجا ت..

- يلعن أبوكي... المسخّم مسخّم.. من وين بدنا نجيب الحظّ؟! يا نحس يا بومة... أنا بدبْرِك..

تحت درجات السلّم دفعت بكتفها البابَ الخشبي العفن للقبو. هبت رطوبة خانقة، وغرقتُ في الظلام تماماً رغم عينَيّ المفتوحتين، و"فتحية" ترى في العتمة مثل أنثى ضبع توحشت. ضغطت جسدي على الحائط وأفلتت ساعدي لحظات. سمعت صوت عمي في الخارج يكرر متنهداً مثل "مَرَة":

- اتركي البنت.

شتلتْ جسدي مرة أخرى، ثم ببراعة ضمتْ ساعدي وجرّتني إلى الباب تماماً وراحت تلف كفّي بحبل قوي خشن، لفّته مراراً ، ثم علقت ربطتها المحكمة بيد الباب الحديدية واستدارت . قالت كلمات أخرى مبعثرة، وانحرفت خارج الباب، شدّته وراءها فانغلق، ودار مفتاحه متحشرجاً في حلقه مراتٍ ثلاث. حبستني خالتي إذن! أدركت الآن ماذا حدث. بإمكاني الحفاظ على هدوئي ولامبالاتي حتى الصباح لولا تلك الخربشة المتواصلة في زاوية القبو، وذلك الإلحاح المضني لأمعائي، والصوت الغريب الخرافي يتردد في المكان متقطعاً مُحْدِثاً صدى ، حاولت تجاهله كأن أحدّث "حسن" عن تلك الخاصية الغريبة للرؤية وسط الظلام، لكن حتى هذه الخاصية لم تمنح نفسها لي في القبو الرطب. وتعالى الصوت، أنين موجع، ثم حنجرة تجوح .. التبس الأمر عليّ، لأني في وقفتي ورغم إحساسي بشد الحبل على رسغي كنت أقاوم الألم وأحبس صوتي ودموعي. يستمر الصوت رغم ذلك، وقبل بزوغ الفجر تماماً وأنا أنحني على وجعي ذبيحةً انقطع الصوت فجأة، ثم انبعث مواءً متقطعاً.. سحّ السائل بين فخذي دافئاً بطيئاً، ارتعشت وأنا أدرك أن فزعي الليلي نجم عن هرّة ولدت في القبو، وأمعاء مثقلة بمخلفاتها، ورسغين حزّهما الشدّ العنيف خطّين أحمرين ينفثان حرارةً موجعة. عندما فتح عمي باب القبو انزاح جسدي إلى الداخل، وسقط

ضوء النهار على الزاوية كاشفاً عن هررة كثر يتمسّحن بالقطة الأم التي خنشرت وانتفش شعرها .
كدت أتهاوى وهو يفكّ رباط كفيّ متمتماً:
- لا حول الله ولا قوة إلا بالله..
استيقظت تماماً مانعةً جسدي أن يميد . مرقتُ أمامه بخطوات بطيئة، مودّعةً طفولتي، امرأة "حيزبون" على حنكة ودهاء، أطقطق في أعماقي كما شرر ينبعث من موقد تغذّيه الريح، وقفت "خالتي فتحية " أعلى الدرج ترقب صعودي بريبة.. ظلت واقفة هناك وعيناي تجلدانها قبل أن تنفلت نحو حجرتها كأن شبحاً يتعقّبها .. مسكينة خالتي . لم تعد تستطيع النظر مباشرة إلى وجهي، وكنت أستمتع بفتح عيوني في مواجهتها، ولكني استوعبت الدرس. كان عليها أن تخطئ فأكبّلها بعثرتها إلى الأبد . لم يحدث بيننا بعد ذلك ما يستوجب حبسي في القبو، وظلت أم صبحي والجارات العزيزات يرددن في الحارة:
- سبحان الله، أم وبنتها مش هيك!!

***

لست طفلة متوحّدة كما يروق لمعلمتي في المدرسة الابتدائية أن تسمّيني، أو "معقدة" كما تتهامس البنات سراً، حتى ولو فشلت في عقد صداقات حميمة معهن، إذ لا أستلطف مشاهدة فتاتَين تتلاصقان متهامستَين وتُصدران ضحكاً غنجاً كعشيقتين، أرقبهن يتحسسن براعم أجسادهن تحت غطاء البراءة . أعتقد أن شبْكَ ذراعي بذراع زميلتي و نحن نتمشى في ساحة المدرسة خروج على ناموس الحياة، ولا أستسيغ دعوة إحداهن للمبيت معي كما تفعل الصديقات. أحب وحدتي في سريري البسيط الذي أضافوه إلى الصالة بعد بلوغي. أحب وحدتي على المقعد الصغير المرمي عند الزاوية في حجرة الاستقبال العادية التي تستقبل الزائرين بلا رياش أو تحف، مكتفيةً بلوحة مخططة بالذهبي لآية الكرسي فوق قماش مخمل عنّابي وسط إطار ذهبي عريض. أحب هذا الهدوء ا لمنبعث من أنفاس زوجة عمي الرتيبة، ونوم عمي المستذئب، عين مغلقة ولكنها مشقوقة على بياضها .. تسمي "فتحية" طريقة زوجها المرعبة في النوم وأجفانه نصف مفتوحة "النوم الغزلاني". أحياناً -وبدوافع غير واضحة- يحلو لي تسمية موته الهانئ "الروم الثيراني"!

إنها لعبة جناس، لا غير، يجعلها عمي تبدو أكثر من لعبة عندما يوغل في سباته نافخاً أمامه بطناً مهولة، ويخور في شخير رتيب دوزنه وفق نشاز النوتة الموسيقية؛ في حين أن "فتحية" تظل في دعتها كما لو أن بها صمماً. بطنها أيضاً مكوّرة أمامها رغم أنف العقم . أحب مرور جدّي بالجالسين كأنه لا يراهم، يتحدى جسده المنحني هناءَ الضيوف أيضاً ويقطع لغوهم. تريحني هذه الأحوال المحايدة الصامتة, أشعر أنها تنطوي على صخب عنيف وتُحدث رجّة في قلوب الجالسين، ولأني لا أرغب بصخب الصديقات وثرثراتهن، لم تحضر طفلة إلى بيتنا بتاتاً، حتى "وداد" إذا حضرت، فلِأنها زائرة للمكان وليس لي، تجلس صامتة تستمع إلى نقيق أمها والخالة، نتبادل أنا وهي بعض الكلمات عرضاً، ويسود الصمت بيننا غالباً، فلا تبدو أيُّنا مهتمّة بخرقه، حتى يظهر "صبحي" عند الباب مستعجلاً أمه وشقيقته لأمر ما.

السلام الأبدي الرائق الجميل في بيتنا جعلني أكثر إصراراً على عزل المؤثرات الخارجية والدفاع عن عزلتي الخاصة من العكر. كنت أحتاج إلى رعاية ناري التي تتقد على غفلة من البشر.

***

التقيت "حسن" في الثالثة من عمري.

تُحادث "وداد" "ريمتَها" بصوت مرتفع، تقول لها:

- الكبار غشّاشين، أمي بنت كلب.

وقالت أيضاً: "تعالي نلعب بيت بيوت".

ترتب "وداد" بيتها المتخيَّل غافلةً عن وقفتي الخرساء قرب الباب، واصفةً:

- هذا المرحاض، وهذا المطبخ، وهاي أوضة الضيوف.

ثم باحتجاج:

- شو يا ستّ "ريما".. بعدك ما غليتِ الشاي؟!

عندما أحدثتُ بأناملي خربشةً لطيفة على الباب، انتفضت "وداد" وطارت "ريما"، قلت بحماسة:

- لحالك!! تعالي نلعب بيت بيوت.

لا أبادر إلى دعوتها للّعب عادةً، ولكني تظاهرت إخفاءً لسماعي إياها تُحادث طيفاً، ولعبنا

متناسيةً اسم رفيقتها السرية "ريما". تدربت على مثل هذا التصرف بتجاهلي محا دثة جدّي لأطيافه، وتعوُّدي على جارتنا الختيارة وراء حائط البرندة تتاكف أبناءها المسافرين والموتى، ذلك أني لا أحب أن يجرؤ أحدهم على كشف أسراري وأطيافي، ولكني اليوم أرغب في الحديث عنه هو تحديداً، "حسن".. صديقي.. رفيق الدرب، ت وأم الروح... بنات الحارة يكبرن بسرعة، ويتوقفن عن الأحاديث مع الأطياف، وينكر الأولاد رفاقهم السريين، يدّعون أنهم لا يعاشرون إلا أترابهم في الأزقّة . لن يعترف أحدنا ل لآخرين عن الأشباح الرفيقة، لا أقصد إرباككم ولا أحاول إقناعكم، فـ"نارة" التي تسعى إلى اختبار الأشياء بلمسها وتذوّقها، "نارة" التي تعنى بالحواس وتتحول إلى دورق اختبار إزاء كل ما تقابله ومن تقابله، "نارة" الحسية الواقعية المنطقية، يكون لها رفيق سري!، أميل أحياناً قليلة إلى تفسير الأمر بغياب الرجال القادرين على إغوائي، ولكنها ليست مجمل الحقيقة . ربما كنت على تواضعي امرأة متطلبة، أريد الكثير من حبيب لا يملك إلا أن يكون بشراً، علاقتي بـ"حسن" اتخذت مراحل درامية مخيفة، داعبته بعد مشاهدة فيلم كرتون في تودد عبيط:

- أنت "فرندلي غوست".

غَضِبَ، ولا يجدر بالشبح الصديق أن يحنق هكذا، ولكنه يغضب وينكر كونه منزعجاً، يجب بارماً شفتيه:

- لست شبحاً.

أعتذر يا صديق، لستَ شبحاً، لستَ وهماً، أنا الوهم و أنت الروح، والراحة، والراح. لعبنا معاً بيت بيوت . ولأنه ولد، اتخذت اللعبة إيقاعاً يغاير إيقاعها مع "وداد". مثّلتُ وإياه أيضاً دور الجد والحفيدة، فسخر من ظهر جدّي المنحني، ولوى عموده الفقري فوق جسده مثل خيارة معقوفة، مطلقاً صوتاً عالياً من سقف حلقه:

- هرايس.. هرايس.. عسل يا هرايس.. الهرايس الطيبة.. طيييبة. بتنقّط عسل.. تع ذوق، تع.. تع.. قرّب.. بتعريفة الهرايس.

ادّعيت الشراء منه، أعطيته قرشاً مميزاً صنعته من شريحة خيار، مدوّراً وبارداً ولزجاً، ولكنه قرش يفي بالغرض، وأعطاني مربعاً من الهرايس. حرصت على المنديل الذي يحفظ قطعة الهرايس وينقّط

عسلاً. لففت الهواء بلهفة، ورفعت إبهامي والسبابة إلى شفتي كمن يتذوق على مهل، ثم صحت فاغرةً فمي، هازة رأسي:

- إع.. بتقرّف.

ضحكنا معاً من حلوى جدّي المحمّضة، ثم همس:

- تعالي نلعب عروس وعريس.

لم أقترح هذه اللعبة . على الولد أن يقترح، وعلى البنت أن تتدلل . هذه هي الأصول المطروحة علناً، والتي نتكاذب بشأنها . الواقع أن الإناث يقترحن ويبدأن اللعب دائماً، يقفزن إلى المربع الأول متظاهرات بأنهن مدفوعات . سأرفض في البداية كأني مترددة أو أفكر . التفكير يفزعني، فلأجد حلاً لنشوب الحلم الجميل في عقلي وجسدي، وأدّعي أن زوجة عمي "خالة فتحية" تناديني لأدْعَكَ بيدي الصغيرة أغطية الملاحف الثقيلة المنقوعة في "لجن" الغسيل، وأبتسم بود وهي تزبد:

- يعدّمني إياك.. شرْنِّه من دون البنات.

أعترف أن دعكي لا يؤثر في أغطية اللحافات المتسخة بعرَقها هي والعم والجدّ.. ربما بصنين بولي وبول الجدّ . يحق للمرأة التي تتعب وتشقى في مهامها المنزلية، أن تغضب وتدع و عليّ، بل وتكسر يدي الرخوة التي لا تقوى على رفع القماش الثقيل المبلل. سيكون من الغباء أن أتقمص شخصية سندريلا وأظن بزوجة عمّي الظنون التي لا تليق. سرعان ما أقرر أن ما كنت فيه أمتع وأجدى، فأنفض يديّ من الصابون، أمسحها بفستاني، وأركض مشيّعةً ب لعناتها إلى زاويتي المفضّلة لألعب مع "حسن"، عريس وعروس... وحدنا... وحدي... أهوي في بئر بلا قرار، من دون مقدمات، تنفلت الروح وتهو ي إلى غور لا قاع له، ويغتالني التعب إلى حد انتفاء قدرتي على الصراخ وطلب الغوث . أشعر بالخجل لو نقلتُ صوتي تعيساً إلى آخرين لا يتمتعون بحال أفضل مني، أصمت وأبتلع ندا ئي، أحتاج إلى يد تُمَدّ لي، ولا أقوى على مدّ يدي لالتقاطها .. أحتاج لمن يلتقطني في عملية إنقاذ شامل من دون جهد مني . أشعر فجأة أن لا أحد على استعداد لمثل هذه البطولة . أنا وحيدة، وحيدة، وحيدة. ينبثق "حسن" كجنّي المصباح، يحتويني بهدوء ظاهر وحرقة مستترة، فأبوح فيه..

ستحوذ عاشقة النور والنار على روحي تماماً، أنطلق نحو الضوء الحاد المميت مدركةً أمرَ الحريق في آخر الدرب .. تنفلت روح فراشة النور في النسمات، تطوف بالحقل، تتماهى مع الزهر، وترفرف ببهاء حرّ.. تلك لعبة الحياة اليومية. التوازن الجميل يعمر قلبي.

يضع الدنيا بين أصابعي الخمس، والحياة في شراييني، كأني مجرّة النور ، فالقلب يفيض من محبته ويطير نشوة.. بانتظاري كل ترانيم الفرح.. هناك ضياء يتسلل إلى القلب، ويمتزج بعتمة الخوف .

يفور مرجل العشق المجنون، نلعب بأطياف ألوان الحريق، أزرق، أخضر، أحمر، تتناسل ألواناً بامتزاجها، فأتنهد وأبتلّ، كأنما بحرٌ ينبعث من النار، يتشكّل واقعةً بالغة القسوة، بالغة الحنان..

لن نكتفي بتلك اللعبة السرية، ألعب معه الأم وابنتها أيضاً، يمشط لي جدائلي ويربطها بـإحكام بشرائط الشَّبَر الأبيض، وعندما أعبر باب البيت أسمع "أم صبحي" تقول دَهِشَةً: "والله إنها بنت حلال (تعني زوجة العم)، شوفوا كيف بتمشّط شعر القاروطة (تعنيني)، والله أم ما بتدير بالها ع بنتها هيك!".

أهز رأسي موافقة . لم تُرْزَق زوجة عمي بمخلوقات تنطّ فوق أثاث البيت المرتكز على مسامير مقلقة صدئة. وحدي أعمّر المكان بطيفي الهلامي، تبدو صورتنا للعامة أسرةً سعيدة ، حسدتني "أم صبحي" جهاراً:

– مسكينة يا "نارة"، الله حرمك الأم، و"فتحية" الله حرمها الخلف، بس نيّالك، عوّضها فيكِ وعوّضك فيها، سبحان الله تدابيره ما في مثلها، رحمته كبيرة..

ألوص في متسع قلب الرحم..

تتوقعون أن أصف لكم "حسن".. حَسَني؟!

أسمر، أشقر، نحيل، ممتلئ، وفق المزاج، يرتدي في الغالب ثياباً عادية، ألوانها كالحة كما لو أنها من تراب الأرض. لعله تكرار الغسل اليدوي الذي أُقيم له طقوسه المعتادة، أزجّ بقمصانه وسط غسيلنا اليومي كي أحتمل كل هذا الهراء، لم أسأل نفسي عن الأمر، "حسن" الوحيد الذي أسمح له بالدخول إلى خلوتي والتمدد إلى جواري، كنا آنذاك نتداعب بلطف، أبصق في كفّي لأمسح له شَعره وأنسّقه، أطيله وأقصّه، أفكّه أو أجدله، فيبادلني نبشَ شَعر رأسي بأظافره ولَمّه مجدداً، ويساعدني في فكّ رباط حذائي، وتزرير قميص بيجامتي. عندما كبرنا قليلاً، استراح ، لأني

ما عدت أرتدي البيجاما واستبدلت قميص النوم بها، طوّرنا لعباً أمتع، يتحسّسني ضاحكاً كل ليلة باحثاً عن هضاب ما، بشائر أنوثتي، وعندما لا يجد، يستفزني و يلاعب شفتي السفلي بسبابته قائلاً:

- كغغ.. غ غ.. كغلو.. كغيلو.

أضربه بقبضتي على صدره الأمرد، وأتنهد نعاساً ثم أتكور وأغفو وقد التفّ جسده حول جسدي مثل دودتين .. "أتحلّف" له .. عند تبرعم أول إشارات الهضاب في جسدي سأحرمه من لعب "عروس وعريس"، ولن أمارس التصاق العلقة بجسده.

سأخاف، وسيفهم خوفي، سيكتفي بضمّي وتركي أستمتع بسماع دقات قلبه، أو قلبي . يحدث هذا كله من دون أن أكثرت لوجود عمي وزوجته، ألاصق "حسن" في حجرة الاستقبال، وأمسك بيده نسير معاً إلى المساحة المخصصة لنومي. هناك حجرة أخرى ملاصقة للمطبخ، بهوٌ منسيٌّ بين حجرة نوم عمي وحجرة الاستقبال الباهتة، بقايا برندة أُغلقت بالزجاج فحّولتها زوجة عمي إلى حجرة للخزين . أما البهو الخاص بي فهو مجرد ممر خالٍ من ا لإضاءة، حيث يفوح سريري المشترك مع الجد برائحة صنين كانت نتاجَ فعلي، ثم صارت بتبادل زمني تدريجي نتاجَ فعل جدي . تحت السرير طاولة صغيرة وصندوق خشبي يضم مقتنياتي .. بالكاد يتسع المكان لانضمام "حسن". عندما كان جسدانا صغيرَين اقتنعنا أننا ننام فوق سرير الملكة شهرزاد، ظننتها ملكة، لم أعرف أنها حكواتية إلا فيما بعد، تصوّرتها ملكة تضجع على طرف سرير ضخم، أوسع من سريري قليلاً، حيث كان "حسن" كريماً إذا تقلب جسدي تركني أحظى بالمساحة الأوسع، لا ننام قبل اغتياب عمي وزوجه، أحياناً نضحك على جدّي، وأحياناً نبكي له، وقد نسخر من "وداد" (أم بطّات سمان) ومن كتفيها المكعبلتين وعنقها الذي يغوص في اللحم.

أفطس من الضحك، ثم أكركر خجلى وتجتاحني البهجة وهو يقيس بأنامله النحيلة طولَ عنقي، أتمتع بجيد طويل، وبسبب لمسات "حسن" التي توقظ أنوثة تلك البقعة بالتحديد، أغسل جيدي بقسوة، أفرك جيداً حتى لا أرى تلك البقع السوداء التي تميز أعناق الصغار من البنين والبنات الذين يلعبون بالحارة، أدلّل الامتدادَ الطريف بين رأسي وجسدي لأن "حسن" معجَب به، وإن لم يعبّر عن إعجابه بصورة صريحة، ولكني أفهم انتقاده لعنق "وداد" ثم تمريره أنامله فوق عنقي،

ثم تلك النظرة الوادعة العذبة قبل أن تغمض أعيننا وننام بسلام، لا أقايض "حسن" بكل أولاد وبنات الحارة، وكلما كبرت عاماً زائداً وطُلْتُ ملميتراً واحداً، أصابني الفزع من أن يتنبه عمي وزوجته إلى هذه العلاقة صرت أخاف اكتشافهما جلوسَهُ على ساعد أريكتي، صرت أخاف أن تنتبه زوجة عمي إلى الأسباب التي تجعلني من دون بنات الحارة أغسل عنقي باهتمام . صرت أخاف مرورَ عمي عبر الردهة بمحاذاة السرير ، فيراه ملاصقاً لي وقد فار جسده وجسدي وأوشكنا أن نصير رجلاً وأمرأة ونندلق من تحت اللحاف الكبير الذي يغطيني ووهمي وجدّي الناسي، غطاء أكبر من السرير للرفّ به جيّداً بعيداً عن العيون.

فيما بعد قامت "فتحية" بخطوة جبارة لم يعترض أيُّنا عليها، التزمت الصمت وهي تحمل فراشاً صوفياً قديماً وحراماً عراقياً مهترئاً إلى القبو، وتضع كل لوازم جدّي من قمصان وسراويل طويلة ممزقة في مربع كرتوني وتقتاد الرجل من كفّه مثل طفل مطيع لتحدد له مكان إقامته الجديد ، حيث لا نور إلا عند فتح الباب على الشارع مباشرة. ليلتها شعرت بالفراغ في المكان . انتفضت عدة مرات كسمكة خارج الماء، تقلّبت طعينةً، وقلت لـ"حسن" وقلبي يقرع مثل طبل:

- أنا حقيرة.

الحقير، لم يحاول دفع سياط الضمير التي توجعني، هز رأسه وكأن الأمر لا يعنيه، لعله استلذّ أن يكون السرير لنا وحدنا!

قلت لـ"رمضان" و"فتحية" وهما يفصفصان بزرَ القرع الأبيض:

- أريد حجرة.. لي وحدي.

أجابتني الهبلة بسؤال:

- وين؟! بقصر رغدان يا أميرة زمانك!

"فتحية" الطيبة لا تقصد السخرية، لا بد أنها لم تنتبه لتوقيت طلبي العجيب .. أيام قبل توقيعي عقد تنازلي عن بيتي لصالح عمي "رمضان". حاول عمي النبيه لفتَ انتباهها بحركة كابحة من حواجبه العريضة، تكاثرت ضرباتُ التجاعيد على جبينه ولم تفهم، لكنها ابتلعت صمتها، قال وجلاً:

- تدلّلي.

يا عيني، أتدّلل! تعبير حميم استعاره عمي من العمال العراقيين زملائه في ورشة البناء.
اقترحت بثقة:
- نزلوا الكراويش اللي في البرندة على القبو عند جدي (مزيد من الحقارة) وبتصير البرندة أوضتي... لحالي. الطيبان، الرائعان، لم يناقشا. جدّي الساهي الناسي لم يناقش، ودلفت بقدمي و"حسن" البرندة وكأنها عالم جدي.
لم أسمح لعمي "رمضان" بمساعدتي على تهيئة الحجرة، رغم كونه معلمَ بناء أستاذاً. اكتفيت بزجاجها وفواصل الألمنيوم التي تعزلها عن الفضاء الخارجي، حائط البرندة الوحيد هو الواجهة الشمالية لمنزل جارتنا العجوز التي تعتزل الحياة، وحدها "فتحية" تتعامل معها برأفة عالية فترسل لها ما فاض (إذا فاض) في صحوننا من مجدّرة ومقلوبة من دون لحمة ولا دجاج . هناك مخاوف من العجوز تجعل أولاد الحارة يتأملونها ملياً إذا انشق بابها. نادراً ما يحدث هذا، ولكن من برندتي (الحجرة) صار بإمكاني أن أسمع أنفاسها . هذا يعني أنها تسمع أنفاسي . أحياناً أسمعها تسامر زائرة، عادة ما تكون الزائرة في مخيلتها الهرمة، ولكنها كأية فنانة قديرة تمنحها صوتاً مغايراً، أكثر صبا من صوتها الأصلي . أحتفظ بسرها ولا أثرثر حول كلماتها الغريبة وأسرارها المضحكة . إنه ميثاق شرف لا بد منه، إذ إن أسراري الحميمة في متناول سمعها.
سرّي الأجمل تلك البرندة الحجرة، حيث يمكن اغتيال العالم ودفن قتلانا تحت الأرضية العتيقة، أسفل البلاطات التي اتّشح لونها بأغبرة الزمن وتشحّط بفعل جرّ الكراكيب فوقه. هذا مجرد تعبير فجّ، فنحن لا نقتل أحداً حقاً ، ولكننا نمارس تخليق الحياة بصورة فذّة . زينت الأرضية بسجادة خضراء صغيرة عليها مقاطع من مربعات تتشابك مع خطوط ممتدة، وركزت السرير الخشبي تحت الزجاج الذي يكشف العالم . راعيتُ أن تسقط الإضاءة مباشرةً في المساحة التي يُفترض أن يكون فيها صدري، لا وجهي . ستزحف بعد ذلك ببطء إلى الرأس . هذه مساحة زمنية مناسبة للاستيقاظ المريح. طاولة في الجهة المقابلة، فوقها كتبي وأوراقي، وربما جهاز تسجيل صغير أسمع منه الأشرطة التي هوستني للمطرب محمد منير ، والتي تلعب دوراً أساسياً في فصلي عن جارتي . أغطي بالأغنيات العابثة صوت ثرثرتها وثرثرتي . نوع من الأدب وإطلاق خصوصية كل منا على حدة. أحتاج إلى "كميدينو" بأدراج عريضة أزجّ به قطع الملابس، وفوقه مكواة سفرية صغيرة،

تساعدني على استرجاع هيبة القمصان التي يجعلكها إهمالي واستهانتي . صففت أحذيتي القليلة تحت "الكمدينو"، وخبأت بطانية ثقيلة شتوية وشراشف خضراء بزهور صفراء ووردية، عند زاوية الباب تماماً، طاولة صغيرة للغاية فوقها "بريموس" غاز بعين واحدة وعلبة كبريت، سيحلو لي شرب فنجان من القهوة أو الشاي، أو حتى النسكافيه أنا و"حسن" وحدنا.

رصصتُ علب القهوة والسكر والشاي وملعقة وكأسين على رف وراء الباب، ساعدني "حسن" لإضفاء الحيوية اللازمة على حجرتنا الصغيرة، مملكتي الوحيدة التي لا أقايض بها كل ممالك الأرض. تشعلق فوق كرسي وهو يلصق ورق الجدران الأخضر الفاتح، وتكفلت بالمنطقة القريبة من طولي، ينثني الورق أحياناً فلسنا محترفَين في مجال الديكور. سنستمتع بهذه الانثناءات الحمقاء لورق جدارنا الجميل قبل أن نقرر إحياء أرواحنا مرة بدهان الحجرة . نحضر الأصباغ والفراشي ونعمل مثل عاملَين جادَّين، نتبقع بلطخات الدهان التي تتناثر فوقنا كنجمات وتستقر على أيدينا كحالة نمش مستعصية قبل أن نغسلها. يحدث كل هذا والغيظ يأكل قلب "فتحية"، لأنني لم أطلب مساعدة أحد . يسمعون كركبة السرير و"الكميدينو"، ولا يعرفون إذا ما كنت أحظى بمساعدة أحدهم في داخل البرندة التي صارت عزلة تامة.

أنا أول من أقام مشروع الجدار العظيم بين العالم وبيني.

جيرتنا محدودة بسبب التفاف البيوتات عند منحدر الجبل رغم كوننا نسكن في منطقة مكتظة، لكن التعامل لا يتجاوز قلّةً من الجيران وفي الحدود الدنيا لمستلزمات الجيرة، أكره أن أجد "أم صبحي" في الممر، أتذكر ابنها صاحب الأنف الضخم والقميص المتعرّق المعجون برائحة الكاز، عملياً كان يعمل في الكازية القريبة، أمه تتغطى على زوجة العم، الأم البديلة التي لا تحرك ساكناً لتكون أماً، يخيل إلي أنها ربما لا تمارس الجنس لتحصل على هذه النتيجة، أخجل من أفكاري، فالمرأة الطيبة تتشعلق مساءً فوق حديد السرير، تعدّ طعامنا صباحاً وتنظف منزلنا، وفوق كل هذا تنفرد بشخير عمي ليلاً وتحرك جدّي بعصبية من مكانه إلى بقعة أخرى ليستمر التنظيف في تلك الحجرات المتواضعة، ليس عليّ أن أرجمها لمجرد أنها ليست أمي، ولا يجب أن أكره "أم صبحي" لمجرد أنها أم لهذا البهيم. أعتذر عن الشتيمة لكنه يستحقها . بدا مهووساً يومها، بياض عينيه مثل زرّ البندورة، دفعني ساعده وحشرني في الزاوية بقوة أخافتني، هل خفت؟ ! هل

تواطأت، هل أردت أن أعرف ماذا سيحدث حقاً؟ كيف سأشعر! لقد أطبق على فمي بقوة، وسد أنفي بأنفه. الحمار كيف يتوقع أن أقع صريعة هواه وهو لا يسمح لي بالتنفس، ولأن شفتيّ توجعتا من دون لذة، وصدري ضاق يطلب نَفَساً، فقد دفعته إلى الجدار المقابل، ساعدي أيضاً قويّ بما فيه الكفاية، وصوتي مثل زامور سيارة الإسعاف الذي يُصدر صلصلة غريبة وهو يتقدم سريعاً باتجاه "مستشفى الأشرفية"، صحت بكل عزمي:

- يا كلب، والله لأفضحك، والله لـ...

توسل "صبحي" بذلّة، ولم أسمع كلماته، أفقدني الغضب تركيزي تماماً، فأنفي رغم التوتر يلتقط رائحة الكاز التي تفوح من شعره الملصق على رأسه مثل فروة خروف مبتلة، ارتعشتْ كفّاه وهو يرفعهما إلى فمه:

- هش هششش، الله يخلّيكي، خلص ما بقرّب صوبك، خلص اسكتي.

يومها جئت بالملح من الدكان، سجّله الدكنجي في الدفتر دَيناً من دون احتجاج، إذ لمح في عيني آثار دموع. تعاطف عابر. على الأغلب خيل إليه بأن زوجة عمي أساءت إليّ، أنا اليتيمة مكسورة الجناح، هل كان في عيني أثر للدمع! لم أبك، ولكني ومن دون مواربة كنت غاضبة من "صبحي"، لأن رائحته كاز، وشعره ملصق كخروف، وشفاهه يابسة لا تبعث على اللذة، لأنه يستعطف بهذه الصورة الدرامية البشعة. ما هذه الحارة التي لا يلوح فيها فتى عليه العين، ملعون أبو الملح والكاز، بكيت بين ذراعي "حسن" مساءً، كان يفوح بأريج يشبه أريج النعنع البري، ربت كتفي بحنانِ جدّ يتذكر، قال إن علي أن أهدأ، أن أنسى، ومرر أنامله فوق جيدي، ثم مسح دموعي ولعب معي لعبة (الطُعمة)، دسّ سبابته في فمي لأتذوق طعم دموعي، قلت:

- مالحة..

قال:

- أحب الموالح..

بعد حادثة صبحي بعامين خيل إليّ أن "موفق" الذي يتمشى على سطح البيت كلما تمشيت، مشروعُ حبيب محتمل. معقول. أخبرت "حسن" أن "موفق" لا يفوح بالكاز، فضحك حتى شرق بدمعه، شعرت بالفزع لأني ظننته يبكي، ولكنه قال إنه يضحك عليّ. سألته أين يذهب

"موفق" برفقة "صبحي"كل مساء، أنكر "حسن" أنه يعرف، وقال إني سأعرف ربما مستقبلاً .
يريد أن يحتفظ بأسرار الذكورة، كأنهم يتآمرون فيما بينهم . بالطبع عرفت أين يذهبون بعد التوجيهي، ليس المهم أين يذهبون، ولكن المهم أنهم يجهضون حلماً خاتلني مرة، عندما عاد "موفق" من دراسته الجامعية في بغداد، قلت لـ"حسن":

- ولْ عَلَيّ، شو كاين ذوقي هترش، تخيل، هذا كان الحيله والفتيلة!!

كنت حينها قد صرت صحفية، و"موفق"، الله يوفقه بمهنة يترزق بها، قال لي: والله نفخر بكِ.
صار يتحدث مثل الدكنجي، كيف كان يتحدث؟ ! لا أعرف. كنت أتخيل أحاديث وحوارات ممتعة لا تنتهي، ثم أزجر شوقي، يا بنت لا يجدر بك أن تطيلي الحديث مع "الحبيب"، سيملّك بسرعة، خففي قليلاً . في الماضي وعلى أرض الواقع كنا نتبادل السلام مذعورين، لم يتسنّ لهذا النبع من الحديث الممتع الذي لا يعرف النضوب أن يتدفق إلا برفقة "حسن"، وعندما صار من الممكن أن أقف في الحارة وأكلم موفق أو صبحي عياناً من دون خشية ولا توقُّع باعتراضات الآخرين، فقد الشابان كل بريق.

عن أي النجوم أبحث؟ الحياة سماء خاوية حالكة تماماً بالنسبة لي، ولا أرى في تودد "وداد" لـ"موفق" معنى إلا عَمىَ الألوان، قلة الذوق التي انتابتني مرة !! أما أنا فما أزال أتحدث من دون توقف مع "حسن"، قال لي:

- أنت مجنونة، أحلامك قريبة منك، وعندك قصر نظر.

***

في تلك اللحظة المكتظة بالصور المتباينة، والتي تمنيت أن تنضب أو تمحى من رأسي كما حدث لجدّي، مررت في الساحة الهاشمية، بنطالي الجينز نهب للعيون، أسمع هدير التلفاز من المقهى وصوت قرقرة الأراجيل، وتنهُّدات الذكور العزابى.. الأخبار غامقة ولزجة مثل قطران يسيل من قاطرة مخرومة.. أخبار مثل العمى.. " عراقيون" في شاشة التلفاز يقولون (بفخر) إن قرار العراق بعودة المفتشين إلى بغداد من دون شروط انتصار للعراق، وعزّ للعرب، يا أللللله! والله إني لا أفهم بالسياسة.. كيف يسمّون الأشياء بعكس دلالاتها! العراقيات يفترشن الطريق في الساحة الهاشمية ويفردن بضائعهن الرخيصة قريباً من الحمّامات العامة محتملات أبخرة الصنين، هناك

نسمع صوت كاظم الساهر يصدح : "دلع عيني دلع، دلع روحي دلع "، ثم تغطي رائحة الشواء القادمة من المنتزه على كل رائحة، وتتناثر الأصوات:

- ش تقول عيني؟ يضربون بغداد، لو ما يضربون!!

"شو بدريني"، لا أفهم، قطعاً الشعوب أكثر فهماً مني، تعرف ماذا تقول، ومتى ولماذا . الشعوب صاحبة تجارب، وأعناق عريضة، تفهم أكثر مني، فلماذا أبدي دهشتي الجاهلة؟ أتلكأ عند شاشة تلفاز المنتزه لأسمع المزيد.. ليس هناك فتيات سوا ي يفعلن ذلك، لعل مهنتي أكسبتني بعض الوقاحة لأتناسى الحريق الذي تُحدثه العيون على خلفية بنطالي فأقف ببراءة لسماع الأخبار. "أبو عمار" يدعو للعودة إلى طاولة المفاوضات فوراً، ما أشجعه وأشد إيمانه بالمسيرة التي تكبو عند خط النهاية، أبو (اسم نضالي آخر) يحصي عدد القتلى في نابلس، أبو (أبصر مين) يذكّر بمذبحة جنين ويدعو إلى خطوات جادة لتوفير الدم على الصغار حمَلَة الحجارة، أبو فلان، وأبو علتان، أحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه، أن ليس لي "أبو".

ملعون "أبو" من اخترع التلفاز.. التلفاز هذه بالعربية الفصحى، إني أتقدم، لا يمكن للكاتبة أن تدّعي أني أسلبها أسلوبها الوقور بأحاديثي العامية المبسطة الخالية من زخرف اللغة. كذلك يمكن لمعلمة اللغة العربية أن تشعر بالفخر لتقدمي الطارئ هذا . أعود إلى التلفاز.. ملعون "أبو" من اخترعه، لقد حشا رأسي بوسادة من شوك. صحيح أني حلمت طويلاً بأني سوبر مان، أو الرجل الوطواط، لعل هذا حدث قبل أن أدرك أني أنثى، وأن عليّ أن أجد نموذجي من الحسناوات اللواتي يم لأن الشاشة بشراستهن وحسنهن المدمر مثل "المرأة الجبارة " أو "ذا بيونك ووم ان" أو "ملائكة تشارلي". كل هؤلاء أعَنّني على قضاء مراهقة متوازنة، كنّ ينتقمن باسمي و اسم ملايين النساء لضعفنا المستتر والعلني، ينتقمن ل"وداد" ابنة الجيران التي تمضي وقتها تشطف درج البيت وقد حسرت بنطالها ليكشف ربلتيّ قدميها الممتلئتين، ينتقمن لشعرها الطويل الناعم المعقوص ذيل فرس والذي يمكّن شقيقها المغفل "صبحي" من شدها منه عندما يعود ظهراً مغطى بهباب وزيت السيارات، فيخيّل له بأن "وداد" تتلكأ عند باب البيت . حسناوات الشاشة انتقمن لمسالمتي وأدبي البشع، ولكني في الحقيقة كنت أعلم أني لا أشبههن بحال، كنت أ رعى برعمَ الوحش في أعماقي وأحمّل شاشةَ التلفاز خطيئتي. من أين جاءت إذاً تلك الصورة الجهنمية التي

أراها بوضوح إذا ما جلست إلى عمي وزوجته متحلّقين حول طاولة الغذاء، عادة ما يتناول جدّي الناسي غداءه في حجرته، أقصد القبو الذي نلقي به الأشياء المهملة تمهيداً للتخلص منها. أحياناً إذا ما عدت مبكرة أُعِينه على المهمة الصعبة، أتأكد أنه تناول نصف وجبته على الأقل، بينما أهدرَ النصف الثاني على حصيرة ممزقة في أرض القبو . أما في صالوننا البسيط، تحديداً في تلك الزاوية المخصصة لتناول الطعام، نجلس (بقية العائلة : "رمضان " و" فتحية" و"نارة") بامتنان حول قصعتنا . كنت أتحدث عن التلفاز! عندما تكون وجبتنا شوربة العدس، أسمع فم عمي يشفط السائل الساخن ثم يفحفح دافعاً لسانه إلى الخارج علّ الهواء يخفف لسعَ الحرارة في بطانة فمه، ثم يفتّ بقطع الخبز الجافر في الوعاء ويعجن الخليط ويتناوله متناوباً بين الملعقة ويده، عندها لا يعود الذي يجلس ببنطال البيجامة كالح اللون لكثرة الغسيل هو ذاته عمي الذي أعرف، أرى قطرات العدس تسيل من زوايا فمه، يخيل إليّ أن لون العدس أحمر مخضرّ مثل خراء، فأغضّ بصري، وأقرص برفق خفِيّ وحْشِي القابعَ بين الضلوع، أسعى إلى وقف ذلك الشريط المرعب، وأنجح أحياناً، ولكنه يفلت أحياناً أخرى، عندما أكون متعبة أرى عمي يحمل سكّين جزار كبيرة مسنّنة، يتسلل من خلف ظهري، لا أعرف لماذا يستمتع بالتسلل الوئيد خلفي، رغم سكوني وانكشاف صدري كأرض بكر، يطعنني بضربات متوالية في منتصف الظهر تماماً، يرافق طعناته بصرخات ضبع مستوحش في البرية، وأظل على سكوني أتصبب دماً.

يمسح عمي شفتيه بباطن كفّه، كأنه يتعمد إثارة اشمئزازي بعد كل وجبة، سيأتي يوم وأكفّ عن الجلوس إليهما لاحتساء الشوربة المقيتة

يقول عمي:

- اللهم ديمها نعمة.

وتقول زوجته: "نارة".. ودّي الصحون عالمطبخ..

من العادي أن تقول كل يوم : "ودّي الصحون على المطبخ ".. من العادي أني لا أناقش وأحمل الصحون برضا واستكانة.. ما أجمل الصورة وأشد صفائها.. أسقط في بئر خجل عميق ة وأؤنب نفسي و أسبّ من اخترع التلفزيون ومن عمّر الشاشةَ بأفلام الرعب.. عمي الطيب عاشق العدس، وزوجته الوادعة ماذا تفعل بهما مخيلتي العدوانية ! في الواقع لا يجيد عمي الطعن في

الظهر. هو من ربّاني، إنه كافل يتيم من الطراز الأول، و إن أوحى بروزُ كرشه بأمر مختلف . لم يجرني يوماً من ذيل الفرس، ولم توبخني زوج عمي (أمي البديلة) إذا كسرتُ طبقاً، وإن أوحى بطنها المندفع باستمرار من دون زرع أو حصاد بعكس طيبتها . إنها الحياة المثالية كما يجدر أن تكون، ويجدر بي أن أشكر وأحمد وأتوقف عن زرع الخيالات الشيطانية في رأسي الأبله.

مسح عمي الحنون رأسي برفق وربّت على كتفي المرخيتين عندما حمل إلي أوراق التنازل عن البيت الذي نسكن . كنت في الواحدة والعشرين من عمري، في براءة طفلة في السابعة من عمرها، أجهل حتى تلك اللحظة امتلاكي قانونياً نصفَ هذا البيت المهترئ . لم أفكر مطلقاً بكون جدّي ووكيلي الشرعي لم يعد يتمتع بهذا الحق بعد فقد ذاكرته ونسيان اسمه. لم أفكر بأني تجاوزت السن القانونية لأتمتع بكوني وكيلة نفسي.. لم أتذكر السبب المباشر الذي أتى بعمي ليكون في رعايتي هو وزوجه.. أُصدّق "أم صبحي" التي قالت إنها ترتيبات الرحمة الإلهية.. بنت يتيمة وامرأة عاقر وعمّ حنون.. وبيت بُني طوبه من مربعات الهرايس التي باعها جدّي على الطرقات.. يا لجود الحياة.. وقّعتُ أوراق التنازل عن طيب خاطر، كأني أتخلص من حمل ثقيل . الحقوق أحمال لا نحتملها، ماذا سأفعل بالبيت؟ أشغل فيه مساحة سرير يخشرج خشبه عند تقلّبي، و"برندة" تصير كوناً، وهذا يكفي ، حتى لو استقر باقي البيت بحجارته و أسياخ حديده وإسمنته المسلّح في كرش "رمضان" و"فتحية"، ولكني فقط ساخطة على زوجة عمي لكثرة ما تطبخ حساء العدس، وعلى مخرجي الأفلام لكثرة ما يمدون ذاكرتنا بصور مجرمين يتسللون خلف الظهور.. ويطعنون بعمق.. بعمق كبير.

***

ينذرنا "منذر الفاتح "كل يوم بنكتة، أغلبية القراء يظنون أنه يسلّيهم، بالطبع لا يحمل لقبه "الفاتح" وعوداً بفتوحات لا على المستوى العربي ولا الفني حتى، ولكنه قدم لي هذا الصباح هدية قيمة، مجرد معلومة فتحت أمامي آفاق الفرح . كثيراً ما تكون الأشياء صغيرة، صغيرة للغاية، لكن فعلها كبير . أزاح بكفّه الحساسة كومة بزر البطيخ المنفلشة على مكتبي، كوّمها في الزاوية هامساً:

- مش هيك يا ست "نارة".. ملّيتي الدني.

ضحكت:

- ما في شي أخاف عليه فوق مكتبي، إنت غير، كمبيوتر وتكنولوجيا، أنا عندي شويّة ورق كل ما أكتب إشي ما بعجبني بفصفص فوقه بزر.

لماذا ظننت أن الرجل انزعج وعدّني بلهاء! رغم أن "منذر الفاتح" لم يبدِ أي تعبير ولا قام بفعل يقود إلى هذا الاستنتاج، ولكنه سأل بلطف هو طبعه:

- بعدك بتروحي وتيجي بالسرفيس؟!

- لما بكون مرَيْشِه والجيبة عمرانه باخد طياره جمبو.. تاكسي.

- مش قلتي بدّك سيارة؟ فولكس؟!

- يا ريت.

قادني "منذر" إلى ابن عمه، رأيت السيارة تقف بباب كراج في المنطقة الواقعة بين صويلح وتلاع العلي، فولكس مدللة مكورة باستطالة كخنفساء. لم تكن صفراء، ولكني وقعت في غرامها . قال ابن عمه الميكانيكي وهو يلاحظ انبهاري وجوعي لركوب سيارتي الخاصة:

- عَ ضمانتي.. أنا فحصتها ، ماتورها نظيف.. ألماني يا أختي شو بدنا بالحكي، أحسن من الألماني ما في.

- هذاك المرسيدس.. مش الكركعة..

قاطعني في محاولة إقناع، لم أكن أحتاجها:

- سيارة مستعملة، سعرها طري.

- مشكلتها أنها مش صفراء.

ضحك عن أسنان صفراء:

- هيك بس! بسيطة، تعالي استلميها بعد يومين صفرَه مثل الليمونة.

قادني الفتى ليقنعني بمزايا السيارة، اجتاز منطقة الكراجات صعوداً إلى طرقات الفحيص الخضراء، سلّمني القيادة عند قصور الحمّر، وتأملني وأنا أتشبث بـ"الستيرنغ" وأركز على الطريق أمامي، قال بإعجاب:

- ما شاء الله عليك.. قلبك قوي..

عندما عدنا إلى الكراج، بدا كما لو أننا صديقين، نظر "منذر الفاتح" بريبة، وقلت أنا فرحة:
- سيصبغها صفرا..

بقرض معقول من بنك ا لإسكان، وكفالة "منذر"، على راتبي البسيط، تمكنت من شراء الفولكس المستعملة. عندما استلمتها لم تكن صفراء بهية مثل الليمونة، ولكن فاقعة مثل محّ البيضة. لم أعترض. لحظت أن ملابس الميكانيكي ابن عم "منذر" غاية في ا لأناقة: قميص حريري يلتمع بخيوط فضية، وشاربان مصفّفان بعناية، وعطر "بروت" الذي يستخدمه "سحلية"، يفوح بقوة. أناقة تثير الغثيان. حاولت تذكر إذا ما كان هذا شأنه قبل يومين، اقترب مني هامساً:
- آنسة "نارة".. بحب أعزمك كاسة شاي.. وبالمرّة نحلّي كنافة احتفالاً بالسيارة.
تنبهتْ قرون الاستشعار عندي، هكذا إذاً!
- شكراً.. والله فكرة، بس لو سمحت أحكي مع جوزي أعزمه معنا.
استلم النقود أصفر الوجه، لم يكرر الدعوة وامتطيت أنا كحيلتي الصفرا... واو.. مين قدّي؟ على "منذر الفاتح" أن يشرح لابن عمه كارَكْتَر "جوزي"، ولا أبالي ضحك أم مات غيظاً.
ضحك "حسن" من الحكاية، قال لي:
- مين جوزك يا عانس؟!
ناكفته:
- مش أنت طبعاً، أي رجل حقيقي.
قال لي:
- طز فيكِ..
وضحكنا، أُصبت بما يشبه هوس القيادة، ركب "حسن" معي، ولساعات طويلة على مدى أيام جبنا المملكة من عمّان حتى سهول حوران نزولاً إلى معان في آخر الدنيا، لم أهتمّ للظرفاء الذين يقدّرون بسبب من لون سيارتي أني "تاكسي" فيلوحون بأيديهم، ألوح لهم إذا كان مزاجي معتدلاً.

***

يمر الجَمال سريعاً، مثل ضوء عابر، ليس سخياً ولكنه حقيقي وموجود . أحتاج إلى "حسن"

حاجتي إلى الجَمال، ذلك أن المعنى المحبوس يفيض في روحي . لا أعرف لمن أستطيع أن أبوح بعشق الحياة. لا أعرف إذا ما كنت أحب الحياة حقاً وأرى الجَمال بعيني إذا لم تبح به شفتي. ما لا نقوله يموت، الكلام رعاية دائمة للأفكار والأحاسيس. أعرف أن رأيي هذا سيحظى بسخرية فلاسفة التأمل والصمت، لكني غير معنية بهم، ومَن سوى "حسن" يستمع إلى حالاتي وتجلياتي الوجدانية؟! ارتطمت هذا الصباح بمنظر الزهر في قوّارة الزرّيعة، زهرةٌ تعاني من إهمال وتجاهل كل من في البيت تغاوت اليوم بنفسجيةً على أسياخ طرية خضراء . هذه النبتة المذهلة تختفي عاماً كاملاً، ثم ومن دون سابق إنذار، إذا ما هلّت بشائرُ الشتاء، تتفتح . لو لم أرتطم بها لكانت تفتحت من دون أن أراها، لمرت كنور عابر . اللحظات التي تعني السعادة والفرح مثلها، قد تغيب طويلاً، ولكنها تتفتح، ما عليّ سوى رؤيتها، عندها ستقبع في فؤادي دائماً لا تغيب ليس سهلاً أن تلملم الفرحَ من دنيا غادرة ، أن تستمتع بحدّ سكّين ، ولكنه ليس عسيراً أيضاً . عندما تجاوزت الزنبقة الليلكية بدأت المشاغبة تطيح بالصورة الجميلة . تذكرت أن هذه تدعى "السوسنة"، وأن لدينا دون العالمين سوسنة سوداء اختارت الملكةُ السابقة (نور) أن تجعل منها شعاراً للأردن. لا بأس، فهذه الزنبقة السوسنة لا تتطلب الماء، تقنع بجفاف بلادنا وتُزهر طرية ناعمة سامقة، تشبه وطناً نحب أن يكون، ولكنها قصيرة الموسم، سرعان ما تذبل مرتدّةً إلى قلب أوراقها الخضراء السيفية، علينا أن ننتظرها موسماً بعد موسم ببهجتها القصيرة.

ظلت السوسنة الليلكية في خاطري . لماذا ظننتني أشبهها لوهلة ؟ فجأة انهمر المطر، كنت قد تحصنت في سيارتي، وراح "حسن" يدلّني على الأشجار المغسولة بالماء، وأدلّه على القطرات التي تصرع على زجاج السيارة الأمامي وتتزحلق على الخلفي في لوحات سوريالية فاتنة. لحظات متعة نمارسها في الشارع العام. لم أتحرك إلا بعد دقائق حين دق "صبحي" على الشبّاك ملوّحاً بكفه:

- خير! ما لها إشي السيارة.. أيّ خدمة؟!

- أبداً.. عن إذنك..

أدرت المفتاح في "السَّلْف" هروباً من "صبحي" الذي كرهته تلك اللحظة، ما له وامرأة تتأمل المطر!! لماذا لا يتركون المرء على هواه في هذا الحي الفضولي ؟ هل عليّ أن أذهب إلى الجبيهة وأقف مقابل مدينة الملاهي ليسمح لي بلحظة تأمل من دون فضول ولا تدخل؟ ! ينهمر المطر

جاداً مجنوناً، تخذلني السيارة القديمة في وسط البلد، بدأت عيوب "الألماني" تظهر، ربما هي عيوب الاستهلاك . ما علينا، المشكلة ليست في الصناعة الألمانية، حال البالة ليس كحال الجديد، الآن يتزايد الفضوليون . أتمنى لو أن "صبحي" ابن الجيران، الميكانيكي الشاطر ، معي الآن، لكنا انتهينا سريعاً من أمر الماء الذي تسرب إلى المحرك و اقتضى التنشيف بعد "كونسلتو" عام عقده حولنا أشاوس البلد عارضين خدماتهم، نافخين صدورهم بفعل الشهامة الذي يقومون به تجاهامرأة منكوبة في وسط الطريق.

حلت المشكلة قبل أن أدلف إلى مكتبي متعبة مبتلّة، فكأنما تلاشى السوسن وما عاد للفراشات وجود. تلوب الروح نقمة على تفاصيل بسيطة، فأوجّه لوماً مستتراً ل"منذر"، لا يبدو أنه يعبأ بما أقول، بل يهز رأسه:

- طبيعي.. إحنا ما قلنا عن سيارتك المحروسة إنها وكالة، جديدة لنج.

حتى "منذر" يمكن أن يتحدث بهذه الخسة من دون أن يقصد . أتوق إلى جلسة خاصة مع "حسن"، أثرثر بما حدث معي، بدء اً من ارتطامي بالسوسنة، وانتهاءً بجيش ا لإنقاذ الذي تحلق حولي في قلب سوق عمّان. يبتسم مهوّناً ما حدث، ويدخل مكتبي نور اً غامراً. تدهشني نفسي وهي تفيض وتندلق معها يدهشني حضوره الممكن وسط ارتباك الحياة.

كيف يمكن لكل هذا النور أن يتبدد في عتمة مريبة ؟ ببساطة، يكفي أن يدخل مكتبي الزميل "سحلية" مرتدياً بدلته الكاملة (صيفاً، شتاءً)، لعل القميص الحريري الداخلي مبتلّ بتوابل من عرق وعطر، أعتذر لنسياني الاسم الأصلي لزميلي "سحلية "، المطبوع يومياً على الصفحة الأولى في الغالب، فلقبه صار محبباً عندي، قريباً إلى قلبي، لولا اللقب لثقل ظله، كيف لي أن أحتمل رج لاً ببدلة في كل المواسم، وربطة عنق وسيجار هافاني أو كوبي أو أميركي، لا أعرف الفرق، كيف أحتمله لو لم أحوّل عاداته القبيحة إلى نكتة ولقب . أشعر أني أدلله. أليس لكل الظرفاء ألقاب، أسماء للدلع، هكذ ا دلّعته: "سحلية" . إذ يمتلك من عبقريتها الكثير، أحمر إذا زاره شيوعي مهم، أخضر عند الحديث عن السلام والاستسلام، بنيّ إذا اكفهرت الأجواء، "بمبه مسخسخ" إذا تعامل مع مندوبة صفحة المرأة اللطيفة، مع رئيس الحكومة إذا غاب الشعب، ومع الشعب إذا سها رئيس الحكومة عنه لحظة، قادر على لعن سنسفيل جدّ كل أجهزة الضبط

والربط، ثم تحويلها إلى أكبر مؤسسة وطنية عرفها التاريخ.. سحلية حلوة لها في كل موقع زيّ. إذا لزم الأمر يصير منقطاً أو مخططاً أو مموجاً كالأفعى، يمكن لـ"سحلية" أن يزعج نهاري إذا ما رمى بصباحه الثقيل المعفر برائحة السيجار، أحتمله من أجل خاطر زميلي الذي يشاطرني مكتبي والذي أسمّيه "أمرك سيدي". ما ألطف وجوده، خفة الكائن الذي لا وزن له، يقفز مرتبكاً إذا مر رئيس التحرير في الممر أو عبر حجرة سكرتير التحرير .. يتصبب عرقاً إذا استدعاه المراسل إلى حجرة مدير التحرير، يسمع الأوامر بانتباه وتركيز يفلتان منه في اللحظة الأخيرة وقبل أن يهتف بحماسة قلقة:

- أمرك سيدي.

يطلب "أمرك سيدي " بودّ حقيقي منكسر أن أشرح له أوامر مدير التحرير التي استجاب إلى تأديتها كأي عسكري منضبط، نوع من تآزر المتعوس وخايب الرجا، أو المزلط مع العريان، لهذا، غالباً ما أرافقه إلى حجرة المدير، أتظاهر بأني مررت للتحية، أسمع ا لأوامر نيابة عنه، أحفظ الكلمات ريثما نعود إلى مكتبنا، ف أترجمها كما يحلو لي، زميل غاية في الظر افة، لا بأس بمساعدته، الكارثة أنه يندفع إلى همهمة تشبه البكاء إذا ما حدث أني أسأت فهم ا لأوامر وترجمتها، عندها أكون لئيمة ولي مقاصد خفية!! أقنعه أن فهمه هو الخ اطئ فيقتنع.. لا يعذبني ضميري تجاهه، لأني لم ألذْ "جنابَهُ" و أنساه. عادة ما يموت ضميري إزاء الأغبياء والمتخلّفين والبلهاء، حاولت مساعدته، ولي أجرُ المخطئ إذا أخطأت، وليقلع شوكه بكفيه. يتواطأ الزميلان "سحلية" و"أمرك سيدي" في مختلف الأمور على اختلاف شخصيتيهما والمزاج، ويقع "هيد آند شولدر" بينهما، ذلك أنه أبرع مخلوقات الله في نفض القشرة المتساقطة من رأس رئيس التحرير إلى كتفه فتاتاً أبيض ناشفاً، يقف "هيد آند شولدر" عادةً موارباً جسده الشبيه بقلم معوج قرب قامة رئيس التحرير المكتنزة، ويتحرك ظلاً له وإن كان يفزع أحياناً ويرتد إلى الوراء خطوتين إذا ما علا صوت رئيس التحرير متوقعاً أنه المقصود بكل غضبة أو بهدلة يجود بها صاحب الشأن الرفيع، فإذا ما اطمأن إلى رضا رئيسه عاود الاقتراب مادّاً كفّه بتودد رائق مثل غوريلاّ تفلّي حفيدتها، طارداً بربتات حانية فلولَ قشرة الرأس السارحة على أكتاف جاكيت البدلة الفاخر . لا تصدقوا كل ما أقول، فرئيس التحرير يستخدم نوعاً فريداً من الشامبو المجلوب خصيصاً

للدبلوماسيين، ويفوح عطراً، وتتنوع بدلاته بين تصميمات بيير كردان ورالف لورين، لا تأتيه القشرة من فوقه أو تحته.

رفع ثلاثتهم رؤوسهم واسترقوا النظر والسمع لمّا دفع لي المراسل وريقة صغيرة، استرعت الخطوطُ الخضراء انتباهَ الزميلين. الإشارة بالقلم الأخضر تعني أنها قادمة من مكتب رئيس التحرير الذي يعنيهم ولا يتوقعون منه مخاطبتي على أيّ نحو . تلكأت في الإعلان عن فحوى الورقة، وتصرفت كما لو أني أريد إخفاءها عنهم . مجرد خسة وبياخة لا مبرر لها . تحركوا بذعر المحاصرين . استمتعت باللعبة قبل أن أضحك وأنا أعلن عن تكليفي بتغطية جلسة شعرية صباحية في جامعة البترا.

حوّل رئيس التحرير إليّ بطاقة موجهة له لحضور محاضرة شعرية للكاتب "الماحي"، مهمة لا بأس بها، شرقطت عينا "سحلية"، وتنفس "أمرك سيدي" الصعداء، وهز "هيد آند شولدر" رأسه.

اللهم ساعدني حتى لا تحرن حمارتي الفولكس في طريق المطار، حيث تقع الجامعة العتيدة التي بدأت للبنات فقط، ثم استجابت لنحيب العذارى و أمانيهن الخفية في الاختلاط الجامعي، فبدأت بقبول الذكور إلى جانب الإناث.

يعجبني الشبان والشابات المتناثرين تحت الأشجار وفي الطرقات وهم يسيرون في عالم لا يعنيهم، تستخفّ نظراتهم بوقاري الزائف، تفصلني عنهم سنوات الدراسة ولن يشفع لي نُحولي، لم أعد قادرة على تزوير وضعي كخريجة وامرأة عاملة بخطوات راقصة على أدراج جامعة البترا، ظهراً اصطليت بعيونهم وأنا أتوجّه عجلى نحو مكتب الإدارة المكتظ بشخوص من "العيار الثقيل"، كنت أخفّهم وألطفهم وأجملهم، مرروا لي هذه النرجسية العالية، فشعوري بأني وقعت صدفة في المكان يربكني، أحتاج إلى حقنة ثقة ونرجسية تمنحني بعض اللون والوزن، جئت لتغطية أمسية شعرية (يسمونها أمسية رغم أن النهار ينتصف ، ولا أمل بغيابٍ سريع لشمس آذار المعتدلة) ، ليس هناك سبب يدعو إدارة الصحيفة لإرسالي في تغطية أمسية شعرية إلا الاستهانة الصريحة بالشعر، يصل الاستخفاف إلى حد تكليف حضرتي بالمهمة في حين أني لا أفقه شيئاً من طلاسم الشعر ورموزه، إنه الشاعر "الماحي" على أية حال، وقد أكد لي مسؤول القسم الثقافي بساطةَ طلاسمه وغياب ألغازه مؤكداً أني سأجد نفسي أستمع إلى كلام عادي عليّ أن أسجّله،

وقد أكون محظوظة فأجد القصائد مطبوعة.

ألتهو انتظار بدء الأمسية اضطرابي، تخرجت في جامعة اليرموك بعد أربع سنوات عجاف تفاديت فيها ممرات مكاتب ا لإداريين وا لأساتذة ما أمكنني، الآن أجلس زائدة دودية بين جمع من الكبار، وأجامل نفسي بأن ظلي أكثر الظلال خفّة وشفافية مقارنةً بالظلال الثقيلة سماجةً وكثافة، يدفع" الماحي " جسده إلى مقدمة كرسيه قلقاً ، بينما يتزحلق ضيف الشرف الشاعر "شاغل الدنيا " على امتداد الكرسي، متكئاً على ساعده بالكامل، ينكش شعراته المعدودة بسبابته، وينظر أستاذ الأدب العربي إلى هذا الاجتماع بين العملاقين "الماحي" و"الشاغل" على أنه إنجاز وطني، أتململ لأني لا أفهم أهمية أن يجتمع هذان القطبان، ولا سبب حماس ة الأستاذ، أنتظر بيأس بدءَ الأمسية وأخجل من سؤال "الماحي" إذا ما كانت أوراقه مطبوعة أم لا، ألوذ بالصمت وبالتجسس على حركات المحيطين بي. يتمتع أستاذ التاريخ بأ رفع أشكال التهذيب، يوجز في الحديث مستخدماً نظراته أكثر من الكلمات، يوزع اهتمامه بالتساوي، قاتل الله شائعات "سحلية" عن اعتياشه على هبات العجائز المعجبات في القارة ا لأوروبية قبل أن يعود مدججاً بسلاحه العلمي البتّار . للحسّاد طرائقهم في تشويه الوجوه الوقورة . لا أصدّق أن طالباً فتياً يسلّم جسده لحيزبون لقاء المال، كما أشعر بمسؤولية تجاه عقلي وضرورة تنظيفه من تلك التفاهات تباعاً . هناك شاعر يعمل في البلاط الملكي يجلس بأبهة عالية كأنه وحيد بينما ينتشر البقية في الحجرة . يمتلك أستاذ الفلسفة عينين فضّاحتين، من الواضح أنه منزعج ويراقب بحذر ويفلسف الأمور، الذكاء المفرط منفّر كما الغباء، وهو ذكي جداً، ينظر باتجاهي مقرباً جسده الصغير هامّاً بغيمة لا تمنحه إياها الحجرة الضيقة والآذان المتنبهة، لا بأس، عيناه تشيان بالملل وتمنّي انفضاض السامر . حضر روائي منشغل بمجده النقابي، اقتحم الحجرة بعينين خضراوين ذابلتين، يلمع كأنه نسي معجون الحلاقة على وجهه، بدا غريباً ثقيلاً ببدلته العسلية الأنيقة، ابتلعتُ مجاملاته بصعوبة، رغم أنه الوحيد الذي جاملني، ربما لأني صحفية! أزجر نفسي إذ أحس بصوته دبقاً، أتذكر قبّة مريول المدرسة المغطسة في محلول النّشا والتي تحز رقبتي طوال الحصة الأولى إلى أن أخلعها، ما علاقة هذا بذاك؟ والله لا أكنّ له ضغينة، ولكني حقاً لا أطيق ناموسة تمر أمامي، فما بالك برجل منشّى من ذؤابة شَعره وحتى مقدمة حذائه؟

في حجرة المكتب أطلق "الماحي" بعضَ ممازحاته، وأكملها على المنصة في قاعة المحاضرات حيث التهبت أيدي الحضور الفتية بالتصفيق، عندما يقول نثراً يكون أكثر إقناعاً منه كشاعر،
تصرف الشاعر ك إعلامي، فاستعان بالحمّى التي تتسبب فيها صور العنف ا لإسرائيلي، ظل الخطاب باهتاً والدم متوهجاً، و "شاغل الدنيا " يرمق الآخرين وكأنه متضايق، ممّ يتضايق؟
جاملني فجأة وبصورة عابرة، أقول "فجأة" لأن حدساً خبيثاً أسرّ لي أن الرجل لم يحتمل رؤية امرأة تجلس في حضرته ولا تراه.. أراه، أراه.. ولكني مللت انتظار ال قصيد في حين راحوا يتحدثون عن أمر مختلف.
قلقة كأن الريح تحتي، وهم يتناقشون حول المكان الذي سيقام فيه تأبين الأديب الراحل "مؤنس الرزاز". "الماحي" و"الشاغل" كونهما من غرب النهر، لا يتدخلان في الشأن الأردني، ربما احتراماً لاتفاقية فضّ الاشتباك الحميم، أقصد "فك الارتباط القانوني" بين الضفتين شرق النهر وغربه، في حين يسعى شاعر البلاط لإثبات أن الثقافة فُصّلت على مقاسه دون الخلق، فيتأجج حماسة عندما يخاطبون فيه الشاعرَ، خاصة بحضور شاعر ك."شاغل الدنيا" ، في فورة الحماسة يتصل من جهازه الخلوي برئيس الجامعة ا لأردنية، تأكيداً على حماس ة الشاعر يجري مثقف آخر اتصالاً مماثلاً مع جهة مغايرة، اكتشفت وجود هذا المثقف فجأة كأنه هلام اندلق من دون سابق إنذار، أجرى الهلام اتصالاً بمركز الحسين الثقافي، لتتحرك شبكة من العلاقات بين المهمّين، يبدو أستاذ اللغة العربية عرّاب المناسبة غاضباً لوجود احتيال مكشوف لإلغاء الاحتفال في قاعة رئيسية، محتارون أين يؤبنون الفقيد! فالجامعة ا لأردنية ألغت حجز القاعة لصالح بروفات رقص البالية، قطعاً أن الرزاز (لو كان فناناً حقيقياً) يفضّل رقص الباليه على مراسيم تأبينه، ولكنه ، وقد رحل، فإنهم يرثونه وبإمكانهم أن يقرروا نيابة عنه!
يقترح الشاعرُ القُبولَ بمدرج سمير الرفاعي الذي يتسع لأربعمائة شخص، بينما يتصور أستاذ العربية أن هناك ألفاً وخمسمائة عاشق لمؤنس سيحضرون، لا أجرؤ على التدخل تعجباً. في الواقع لا أعتقد أن هناك قرّاء لأيٍّ كان بهذا العدد، ولكني سأحضر، إذ يحلو لي الادعاء أني واحدة من المثقفين الذين يتواجدون في دُور العزاء هذه . يستشري الملل في الحجرة كالعدوى . الهلام الغائب الحاضر هادئ يخفي ضجره بدماثة مصطنعة، ويرى في قاعات مركز الحسين مكاناً مناسباً. أستاذ

العربية يقترح بحماسة الشهداء نصبَ صيوان ضخم نعلن فيه موت الجامعة الأردنية. يا لهول الكلمات والصور حين تقع تحت رحمة رجل متمكن من اللغة والمعاني! لماذا لا يقيمون التأبين في المدرج الروماني بين جماهير الشعب الكادحة والأشقاء العراقيين اللاجئين إلى الواحة الأردنية فنخلص.. أظل على صمتي، ففكرتي تافهة مثل ما تقدم من أفكار، تنقذنا سكرتيرة رئيس الجامعة بدعوتنا لإحياء الأمسية، أدلف وراء السادة الكبار فتهتز القاعة بتصفيق الطلبة، ويزوغ الشّعر.. ويزوغ فهمي، لا أستوعب شيئاً. "الماحي" يحب المنصّات، تتقافز قامته القصيرة ببراعة وراء منصّة أعلى منه! لماذا لا يراعي منظمو المناسبات مثل هذه التفاصيل الصغيرة؟ لماذا لا يفصّلون منصّات لقصار القامة؟

يقلب "شاغل الدنيا" شفتيه مسنداً خدّه بإبهامه، ما يزال الضيق بادياً عليه رغم أنهم صفقوا له أكثر من صاحب الندوة، واستخدموا اسمه (خلطاً) كلما خاطبوا "الممحي"، وهرعت الصبايا خلفه عند انتهاء الأمسية لالتقاط الصور التذكارية ووقف مثل "عمر الشريف" يوقّع اسمه الكبير على الأوتوغرافات الملونة.. مم يتضايق إذاً؟

سيقتلني رئيس القسم الثقافي على هذه التغطية البائسة. بانتهاء صهيل القصائد أسرعت للهرب، التقطت يدُ رئيس الجامعة ذراعي في إصرار لحضور دعوة الغداء، ما أزال متوترة أوشك أن أتقيأ عند شمّ رائحة طعام، دجاج مسلوق ثم محمّر، أرز ملوّن بالكركم، وسَلَطة ملفوف إلى جوار طبق الفتوش. العيب في مزاجي لا في دعوة الغداء الكريمة. لماذا أُصاب بكل هذا الملل والرغبة في الانكفاء على الذات.

لم يعد العالم يعجبني؟ لن أتمكن من إصلاحه أو تغييره، و لا أرغب في جداله، أريد أن أفرّ من الجامعة على عجل، وأفتح شريط عبد الحليم حافظ في السيارة، لأغني معه.

ينقر "حسن" على تابلو السيارة الأمامي كأنه من اخترع الموسيقى، ويهز رأسه طرباً وصوتي يكاد يخفي صوت عبد الحليم:

- سواح وأنا ماشي ليالي... سواح، ولا داري بحالي سواح..

يعود ذوقي في الغناء إلى ثلاثين سنة مضت، وكأني ديناصور بعث خطأً.

أفسدوا مزاجي بالحديث عن وقائع تأبين الرزاز، وخطر ببالي حفل تأبيني، لا أريد تأبيناً، أريد أن

أموت في الربيع محتفيةً بالدحنون على سفح أخضر. طبعاً لو امتد العمر بعمي أو زوجته بعدي قد يفكرون بإقامة خيمة يستقبلون فيها المهنئين.. أقصد المعزّين بي لثلاثة أيام متواليات. ذنبهم على جنبهم، هم من سيُعاني، وقت ضائع وتكاليف باهظة ودموع تماسيح لا مبرر لسقوطها، وربما إعلان مجاني في الصحيفة كوني ابنةَ مؤسسةٍ صحفية كريمة. عن نفسي، سأكون مرتاحة، رِجْل على رِجْل، وسيجارة، طبعاً إذا كان بإمكاني أن أفعل ذلك، أعني أن أهرب من ظلمة القبر إلى حيث أراقبهم وأدخن سيجارة. غيمة صيف عابرة تلوح في الفضاء وتتسكع مثلي على طريق المطار، فلْغفر للشعراء والمثقفين كل ذنوبهم و أواصل الغناء، الغيمة التي تُفرح فؤادي قد تبعث الكآبة في قلب آخرين، للجمال مفعول متفاوت بين الناس، لكن انحسار موجة الكآبة التي عصفت بي جعلني أكثر تفاهماً مع الأشياء، لهذا وقفت مجامِلةً لابن الجيران "موفق"، وإن لم أسأل عن أسباب تواجده في مدخل العمارة في مثل هذا الوقت. استفسرت عن أخباره قتلاً للملل، و استعجلت وداعه ملوّحةً بكفي إثر ظهور "وداد". أعرف أنها تتلهف على الاصطدام به عند مدخل الدّرج وهي تندفع هابطة من شقتهم، وتحاول أن تطيل الوقوف، تضاحك ارتباكاً، طبقة كثيفة من مسحوق وردي تغطي مسامات وجهها، كما تلتصق رموشها بفعل "ماسكارا" رديئة، ويترك أحمر الشفاه مشحة من لون فوق أسنانها الأمامية كقطة التهمت صغيرها للتوّ. نبهتها إلى الأمر بحركة خفيفة، مسحت أسناني بإصبعي، لم تنتبه وراحت تمسك ذراعي بإلحاح مدّعيةً أن هناك أحاديث كثيرة تجمعنا. لـ"وداد" أسلوب مزعج في التعلق بأذرع من تحادثهم، لم يبدل "موفق" وقفته المريبة، لعلها تسوغ لنفسها الوقوف بصحبتنا معاً، رغم بلهها الظاهري إلا أنها تجيد تحويلي إلى فزاعة تبعد عصافير الشكوك حول إعجابها المكشوف بقامة الفتى الفارعة. الناس أجناس وأذواق، والمتغيرات تلعب دوراً انقلابياً.

أتذكر أني أغرمت بالولد "موفق" إبان مراهقتي، كان أنظف من "صبحي"، يُرجع خصلات شَعره الطويلة إلى الخلف ويثبتها بسائل لامع، يُكثر منه أحياناً وهذا يُحْسَب عليه، تفوح منه رائحة عطر رخيص، وهذا يُحْسَب له. أترك "وداد" بصحبته وأصعد إلى بيتنا من دون أن أتفقد جدّي، أتدارك الأمر بعد نصف ساعة فأهبط مجدداً والجاران العزيزان منهمكان للغاية، مجنونة هذه البنت، لا شيء يستحق أن أتلوّى وأموء حاشرةً جسدي بجسده وراء الدّرج بحجة الكشف على

ساعات الكهرباء المقطوعة كما فعلت "أمّ بطّات سمان ".. أتصور "وداد" تعيش مراهقتَها رغم تجاوزها الحد الفاصل بين المراهقة والعنوسة.

***

يا عيني على الفهم!

هناك مستويات من الوعي تتفاوت عند القراءة والتلقي، فـللوحة التي أراها زرقاء يظنها أحدهم خضراء، ليس من قبيل الإصابة بمرض عمى الألوان. إنه اختلاف في تلقّي الحواس، مسألة ذائقة، أمر مشروع يدل على التنوع والتعددية، لكثرة ما أخلط الأوراق أشعر مراراً بحاجة إلى الشرح والتفصيل. هبطت تلك المقدمة عن اختلاف الأذواق والقراءات إلى رأسي وأنا أمسك بأوراقي والقلم في ندوة "آفاق الثقافة" في مركز الحسين الثقافي . يبدو أن تغطيتي الناجحة لأمسية سميح القاسم دفعت مدير التحرير للتهور إلى حد إرسالي لتغطية ندوة "محمد عابد الجابري" القادم من المغرب العربي ليروّج لفكر المشرق، وقد نقل لي "أمرك سيدي" عن حُسْن نية، كلمات "سحلية" الغاضبة من أن هذه الصحيفة باتت تمسخر المهمّين أمثاله، وتلمّع التافهين أمثالي . لم أعلّق، ربما لأني كنت على عجلة من أمري، أو لشك في أعماقي أن رئيس التحرير لا يقصد مسخرتي أو إعلاء شأني، ولكنه لا يعرف أهمية مفكر مثل "الجابري" .

اكتظت القاعة بالحضور، على مستوى فيلسوف وما فوق، إلا أنا و"حسن"، مجرد متطفّلين على العالم المجيد، ولأني سأقع في تضليل الكلمات فقد قررت أن أعمل كجهاز تسجيل أمين من دون زيادة أو نقصان، لن أبدي وجهة نظر أو تحليل ما، أليس هذا ما يفعله الصحفيون عادة؟ والله إننا مخلوقات عاقلة لا تتدخل بأكثر من مقتضيات مهنتها، ثم لا أريد أن أكون هدفاً مكشوفاً وسهلاً لغيرة "سحلية".

دفعني تفاوت الفهم وتناقضه وغرائبيته للتأمل بما حولي من عقول، يقولون إن هناك عقلاً جمعياً، يملي على ا لعامة توجهاً بعينه، ولم أرَ إلا جُزراً معزولة، عقولاً مفردة تنطّ في ملكوت الله مثل جندب فَرَس النبي.

يدعو "الجابري" إلى مناقشة الغرب في حوار جديد، حيث لا أهمية لشرح معطيات حضارتنا العريقة، ولكن الأولوية لتبيان واقع الفكر الذي يصدر عن الغرب والذي يسيّد فيه ثقافته ويراها

تعلو عن باقي البشر، ويعتقد فيلسوفنا أن الوصول إلى هذه الحقيقة س يصدم الغرب في ذاته وادعاءاته الإنسانية النبيلة، وقد يدفعه إلى إعادة فرز أوراقه مكتشفاً أن تقدمه قام على أسس خاطئة ومغلوطة! لماذا؟!

من يستطيع أن يناقش فكراً كهذا؟ بيني وبينكم هناك أمر مهم غاب عن فيلسوفنا.. هل تراه يعتقد ببراءة تامة أن الغرب يجهل هذه الخاصية اللا أخلاقية في ثقافته! ألا يحقق الغرب قوته وانتصاراته من هذا الواقع؟ ألن يدافع عن تفوقه ولو بدمائنا؟ مجرد أسئلة عابثة لا معنى لها لأني رحت أسجل ما قال "الجابري" بدقة متناهية، لم أناقشه كما يفعل الآخرون كي لا يتهمني أحد بالعنصرية ومعاداة الدول المتقدمة حسداً وغيرة.

وقف رجل متحمس بين المستمعين معترضاً.. ها قد بدأ الحوار..

– كيف ترتضي أن تناقش الغرب من داخل بنيته الفكرية، لا بد إنك تنتمي إليهم..

يا سلام!

ماذا فهم هذا المستمع؟ يبدو أنه لم يستمع إلا لذاته.

يا سلام أيضاً على ذلك المتحذلق الذي اقترح حلاً لمجمل التردي العربي، وطريقة فريدة لمواجهة الغرب، وذلك بالعودة إلى التصوف..

مدد.. مدد..

أقول ل"حسن" غاضبة:

– عاجبك؟!

يهز كتفيه مستهيناً:

– وأنا شو دخلني! والله يرضى عليك لا تساوي حالك فاهمة وعندك موقف خاص.

لا موقف لي، هناك أزمة لغة، ما يُفهم ليس ما يقال، وما يُقال لا يُفهم، أزمة عقل، عبارات ومفاهيم ومصطلحات تقود إلى دهاليز وأنفاق بعيدة عن الدروب، هناك أناس فاهمة و أناس نايمة، آذان تسمع وآذان بها صمم، فوضى داخل أدمغة بشر ية تميد بالرؤوس في ندوة وقورة، يمطّون الكلام والمعاني مطّاً، يخضعون كل القضايا لعبث سمج ينقلب جَدّاً، لن يتورعوا عن تمديد الأحبال الصوتية ل راغب علامة على مشرحة البحث الفلسفي، يتفرجون، "يلغوصون" بها

بأصابعهم، ولا من يبحث ولا من يمتلك مشرطاً أو دواءً.. أيضاً يغيب البنج.. آآخ. آآآخ ،
المشكلة أن "حسن" حذرني من الادعاء أني مهتمة أو فاهمة أو صاحبة موقف، حتى "حسن" لا
استعداد لديه لسماع وجهة نظري المتواضعة. تحمل صحف الصباح صورة "الجابري" ومستمعيه
الكرام، ومقالي الفهيم الواعي التسجيلي الخالي من التحليل يحتل نصف صفحة من الصحيفة.
على مسمع من "سحلية" الذي صار لون وجهه أسود، قال رئيس التحرير:
- أنت تتقدمين... برافو "نارة".
رئيس التحرير يغالي.. فالتقدم الوحيد الذي أحرزه أنني أستطيع تسجيل محاضرة مهمة، وأتمكن
بكل شجاعة من إلقاء أوراق الحوار في سلة القمامة، وأصرف نظري عن البقع التي توزعت على
وجنتَي "سحلية" الحليقتين، تبقع وجهه بغيرة بنفسجية مكشوفة، برافو "نارة".
هناك حراك مدمر حولي لا أعي تفاصيله، الغيرة المهنية تتمشى في ممرات الصحيفة مثل عنكبوت
سامّ بأرجل مشعّرة ورأس مدبب، أقفز برشاقة فوق الأذرع الممتدة ما بين مكتبي ومكتب
"سحلية" ومكتب رئيس التحرير، يطور "سحلية" طاقاته الكامنة، أتذكر منظر السحالي التي كان
"صبحي" يقطع رؤسها أو أذنابها تحت درج العمارة فتفاجئنا بالانطلاق مقطّعة الأوصال في كل
الاتجاهات، وكيف كنا نصرخ ونتقافز مثل حبّات "الوشار" إذا مر الذيل أو الرأس بمحاذاتنا،
يحلو لي أن أضحك حول تفاصيل مؤامرات "سحلية" وأنا أرويها لـ"حسن"، فيقول لي:
- أخاف عليك.. هذه غابة.. لا تتصرفي مثل قطة غشيمة في غابة أُسود وتضحكي، افتحي
عينيك.. لا تتهاوني..
يبالغ "حسن" كعادته في رعايته الأبوية، وأنا على يقين أن مناعتي قوية في مواجهة سمّ العناكب
والأفاعي وأنياب الليوث المخفية والبارزة. لا أخشى شيئاً، لأني ببساطة، لا أريد شيئاً، لا أحلم
بالمغانم، كل ما أسعى إليه النجاح، والأمر مختلف جداً عن طموحات "سحلية". لسنا في
منافسة، وإذا حدثت فإني أحرص أن تكون شريفة ..كتفي بالعمل الذي أدرك أن هنات كثيرة
تعتريه، وأترك رأس "سحلية" المدبر يجتاز دربه إلى حجرة رئيس التحرير ويدفعه للصراخ عالياً:
- من أرسل "نارة" الحمارة إلى المؤتمر؟!
يقذف رئيس التحرير بغضبه في وجوه الآخرين وهو يهذر كماكينة آيلة للعطب:

- وإن تكن هذه الهبلة غطت ندوة الجابري بدقة! أساساً أنتم أنفسكم بالكاد تفهمون الجابري، وإن تكن سجلت قصائد سميح القاسم بلا أخطاء! أصلاً ما فيها هذه القصائد من إعجاز! أي طالب ابتدائي يستطيع أن يكتبها، وإن تكن فعلت كل هذه المعجزات، ألا ترون هبلها وارتباكها واضطراب بوصلة الفهم والتحليل لديها؟

ينقلب رئيس التحرير (الذي وظّفني) عليّ بسهولة، صائحاً:

- هذا ليس خبراً محلياً، ليس حفلة خيرية تقيمها جمعية وادي العتمات، ليس عرضاً للأزياء الشعبية، ولا أمسية شعرية لعائشة الرازم، ولا افتتاح معرض لفنانة سَلْطية، يا ناس يا عالم خافوا ربكم، هذا مؤتمر القمة وترسلون "نارة عدنان" لتغطيته!! خلص! أمحلت!!

الممتع أني لم أسمع هذا الموال المهين بأذني بتاتاً، فهاتفي الخلوي مغلق بأمر ضابط الأمن على باب القاعة، ومصادَر مؤقتاً في حوزة أحد جنود الحرس الملكي، بالتحديد أحد أنفار لواء حمزة بن عبد المطلب (سيد الشهداء)، عرفت صفته وموقعه من الملصق الصغير الذي ثبّته على ظهر الخلوي، وأعطاني نصفه ليثبت حقي بهذا الجهاز بانقضاء المؤتمر . بصراحة يمتعني أن رئيس التحرير فقدَ أثري تماماً، ولن يتمكن من إجراء تبديل آخر بي لو أراد، فالوقت تأخر وبدأ المؤتمر، احتشدت النسوة في حديقة قصر الثقافة، أغلبهن اتخذن مواقعهن في الصالة الداخلية، أنا مررت بالإجراءات الأمنية التي صادرت جهازي الخلوي فأراحتني من نقيق رئيس التحرير . الإجراءات التي تزعج بعضهم تريحني، تسعدني، تحررني من متابعة أرباب العمل ولو لساعات معدودة . لا يعرف الناس نعمة إجراءات الأمن إلا إذا كانوا مثلي ملاحَقين ب إجراءات الوظيفة. كل هذه ترهات مرت بخاطري. على الأرجح أن رئيس التحرير لن يسأل مطلقاً عمّن ذهب لتغطية المؤتمر، وأن الأمر لديه سيان أكانت "نارة" البسيطة (ال..)، أم الصحفي الأشهر في تاريخ الصحافة العربية "محمد حسنين هيكل". باختصار إنه مؤتمر للمرأة، ومن يهتم بما يدور في هذه المؤتمرات؟! أنا أهتم، دخلت ببنطالي الجينز وسط حشد من النساء الجميلات الأنيقات، معظمهن قَصصن شعورهن مدرّجةً تكاد تلامس الكتف ولكنها تنحسر عنه، هذه موضة عام 2002، ما أزال أترك شعري على موضة 1999 مسترسلاً، أحياناً أربطه وقد أقصّه قصّة الأسد كما موضة 1980، سأحقق راحة كبيرة لو قصصته قصة الصبيان، " آلا جرسون"، المكياج العام هادئ

ووقور، ما عدا قلة اختلط عليهن الأمر بين حفل عشاء ساهر ومؤتمر قمة يُفتتح صباحاً . تتناثر الفتنة في الطرقات كما اختلاط أريج عطور فرنسية، الخطوات جادة على شيء من ا لارتباك الخفي، عادت التنانير القصيرة للظهور إلى جنب جلابيب المحجبات التي تشحطُ قَصْرَ الثقافة المندّى برطوبة الصباح، ومكياج ثقيل مؤطر بالغطاء الشرعي للرأس . هناك فتيات يَبد ين كالصبيان ببنطلونات ضيقة مكحتة وأثداء متواضعة وخلفيات ممسوحة، وهناك جميلات فارهات كسيارات الشبح، إناث لا يصلحن لمثل هذا المكان، أتوقع أن منظرهن على مسبح المدينة الرياضية سيكون مذهلاً، أغلبية الحاضرات يرتدين التاييرات الكحلية والرمادية التي تعتمد البنطلون، ويتزيَّنَ بمناديل حريرية ملونة حول الرقبة، يَبد ين عمليات، مسرعات، جادات، أشعر بالخوف.

عندما شُغلتْ معظم مقاعد المسرح الرئيسي كان بإمكاني التلفُّت حولي ومراقبة نظرات السيدات اللواتي يبتسمن لدى مرورهن بوجه يعرفنه، على الأغلب ينسين اسم صاحبته، ينقذهن ضيق الوقت من مجاملات التقديم والتعريف المتبادل، وفتيات التنظيم يرتدين زياً قرميد يًأنيقاً، الياقة مطرزة بقطبة تذكّرني بأثواب العجائز في مخيم الوحدات، في الوسط تطريز آخر على زنار، لا أجد في ذاكرتي شبيهاً له إلا في الصور، كأنه الزنار الكلاسيكي لنساء اليابان، هل استعانوا بمصممة يابانية؟ ما عيب المصممات المحليات؟ من قال إن المصممة يابانية؟ هذا توهمي، انظروا أية تفاهة أتمتع بها! النساء يعقدن قمة للمرأة العربية ليطالبن بمزيد من الحقوق والحريات والمؤسسية المدنية والدور الإيجابي، يطالبن بمكان تحت الشمس، وأنا أفكر بالأزياء والمكياج وزنّار فتاة الاستقبال وأتساءل: "إيش لَمّ الفلسطيني عاليابانى؟"، لو قرر رئيس التحرير الخلاص مني فإن هذا منطقيٌّ، حقّه، لعله يقوم بعمل جيد ولو مرة في تاريخه المهني.

بدأ المؤتمر، لم أسمع السلام الملكي، ولكن تمت قراءة القرآن بصوت الشيخ "هليّل"، هل هو وزير أم مقرئ؟ التبس عليّ الأمر، إنها ورطة حقيقية، لا أعرف مقامات الناس ولا مناصبهم، ناهيك عن المسمّيات التي يتم التعرف بها على الرتب وحجم الكراسي وتلك التي تسبق الأسماء لتفخّمها وتضخّمها وتنفخ في روحها، مثل "عطوفة" و"معالي" و"دولة". هذا مأزق لا يجوز لصحفي أن يقع فيه، ولكني أثق بتصويبات زميلي "كعب الكباية" في هذا المقام، مؤتمر القمة

الثاني للنساء العربيات، لا أعرف معظم الجالسين والجالسات، إذا كنت لا أستطيع أن أتذكر رتبة المقرئ ومكانة وما إذا كان وزيراً أو معلمَ كُتّاب، كيف سأعرف أسماء السيدات الأُوَل؟
أين السلام الملكي؟ ماذا حدث؟
تتطوع شابة جالسة إلى جواري بالتفسير، بروتوكولياً، لا يمكن أن يتم عزف أربعة وعشرين سلاماً وطنياً بحضور السيدات الأُوَل، هززت رأسي كمن فهم، ولكني كنت في الحقيقة مصابة بدهشة كبيرة وحنق أكبر، لماذا يجب "بروتوكولياً" أن تعزف كل هذه الموسيقات؟ وإلا لا شيء؟ الأصل، أن الحاضرات زوجات الرؤساء والملوك، أمهات أطفالهن، لا الرؤساء والملوك أنفسهم، و نحن دولة سخية صرفت دم قلبها على الاستضافة والتنظيم، من حقنا أن نسمع سلامنا الوطني، أحبّ أن أسمعه، يذكّرني بصباحاتي المدرسية، ويبعث الرعشة في أوصالي، يقنعني بحب الوطن، هاتوا لي السلام الوطني.. أنا جاهلة بالبروتوكول وأحاول استعمال منطقي الخاص الذي لم يسمع به أحد.. ولن يسمع. مقدمة المؤتمر بارعة في مهمتها، يساعدني تمهّلها كي أسجل كلماتها من دون ارتباك، ويمنحني وقتاً لأ كتب مقتطفات من الخطابات التي تُتلى . ألقت الملكة الشابة الرشيقة بوصفها المضيفة ورئيسة المؤتمر كلمة الافتتاح، زادها بنطالها الأسود رشاقة ولا شك غ اظَ السمينات، أفسحت الكلمات بعدها لـ"سوزان مبارك " وتعاقبت البقية، غفلت عن منصة السيدات الأُوَل، وط ارت عيوني إلى الصالة، أرقب وجوه الحاضرات اللواتي يتابعن المشهد باهتمام، تهامُس رقيق ومغرض بين بعض النسوة وغفوة أخريات، وقسيس "ذَكَر" يتقلد صليباً ذهبياً كبيراً على صدره يجلس إلى جوار المفتي "الذكر" بعمامته البيضاء متقنة اللف، يتهامسان بين الفينة والأخرى، لا أسمع ما يقولان، للأسف لا أجيد قراءة الشفاه عن بعد، ولكوني مشتتة تماماً، فإن الخطابات تصلني مكسّرة من المنصة الرئيسية، هناك مجزرة تُرتكب بحقّ اللغة العربية، ولكن لنكن واقعيين، إنهن مجرد زوجات طيبات ساقتهن الأقدار لمثل هذا الدور المملّ، لسنا في مجمع اللغة العربية لنملي شروطنا حول الإلقاء والصرف والنحو والبلاغة، وعلينا أن نقبل تشابه السيدات الأُوَل بكل نساء الأرض من حيث الإمكانيات والطاقة، يسعدني هذا الأمر، إنه دلالة صريحة على التماهي مع العامة، بشارة خير تستحق زغرودة من اللواتي يُجِدْنَ إطلاقها ورجرجتها بين اللسان والبلعوم، ولكن الموقف أكثر وقاراً ولا يسمح لهذه الفجاجة (أقصد الزغاريد)

بكشف الطاقات الشعبية الكامنة. أحملق في الشاشة الضخمة المنصوبة أعلى الحائط، تلك التي تقرّب البعيد وتحوّل حوض السباحة محيطاً يمكن فيه أن نمثل فيلم "الفك المفترس". على الشاشة يلتمع خاتم ماسي بديع في خنصر "سوزان مبارك "، وعقد مدهش من لؤلوة واحدة في جيد "أندريه لحود" المتغضّن كأن عمليات التجميل في لبنان الفاتن تفوتها . هناك لؤلوة أيضاً في كل أذن من أذنيها، تتحلى "بهية الحريري" بمجوهرات تقليدية (قطعاً تمتلك أضعاف ثمن ما تزين به وقارها) اللهم لا حسد، لكنها وللحق تتحدث بعربية سليمة . ملكتنا أكثر بساطة في زينتها، تشبه طالبات الجامعة . "لالا مريم" تتحدث عن عدد البرلمانيات في المغرب بكل فخر . لا نقل إنجازاً عنهم، فقد حظينا في الأردن باثنتين، إحداهما عُينت تعييناً، والثانية! أُنتُخبت، ثم غادرت البرلمان بغير رجعة. يسترعي انتباهي التنسيق الأنيق لباقة زهور صفراء عملاقة تزين وسط المنصة، أحب الورد الجوري الأحمر، لا بأس بالزنبق الأبيض، أما الأصفر فأمره غريب، ولو أحببته على جسد السيارة، أتذكّر بائعة زهور في عمّان الراقية تفهم في الزهور، والطيور، والعطور، والماركات، و"البتي فور"، و"الملفيه بالكريما"، و"البراوني بالشوكولاته"، والأصول، والبرتوكول، شرحت لي أن الزهور الصفراء ترمز إلى الصداقة، مع أني تصورت دائماً أنها رمز الغيرة والحسد، أبعد الله نيران الغيرة ورياح الحسد عن هذا الجمع الطيب.

"عمرو موسى " جالس بين جمع النساء ا لأُوَل، الرجل الوحيد، الديك الفصيح، قلبي عليه من هذه الورطة الناعمة، عالق في بيت العنكبوت الواهن، صعد إلى المنصة لإلقاء كلمة ممثلاً للجامعة العربية، من الطبيعي أن يمثّل رجلٌ جامعتَنا القومية التي لا تجمع ولا ما يحزنون، عندما انتصبت قامته الفارعة دارت أغنية "شعبان عبد الرحيم " في سمعي، "أنا بَكْرَه اسرائيل وبَحِبّ عمرو موسى".. أحب هذا الشعبولاً وهو يطلق كلماته من حنجرة مخرشة، ويحب عمرو موسى بهذا الوله الوقح ويكره اسرائيل بهذه الفجاجة الجميلة.. الله.. الله أحب "شعبولاّ" ولا يعنيني إن دمر ما شيد عبد الوهاب في مملكة الغناء والموسيقى، وإن أطاح بمملكة الخيال التي بناها عبد الحليم آه وراء آه. أسمع كلماته تجتث مصارين أحشائي وتتلوى في الفضاء، وأنا كمان "بَكْرَه اسرائيل وبَحِبّ عمرو موسى، بَحِبّ عمرو موسى وكلامه الموزون.. إيييييه.. إيييه.. الموزون.. الموزون".

للحق، قال الرجل كلاماً موزوناً، لا أعرف كيف أتصرف بمثل هذه الكلمات الثمينة، كيف أختصرها وكل حرف جوهرة! أكتب وراءه كببغاء، يقول "عمرو موسى" إن الحضارة قطار سريع علينا الركوب فيه.

تنقطع الكتابة، في الممر الأمني أسفل المنصة الرئيسية، وبمحاذاة ألفَي امرأة ونفر قليل من الرجال، في قلب مسرح قصر الثقافة رأيت القطار السريع يمر، تلاحق ت شبابيكه وعجزتُ عن عدّها، حدقت جموع النسوة بالمرور الخ اطف وتدافعن للحاق به، فلنكسرت كعوب عالية، ومادت قاماتهن إلى اليسار أو اليمين، مطّت أخريات تنانيرهن القصيرة منعاً لظهور لباساتهن الداخلية وهن يشعلقن أقدامهن في بوابات القطار الكثيرة، داست المحجبات على جلابيبهن فوقعن راميات زميلاتهن الكاسيات والعاريات اللاحقات بهن على حد سواء، انطرحن أرضاً وتراكمن فوق بعضهن بعضاً مثل شرائح "اللازانيا" الشهية، عندما دلقت فوقهن كريما البشاميل علت الآهات والنداءات والصرخات والاحتجاجات، وواصل القطار رحلته بأكبر سرعة.

الله يجازيك يا "عمرو موسى".. لم يكن هناك قطار ولا ما يحزنون، مجرد ترهات عنّت على بالي بسبب كلامه الموزون، الصالة هادئة كما يتوجب، وافتتاح المؤتمر قد تم وانقضى بحمد الله ورعايته، عليّ أن أبحث عن زميلة صحفية أشاركها ما خطّت وأقتطف ثمار جهدها وتيقظها أثناء طيراني الاسطوري (هذا عرف صحفي، أحتاجك اليوم وتحتاجني غداً، ليس في الأمر سوء كما قد تتخيلون، مجرد تبادل منافع وتقدير ظروف، حالة إنسانية وليس ضعفاً مهنياً كما تقدّرون) .. أحتاج لزميل يقدّر ظرف خيالاتي التي ركبت قطار التقدم السريع، زميل طيب يمدّني بوقائع الجلسة والكلمات الرسمية، وإلا فـإن رئيس التحرير شانقي اليوم إذا ما عدتُ خالية الوفاض، تنقطع حيرتي وبحثي عن الزملاء بصوت يعلن فخوراً قوياً قراراً لمجلس الوزراء يقضي بتعديل قانون الجنسية والأحوال المدنية، ويمنح المرأة حقوق الرجل نفسها في هذا الشأن، أشعر بالحاجة الملحّة إلى الضحك والسخرية القارصة.

***

أشرقت شمس عام 2003. لا يمكن لهذه المهنة أن تبقيك على الحياد، ترمي ك مغتصَباً مرغَماً إلى خندق ما ، حتى لو تغابيت كما أفعل أنا، أو تذاكيت كما يفعل زميلنا الفهلوي "سحلية" مغازلاً الحكومة يوماً والنقابات المهنية يوماً، عين على أميركا، وعين على البطولات الممكنة تحت شعار "لا للتطبيع"، ذكاء خاسر ومكشوف ورخيص، ولكني محاصَرة بفوز هذا النوع من البشر على حساب النوع الذي أمثّله، الصنف الأهبل، الذي لا يعرف من أين تؤكَل الكتف، مكتفياً من الغنيمة بالإياب "الحيط الحيط واللهم الستر"..

في غمرة انشغالي المهني هناك أمرٌ ما يحدث، تعلن زوجة عمي حملها ، معجزة ربانية! لست مندهشة، "فتحية" في الخامسة والأربعين فحسب، ما المانع؟ قد تكون تعليمات جارتنا حول طرق الاستلقاء والنكاح واعتناق حديد السرير أثمرت أخيراً، لعلها كانت منشغلة بكل فنون الإنجاب، ما المانع؟

تحاول "أم صبحي " تفادي لقائي على الدرج، ولكن المكان الضيق يوقفنا معاً في منتصف الدرب، أسألها عن غياب "وداد" منذ مدة، وتتمتم مسرعة إلى الأعلى أن ابنتها المصون ما شاء الله تعمل نادلة في مطعم فاخر في العقبة، "فتحية" و"أم صبحي " تُكثران التهامس والوشوشة ! عمي مضطرب.. لا أهتمّ كأني لست في هذا البيت .. ولكل امرئ ما يشغله. ما أزال منشغلة بحكايتي مع "حسن"، أعتقد أنه فرصتي الثمينة كي أكبر وأفهم ما يدور حولي، قلت له بانبهار:

- هل يحب الإنسان نفسه؟ لا يمكن تصوُّر ما يفعله البشر بأنفسهم وببعضهم بعضاً، الإنسان يكره نفسه، يؤذيها، يحطّمها وهو يدّعي بأنه يحيطها بالحماية

- صايره حكيمة، فيلسوفة. كبرتِ.

كبرنا معاً، أحبّ الشيبات بطرف الغرّة..

- كبرت لحالك.. فشرت.

تعاركنا بالوسادات الطرية التي تحمل آثار شَعر الرأس وبقع الدمع الليلية، وانقلب عراكنا الضاحك إلى عناق حميم.

علّمني "حسن" قبول الناس بعيوبهم، لأرض ى بعيوبي على أقل تقدير، وصار من الممكن أن تفيدني خاصية رصد الأخطاء في فهم الطبيعة المزدوجة للناس، حيث نحن لا ملائكة ولا

شياطين.

على ما تقدم من نضجي وعبقريتي وتفوقي واحترافي تأملت أن أحظى بفرصة مهنية أكبر، وبدا أن قمة "شرم الشيخ " أفضل فرصة قد أنالها، بالطبع ستليها قمة "العقبة"، أو كما هو اسمها الرسمي "قمة البحر الأحمر"، هناك معلمة تاريخ خبيثة تركت في ذاكرتي اسماً مضحكاً للثغر المجاور لثغر الأردن الباسم، أيام كانت تسمى إيلات "أم الرشراش"، لكن هذا لا يخصّني، أردت فقط أن أشارك في تغطية أخبار القمة المرجوّة، احتدمت المنافسة في صحيفتنا الغرّاء، من الذي سيحظى بفرصة تغطية أخبار مؤتمر " شرم الشيخ "!، رغم كوني أكاد أُصاب بالجنون لمجرد تخيل أني سأرى "شارون" بعيني، إلا أني كنت على استعداد للمجازفة . كان بإمكاني أن أغامر باجتياز الحاجز النفسي الذي كسره السادات بعد لعبة خطّ بارليف، فأطرد طيفَ أبي اللزج الملحاح الذي راح إلى فلسطين ولم يرجع، يا سلام!! تغيبُ كل هذه السنين، ثم تأتي لتنغص عليّ طموحاتي المهنية المشروعة!

ظننت أن اسمي سيكون أول الأسماء المقترحة، كوني بُعثت سابقاً إلى تغطية مناسبات مهمة، خاب ظنّي باختيار الرفيق "سحلية"، هذا اختيار لئيم، وليس ذكياً بالمرة، ماذا سيكون لون "سحلية" هناك؟ حيث البحر أزرق والرمل أصفر والبشر ما بين أسود إلى حنطي إلى أحمر (زرّ البندورة)، كيف يمكن لـ"سحلية" أن يثبت على حال؟ سيفضحنا ويكشف وجهنا، ولكنهم فضّلوه عليّ، رغم استعدادي للامتثال لشروط الصحفي الجيد المطلوبة، أن أكون بإخلاص ماءً قراحاً، لا لون ولا طعم ولا رائحة، لعلّي لم أصل إلى الحدّ المطلوب من انعدام اللون وغياب الرائحة، لعل شراري يشرقط في عيني وكلماتي الحمقاء تخرج من دون استدعاء، لعلهم اكتشفوا خبثَ أفكاري حولهم وحول هذا العالم المحيط، أغضبني استثنا ؤهم لمواهبي الإعلامية، وبدأت عيناي تتحركان في رأسي مثل رادار يرصد ما من شأنه تشويه الإنجاز، انتقاماً لنفسي، بحثت عمّا يسلّيني ويعزّيني عن عدم تكليفي بمهمة تغطية خبر مثل هذا، وسخرت من دروس النضج الإنساني التي أسمعتها لـ"حسن" حول قبول الناس والتعاطف مع الاختلاف.

كُلفت بإعداد تقرير أرشيفي صبيحة انعقاد المؤتمر في شرم الشيخ، أما تقريري فكان حول ذكرى رحيل الشريف حسين الثانية والسبعين، يااااه، منذ اثنين وسبعين عاماً رُحِّلَ الرجل إلى المنفى،

لعله غالى في رفض الوطن القومي لليهود! شعرت يوم ذكراه أنه ما يزال في المنفى، خاصة أن الملوك والرؤساء جرأوا على الاجتماع في غيابه مستغلّين موته. خلع زملاؤنا الصحفيون أحذيتهم كأنهم يهمّون بدخول المسجد النبوي في يثرب امتثالاً لإجراءات أمنية وما شابه، لن يرغمني أحد على الانحناء وخلع حذائي، أحبّ أن أخلعه لأتحسس حرارة الأشياء، وربما لاستخدامه مصفعة إذا لزم الأمر، غضبي صار واضحاً، و هؤلاء الزملاء الصحفيون الذين عوّلنا عليهم، وأُرسلوا إلى "شرم الشيخ " لا يقومون بواجبهم كما يجب، فمعظم الصور القادمة من هناك التقطها مصوّرو وكالات الأنباء الأجنبية.

تعمدت أن أعلّق على هذا الأمر بالقول إنهم "يلبطون" في الشواطئ الراقية بدلاً من إرسال الأخبار إلى الصحيفة، لم يعرْ أحد كلماتي أيّ انتباه، ربما حُسبت على خانة التشفّي الحاسد، ضخّت الأجهزة المتطورة رصيداً ضخماً من الصور للمؤتمر التاريخي، بالمناسبة كل المؤتمرات تاريخية، كانت محطة فضائية لبنانية تلفظ اسم "شرم الشيخ" بطريقة معيبة، أما أنا فقد مضيت أقرأ الصور بعين شريرة.

في صورة لعناق الرؤسا ء، انثنى "مبارك" في حضن "بوش"، قدّرت في الماضي أن "مبارك" أطول قامة! بدا قصيراً لحيماً وهو ينحشر مثل قط وديع في طرف جاكيتة "بوش"، الأجسام تشي بمآكل الطفولة، حيث لا يمكن مقارنة فعل "الكشري" بسندويشات "الهمبر غر"، ولا عصارة الفول بالحليب البقري الغني، كما لا يمكن مقارنة لعبة "الاستغمّاية" اللطيفة الوادعة ب"البيسبول" العنيفة. يمكن أن تحزر من تركيب الجسد ما مرّ به من تاريخ المطبخ والملعب.

صورة أخرى ل"بشبوشة" الطيّب يقود عربة الجولف (كأنها العالم)، ويركب بصحبته الأمير "عبد الله بن عبد العزيز" (يا حسرتي عليه)، سيصير ملكاً وقد مضى قطار العمر يا ولدي، تماماً مثل الأمير الإنجليزي الذي تقربطُ أمه بأسنانها وأظافرها بحكم ما كان إمبراطورية لا تغيب الشمس عنها، حالفة بقذالها ألاّ تمنحه فرصة الجلوس على العرش إلا شيخاً في أرذل العمر، لكن بالطبع لن ينسى طويل العمر ولي العهد العربي أنه ركب ولعب في عربة الجولف بقيادة "بوش"، هذا إنجاز يُحْسَب له . في الصورة نفسها يصاحبهما الضاحك الرايق اللذيذ "مثل السفن أب"، "حسني مبارك"، إنها عربة قيادة العالم العربي بجدارة.

الممالك الصغيرة الوادعة الفتية في عربة تالية، وصورة أخرى ل شباب ا لأردن ممثلين بملكهم الشاب، "عبد الله الثاني"، يرافقه في العربة نفسها زعيم مملكة الحياة السعيدة الخرافية التي سُمِّيت في الماضي "دلمون" الخلود الأبدي، البحرين، ممثلة بملكها "حمد بن عيسى آل خليفة " الجديد جداً جداً على حدّ تعبير دريد لحام في مسرحيته "ضيعة تشرين".

صورة ثالثة للحنان الأبوي الذي يبديه "بشبوش" تجاه أعضاء وفده، إذ يجفف عرق أحدهم بمنديله، يا حرام، إنهم لا يحتملون طبيعتنا القاسية وشمسنا الجريئة التي غنىّ عنها عبد الحليم فرحاً، "الضحكة البريئة والشمس الجريئة والموجه الشقية عَ بحور اسكندرية". كان يجدر بشمسنا التواضع للضيوف الحساسين المرهفين، للبشرات الوردية ، للرقاب الحمر . صورة لرئيس الوزارء الطري الطازج، " محمود عباس "، "أبو مازن ". يبدو كالأيتام على مائدة اللئام . لا تنخدعوا، في الواقع هو الأقدر على مثل هذه الوليمة الخاسرة، هل قلت الخاسرة؟ عفواً، أقصد الشهية، حيث يجلس آخرون في المقاعد الخلفية، يراقبون الأكّيلَه . ملامح "كولن باول " تحمل آثار التعايش الإنساني النبيل بين الزنوجة والعرْق الأبيض، كما تتمتع "كوندوليزا رايز" بهذه الخاصية العرْقية، كأن زمن الاضطهاد العرقي صار في تاريخ الذاكرة الأم يركية، بعيداً، بعيداً بحيث من العيب أن نتذكره . ها هما الخلاسيان الخارجان من كوخ العم توم، يخططان للدولة الأعظم المسمّاة "الولايات المتحدة ا لأميركية "، وتمثل بنت "رايز" الجانبَ المضيء في المساواة الجنسية أيضاً، تصوروا مستشار الرئيس الأم يركي لشؤون الأمن القومي امرأة!.. هل يستشيرها حقاً؟ سيقول أصحاب الشوارب الغليظة والعقول الثخينة عندنا: اخسْ عَ هيك رجال، فاتهم الفلاح..

تتحفنا شاشة التلفاز ببث مباشر من الموقع، بحيث يبدو البحر من ورائهم أزرق صافياً شفافاً. ولا أعداء من أمامهم. تُلقى كلمات القادة مترجَمة حسب الحاجة إلى اللغات: العربية، الإنجليزية، والعبرية، تماماً مثلما وردت اللغات الثلاث في افتتاح إذاعة فلسطين إبان الانتداب البريطاني، الكلمات لا لون لها، ولا طعم، ماء في بلاد تموت عطشاً، إ نها كلمات.. السلا ااااام، وعلى موسيقى "حسب الله" و"سلام مربع للجدعان" يغادر القادة موقع الاحتفال كأنهم موكب أطفال حلوين، يلوّحون بأيديهم لشعوبهم المحبة للسلا ااام، لا يُذكّروننا أبداً بأطفال مدرسة "بحر البقر" ووجوههم المغبرة الملونة بوهج الشمس وأنوفهم التي يخطّها المخاط والدم . أخيراً عرفت الفرحةَ

منطقةُ الشرق الأوسط، قبرتُ اليوم ذكرى والدي إلى الأبد، والكل مبسوط وضاحك، وفي شريط أحمر يتحرك متعجلاً أسفل شاشة محطة "الجزيرة" التلفزيونية خبر مفاده: "القوات الإسرائيلية تدخل جنين".

لا تأخذوا الترهات السائلة من عقلي أو فمي على محمل الجدّ، إنها مجرد غضب دفين وشخصي أعبّر فيه عن احتجاجي لاستثنائي اللئيم من تغطية هذا الحدث التاريخي المهم، كأني مبعَدة من صرَوغ العالم، كأني بلا بصمة، الشعب أيضاً غاضب لتجاهله في هذا الاحتفال، خاصةً وأن معظمنا يشتهي زيارة "شرم الشيخ"، ويتابع بحماسة الإعلانات عن الشواطئ الذهبية والشاليهات الفاخرة والرقص الشرقي، نحلم برؤية العاريات الكاسيات على شاطئ البحر الأحمر، تداعب إعلاناتُ الأسعار السياحية المخفضة خيالَنا كل يوم، ثم هكذا ببساطة نُمنَع من الحضور!

للشعب طرق عبقرية في لفت الانتباه وتحويل الأنظار والاحتجاج على استثنائه من المهرجان البديع الذي بُثّت الحلقة الثانية منه من العقبة، لهذا السبب دون سواه وقع الحادث المروّع في قلب عمّان عند سقف السيل، حيث مكاني المفضّل للتأمل في حكاية المدينة. رن هاتف المكتب بإلحاح، أخبرتني زميلة تعمل في مركز الحسين الثقافي عن كارثة حدثت في الطريق المنحدرة من جبل عمّان إلى رأس العين، وقفتُ متحمسة معلنة أن هذا الخبر لي، ضحك مدير التحرير مستهيناً:

- مندوب الحوادث انطلق قبلك، لا داعي للذهاب.

لكن الحادث مروّع.. يحتاج إلى أكثر من صحفي لتغطيته.

لن أترك أحداً يملي عليّ ماذا أفعل، حرموني مرافقةَ القادة والتفرج على مسرحيتهم، ولن يمنعني أحد من مشاهدة مسرحية الشعب. حرصت على أخذ كاميرتي الصغيرة لأن قسم التصوير رفض تزويدي بكاميرا للمحترفين، ورحت أدوس بقوة على دوّاسة البنزين لحوقاً بالأنفاق والجسور التي تقطع أوصال عمّان وتعيد ربطها من جديد، و التي قادتني من شارع الصحافة أو الجامعة سابقاً (شارع الملكة رانيا حالياً)، إلى الشارع الذي يشق جبل عمّان وصولاً إلى نفق يدلف قاع المدينة، صوت المغني الشعبي "حكيم" يصدر مخشخشاً من الإذاعة "نار نار.. نار.. أنا قلبي قايد نار".

عليّ أن أصل.. ولم أصل.. علقتُ عند الدوار الثالث، فلم أتمكن من رصد الحادث، لكني رأيت

آثار الرعب في الوجوه، لماذا هذا الحزن؟ كل ما تلمسه النار يرتقي ولا يمحى بتاتاً، لماذا العبوس الأردني على كل صغيرة وكبيرة؟ هذه الوجوه المكفهرة المرعوبة العامرة بالأسى أفسدت فرحةَ المجتمعين المحتفلين في العقبة وعكّرت دما ءهم، طبعاً ليس كل المجتمعين، فما أظن "بشبوشَةَ" مستعداً للتخلّي عن ابتهاجه من أجل حفنة مواطنين أردنيين احترقوا على نزلة راس العين... حتى لو كان السبب المباشر انفلات صهريج المحروقات من نوع "أَم كي" أميركي الصنع، واندلا ع النفط العربي فوق الإسفلت وانفجار عدد من السيارات وتفحم البشر أشلاءً وأجساداً متكاملة، فسائق الصهريج "منا وفينا"، وقد أتيحت له الفرصة كاملة للقفز من الصهريج المتهوّر، وفعل ما استطاع بصراخه البليغ "... بنزين.. بنزين.. بنزين.. ". كتب محرر الحوادث الخبر ودعّمه بالصور، لم يتسنّ لي أن أضيف حرفاً إلى مقاله، صار للعمّانيين حكاية محلية ي ستفتحون بها نهار الغدّ، وصار للشعب مؤتمره الذي أنجزه على نار حامية، أما أنا فقد رحت أحملق في شاشة التلفزيون المفتوحة في صالة التحرير بغيظ كأن بعوضة تقف على أرنبة أنفي، هناك نبأ عن مظاهرات في "إسرائيل" تحتجّ على اجتماعات "شرم الشيخ" والعقبة.. يا سلام! من يحتجّ على ماذا!

ألمح في مظاهرة الاحتجاج ا لإسرائيلية لافتة مرفوعة ومخطوطة باللغة ا لإنجليزية، تمر اللافتة مروراً سريعاً على الشاشة معلنة شعاراً عبقرياً " الاردن هو فلسطين "، ويا سلام دق أجراسك، ويا تراتيل دندني، وساعدينا لرتهايل كالمجاذيب وأتباع الطرق الصوفية.

أما الذين نفقوا في رأس العين حرقاً فقد أزعجوني.. خرّبوا عليّ فرحتي بقمة البحر الأحمر. حيث الماء أزرق صافٍ وراء الرؤساء.. نزعوا فرحتي بالدولة اليهودية الحيوية، والدويلة الفلسطينية منزوعة السلاح، أربكوا مسيرتي على خر يطة الطريق.. وقته! أهذا وقت مثل هذه المغامرات الحمقاء! للشعوب طرائق وبدائل لا تُطاق، خبرة في تنغيص الأفراح، وإنبات الشوك على أعواد الورد.

عندما جلست في حجرتي.. تربعت.. فخداي تحتي, وقدماي متقاطعتان، ارتخى كـفخاي...

آآآآآآآه هـ هـ هـ هـ آآهـ..

شكراً للذين تفحمت أجسادهم في سيارات التويوتا والشكودا واللادا العتيقة.. من مكاني البعيد المنقطع عنهم، شممت رائحة شواء لحومهم الحية مثل زنخ الشوّاية العمومية المنصوبة في شارع سياحي تُقلب دجاجات ميتة على أسياخها، شكراً.. لعشرة أو (قيل) أحد عشر أو اثني عشر

(تضاربت الأرقام) .. لقد منحوني سبباً مباشراً وجيهاً.. خنجراً صريحاً، أطعن فيه قلبي ويبرر صراخي عالياً... آآي ههه.. أجوح , أتنحنح... آآ هـ.. "حسن"... لا تلمسني.. لا تواسيني.. أريد أن أبكي حتى تتنهنه الروح ويغتسل القلب تماماً.. ابكِ معي.. سنفيق بعدها.. ابكِ بشدة.. ابكِ.. آهآهـ..آآآآهـ..ابكِ.. عيب أن تجفّ الدموع.

احتضنني "حسن" بهدوء، غمرني تماماً، تمايل الوجع بين ذراعيه وتقدمت السكينة، مسحة رحمانية ترطّب القلوب.. شكراً لهؤلاء الذين ماتوا حرقاً، فمكّنوني من البكاء الفاجع المفجع... فأنا لم أبكِ عندما ضاع أبي، ولا عندما اجتاح الجيش ا لإسرائيلي جنين.. ولم أبكِ وبغداد تتهاوى كصرح كرتوني وتسقط كعصفور أصابه قنّاص .. لم أبكِ وهم يحرمونني من "شرم الشيخ " والعقبة... سأبكي على ضحايا رأس العين... على شهداء رأس العين.. سأنسب كلاً منهم إلى خريطة دمي، وسأدّعي أن الرجال كانوا عشاقي، والنساء كنّ أمهاتي، والأطفال أبناء رحمي، سأبكي حتى تتورم عيناي ويتشقق حلقي، وأهدّ في نوم كأنه الموت.

***

صحوت على زقزقة عصفور قادمة من منور البيت، حتى العصافير تفتقر إلى الذوق أحياناً، فتستبدل برحابة البساتين وأعالي الأشجار رطوبةَ خرابات البيوت التي تبخر عفناً . تبعت الزقزقة الصريحة شقشقةٌ مشوشة خافتة وطريفة، يبدو أن السيدة عصفورة أقامت عشّها في المنور الذي تلتفّ حوله حمّامات البيوت، فركت عيني وقلت: "ما أحلى الصباح، ما تزال العصافير تزقزق في أحلك الظروف"، صفق "حسن" هاتفاً:

- برافو، تتقدمين..
- لا تستخدم تعبيرات رئيس التحرير.
- قصدت أنك مثل العصافير، تزقزق في أحلك الظروف.
- صباحك عسل.

مررت بجدّي مقرفصاً في الصالة مسنداً ظهره إلى الحائط ومدلّياً رأسه على صدره، ربما بفعل الثقل الذي يخلفه الفراغ في رأس ممحيّ الذاكرة، ما الذي جاء به من القبو هذا الصباح؟ لم أسأل ولم ألْقِ تحية الصباح، ما جدوى ودّ لا يصل؟

دفع عمي باب البيت منكوش الرأس بصورة لافتة، من أين عاد؟ وما الذي أخرجه في هذا الوقت المبكر من صباح الجمعة؟ لا أظنه مصاباً بحمّى أداء الصلاة حاضرة، افتعلت تثاؤباًطويلاً كي لا يتوقع مني عبارات مجاملة على الريق، ولعل شَعري المنكوش وقميص النوم البيج القديم وشبشبي المقطوع أثارت حنقه، فصاح:

- كل هذا نوم!

- نوم.. ما المانع، ماذا يفعل الصحو؟

- الْمَرَهولدت وجنابِك نايمة.. يعني ما صحيتِ على حسّها وطلْعتنا عالمستشفى؟ أمرك غريب!

رأسي أثقل من رأس جدّي، ولساني ناشف، لم يحنقه مظهري إذاً، "مره ولدت"! من وكيف ومتى وأين؟ أسئلة مؤجلة ريثما أغسل وجهي. وجه عمي أصفر، وعيناه متسع تان رعباً أو غيظاً. لم أدقق كثيراً، ولكن خُيّل إليّ أنه يرتجف، لماذا يتحول الرجل إلى مسخرة إذا ما صار أباً؟ دفعت باب الحمّام بقدمي ولم أعاود إغلاقه، وقفت أمام المغسلة حيث المرآة متسخة ومقشرة وتعكس غباشاً طفيفاً، نسيت أن أقول : "مبروك"، أكثرت من المعجون على فرشاتي، وفركت أسناني بروِيّة، راقب عمي ما لاح من جسدي عبر الباب المفتوح لثوانٍ، ثم سمعت باب البيت يصفق وراءه بقوة، يبدو أنه انصرف غاضباً من ردة فعلي الباهتة. تصرفت بلؤم غريب لم أقصده. هكذا حدث. فيما بعد سأمنح الفرصة لإبراز فرحي وبهجتي لمجيء وليّ العهد الذي مضى عمر طويل بانتظاره، لم أسأله "ولد أم بنت"! بالغت في برودي، واكتشفت أني من دون وعي لئيمة أرشح حقداً وخسّة. وخزات الضمير الحي هذه لم تدفع بي للّحاق بالعمّ الفرحان بخَلَفِهِ الصالح لتقبيله ومجاملته، قدّرت أنه عائد إلى "فتحية" في "مستشفى الأشرفية "، قطعاً ستلد هناك، ولكني لم أتبعه، بل قدت سيارتي باتجاه المكتب، يمكنني أن أكون أكثر ودّاً عند انتصاف النهار. يا سلام، الآن صارت لي أوقات للمزاج الطيب، وأخرى للمزاج العكر، ولكني أدافع عن براءتي، فمزاجي كان رائقاً عندما أيقظني عصفور المنور، وتعكر عندما صرخ عمّي "كل هذا نوم!".

قلبت الصحف، كالعادة يعلق شحار حبر الطباعة في أطراف ا لأصابع، إنهم يسممون الشعب بطريقة بطيئة وطويلة الأمد باستعمال أصباغ تمتصها أناملنا ويشربها الدم يوماً بعد يوم، أما الأخبار فحدّث ولا حرج، ليس هناك أية ظواهر خارقة ترحّب بابن العمّ الجديد، لا فيضانات

ولا زلازل، لم يخسف القمر ولم تكسف الشمس، كل شيء عادي، خبر عن انتخابات رابطة الكتّاب اليوم، هذه مهمتي، خبر عن حفنة قتلى في غزة (كنا نسمّيهم شهداء)، وصورة لجندي أميركي يقبض على "حرامي" عراقي في بغداد! معقول حرامي عراقي في بغداد! أين تتوقّعونه إذاً؟ طبعاً في بغداد، وليس في واشنطن، المهم أين يمكن القبض على الحرامي الأم يركي! هذه هي أخبار الدنيا، كل شيء معقول، كل ش يء عادي، لماذا إذاً يتوقع عمّي أن أقفز مثل المجانين وأُبدي جزعي وأتراكض معه في ردهات المستشفى العتيقة وسط حشود المغضوب عليهم من المرضى؟ من الأفضل تناسي أمر الطفل الجديد . أيمّم صوب مجمع النقابات حيث تجري انتخابات الهيئة ا لإدارية لرابطة الكتاب، يمكنني أن أتصرف بخلق كبنات ا لأصول، فأُعرّج على الجواهرجي لأشتري بنصف راتبي ذهبة صغيرة نُقشت عليها آية الكرسي علّها تقي الصغير الذي انضمّ إلى الحياة مؤخراً شرَّ الحسد، وتحفظه من كل هذا البلاء المحيط، أم يجب أن أنتظر ريثما أتأكد من جنس المولود. قد أُحضر خرزة زرقاء كفاًّ لدرء الحسد ومعاقبة العيون الشريرة.

أشار أحدهم نحوي عند بوابة مجمع النقابات حيث تجري انتخابات رابطة الكتاب ينصحني بعدم الدخول، سبقتْ سيارتي فهمي، صرتُ في منتصف المدخل ورأيت الموقف يفيض بكل صنوف السيارات، لم أتمكن من الرجوع إلى الخلف، إذ تبعتني سيارة أخرى، هؤلاء الكتّاب وكل من فيهم على حال من الع وز لا يُحسد عليه، لماذا لا يتفقون ويَحضرون بالباص منعاً للازدحام، لم يخف عليّ وجود سيارات فارهة، هناك مرسيدس شبح، وهناك "نمر" حكومية، وهناك "فوكس" الصفراء التي استطاعت ببراعة أن تندسّ في فسحة مثلثة بين سيارتين، الوجوه مألوفة لفرط ما نراه ا على صفحات الصحف وشاشة التلفاز، هؤلاء ضمير الشعب، هكذا يروِّج للمبدعين، الشعراء والقصاصين وكتّاب الخواطر، هناك أشخاص يفجعني وجودهم ، إذ لم أدرك أنهم من الكتّاب قبل رؤية طلعتهم البهية في هذه المناسبة المهمة ، كثير من التقبيل عند الباب الداخلي، وشيء من التهذيب يميز المرشحين في هذه الانتخابات . لا أثر للمناسف التي تلازم الانتخابات النيابية، مجرد مفكرين وأدباء يجتمعون اليوم ليمارسوا حقهم بديمقراطية، تنشقّ الأرض عن "عبد الباري"، صار ورائي تماماً، قال لي: "يا أحلى صباح".

صباح الزفت، و دمتم سيدي، أهرب إلى زاوية أخرى من الممرات المتقاطعة، أسمع كاتباً محدثاً

يجامل أديباً مخضرماً، ثم لسبب غامض أرى كذباً يتكدّس في النظرات و يورق في العيون فجلاً وبطيخاً أقرع، كذب كثير يتساقط من جيوب المجتمعين ملْحاً، ألم يقولوا الكذب ملح الرجال! هناك أيضاً كثير من الذكاء الذي يخوّل معظمهم لإدراك أن التحايا والمجاملات التي تصل حدّ التقديس والتمجيد ما هي إلا تأدية واجب، أو ربما محاولات عقيمة لجمع الأصوات الانتخابية، أشعر بالغربة إلى الحدّ الذي قد يدفعني للوقوف حيث "عبد الباري" يقف، لكن قميصه الأصفر صفرة ممعوسة ومبقّعة يقرفني. إذا استمر أمام ناظري خمس دقائق زيادة سيدفعني لإرجاع سيارتي إلى الميكانيكي المغازل كي يصبغها بشحار أسود انتقاماً منه حسب . أتذكّر الهدف المهني من وجودي في هذا التجمع، فأقوم بإجراء مقابلات سريعة مقتضبة معتمدة على سؤال واحد : "ماذا تريدون من الهيئة الإدارية الجديدة؟". أقسم أن الإجابات فخّ عالمي مريع، كل امر ئ يريد أمراً مختلفاً على هواه، هناك صحفي آخر ينافسني بصورة مزعجة، يتنقل بين المجتمعين بسرعة مثل كرة بيضاء زلقة على طاولة تنس، يعرفهم واحداً واحداً ويخاطبهم بأسمائهم وهذا امتياز له، ثم إنه يقلّدني فيسأل سؤالاً واحداً فقط، الملعون، فكْرته أظرف من فكرتي، يسأل:

- ماذا يحدث لو أن كارثة وقعت هذه اللحظة في هذا المكان، ومات كل أدباء الأردن؟

يا للمجنون، الله يكسْره ولا يكسْبه، يفكّر بحرمان الأمة من ضميرها، يفكّر بهدم القلعة الأخيرة والحصن المنيع، أتلصص على ا لإجابات بفضول، هؤلاء المبدع ون "دمهم خفيف" ، بعضهم يجيب عن سؤال الزميل الذكي بعبارة "أحسن"، بعض هم يراهن على ظهور من هم أفضل، بعضهم يخاف على ضياع قضية فلسطين، غريب! لم أسمع يوماً عن وق‌وف عسكر الأدباء على الحدود، سمعت عن مطبّعين وخلافه، لا أريد أن أكون شريرة إلى هذا الحدّ، هناك من نحبّهم، وهناك من يستحقون الكارثة التي ابتدعها خيالي المشاغب، يمكنني فرزهم بإحضار باص إلى موقف السيارات، بالطبع لا بدّ من التذاكر لركوب ه‍، سأتولى بنفسي أمر دفتر التذاكر، وأناد ي على أسماء من أرشّحهم لصعود الباص، وأيّ باص! هذا الذي سأتمنى من كل قلبي أن يغادر مجمع النقابات إلى الأبد سالكاً أقصر الطرق إلى أعلى نقطة في جبال عجلون، وعند المنحدر تفلت مكابحه، هكذا، بفعل التمنيّ، ليتدحرج متدهوراً حتى أخفض بقعة عند البحر الميت، سأنادي الشقراء السمراء، شَعرها أصفر وبشرتها "غورانية" وقصائدها سريرية : "اركبي فليس فيما

تخطّين من كلمات مبهمة أيّ ة جدوى"، سأنادي الجليل الذي خطّ الشيبُ فوديه وما يزال يتدرب في دفتر الخطّ للصف الأول، سأنادي المبدع الذي يتحفنا بروايات جميلة للغاية ، لكنه لا يستنظف إلقاء السلام على خلق الله، سأنادي الصبية المذعورة التي تتخيل كل مجاملة أو ابتسامة عابرة دعوة إلى ليلة حمراء، سأنادي صاحب المسطرة الذي يقيس المبدعين بالفرجار والمليمترات، طبعاً أنا لي مقاييسي، وقد لا تعجب أحداً ، فليدعونني إلى باصهم، ولكني سأنادي وأنادي ولو بحّ صوتي، لن أنسى "عبد الباري".. وداعاً أيها المتحذلق الذرب، يمكن ل"عبد الباري" أن يقود الباص بنفسه كتكريم أخير للشخصية المعرفية الخطيرة التي يمثلها، فيضغط بكل عزمه وقوة عضلات قدميه على دوّاسة البنزين، ليطير الباص مع الأمنيات إلى حتفه الأخير حيث ينعجن حديداً ولحماً ونفايات كلام فوق صخور مسنّنة صلبة تجود بها بطاح ووديان عجلون . استغرقني تنظيم الباص وقائمة المدعوين ممن لا أرغب في وج ود ه م على هذه البسيطة مطوّلاً حتى فاتتني العملية الانتخابية، واضطررت للاستفسار من منافسي الصحفي الذكي عن النتائج . دونت ما انتهت إليه إرادتهم الحرة المستنيرة من اختيارات وغادرت المجمّع على عجل، لم أبالِ بهذا التردّ ي المهني الذي استفحل، يبدو أني تعودت الطيران عند المهام الجسام، واستعارة التقارير من الزملاء من دون أدنى تأنيب للضمير أو شعور بالخجل . يا رب سامحني على أمنيات الباص المتدهور وترفّق برعبهم وهو يتطايرون من الشبابيك المفتوحة، وساعدني على كتابة الخبر من دون أخطاء، وأبعد عني عينيّ سكرتير التحرير، و امنحني بركة وجود "كعب الكباية" في المكتب هذا العصر، ليرمم ما في مقالي من مثالب، فأتمكن من العودة مبكراً إلى "الأشرفية". لا بد أن تشريف ابن عمي الصغير إلى العا لم هذا الصباح أفسد عليّ مجمل هنائي، هزني بصورة ما، أبرز ما تخفيه نفسي من ضغائن، ربما حولني إلى مشروع ساحرة شريرة تركز جلّ آمالها لإهلاك الآخرين، ولكني قاومت ببسالة، لتتقدم نفسي الطيبة الوادعة وتسيطر على الموقف، جبتُ جبل الحسين بحثاً عن محل لبيع الذهب لشراء هدية للمولود، اليوم جمعة والبشر في إجازة، إلا المطاعم والكتاب القادمين جحافلَ لتغيير العا لم، كل مشاريع البشر يمكنها أن تأخد إجازة إلا رياضة البطون، قدتُ حتى الشميساني وابتعت كيلو بقلاوة مصففة قطعاً صغيرةً في صحن من الورق المقوى من مطعم "جبري" الرابض عند الزاوية، وعدت إلى المنزل.

تبقع حمرة الشمس كتف "الأشرفية" فوق الشرفات والأسطح المائلة وقطع الغسيل المنشورة التي يعبث بها هواء ثقيل، وأنا أصعد بصفرائي الخنفساء الهبوطَ الحادَّ للشارع، تتنحنح السيارة مرات وتصدر حشرجة كأنها تموت، لكنها تواصل الصعود، لم أعُدّ الأشجار والمستطيلات البيضاء والصفراء في رصيف المشاة الضيق الذي بالكاد يتّسع لماشٍ فرد، هناك هوايات كثيرة دثرتها قيادتي السيارة، أحاول الهروب من الحزن الشفيف الذي يوقعه في فؤادي الغروب الأنيق فوق بيوت صغيرة فقيرة، ليتني ألتق ي عند الباب ب"موفق" مثلاً، فنثرثر في حديث فارغ حول رحلته إلى الخليج، فقط لأنسى حزني، وكي لا أثقل قلب "حسن" بالكئيبة التي تصعد الدرج جرّاً هذا المساء، وجدتُ جدّي متكئاً على خشب الباب يكاد يميد، ازددت حزناً، نظر نحوي كأنه أذكى الرجال، لعلّه كذلك، ما دام نظيف الدماغ والقلب، أمسكت برفق ذراعه، وفاض التعاطف في نبرات صوتي:

- بتحبّ تطلع معي فوق والاّ تدخل أوضتك؟

عنيت القبو الذي يقطنه، كم أنا فاسدة بموافقتي على أن يقطن العجوز قبواً معتماً، ولكنه لا يحتجّ، يبدو هانئاً ويواصل تأمل حركة الشارع وكأنه لم يسمعني، يعبر بعض المارة يلتفتون نحونا بفضول، أقدّر أنه لا يحب مغادرة موقعه تلك اللحظة فأتركه عند الباب، فيما بعد سأعود له بقليل من بقلاوة "جبري"، أصعد الدرج متثاقلة، ويدهشني أن عمّي في الصالة الصغيرة يجلس في العتمة، ألمح طيفه فوق الأريكة ولا أسمع أنفاسه التي عادة ما تكون عالية، ماذا لو أنه يتمدد ميتاً! ضغطت مفتاح الضوء، فقفز من الأريكة كأنه فوجئ، عيناه منتفختان، قلت:

- عدتَ! كيف خالَة "فتحية"؟

صمتَ وصمتُّ، انعدم الهواء في الصالة، بلغتُ ريقي هامسة:

- مبروك.. ولد ولاّ برت؟

ودّ متأخر وباهت، وضعت البقلاوة على الطاولة الواطئة، وأنا أسمع صوته خلفي:

- ولد.. "فتحية" والبيبي جوّه.

لا أبدي دهشتي من خروجها المبكر من المستشفى، عمّي يحسب التكاليف بدقة، ولن يسمح للمولود الجديد بتبديد جهد يومه ببساطة، الآن عليّ أن أدّعي أني أكثر حماسةً ومرحاً، عبق ريحٌ

فاسد في الهواء لحظةَ هتفت بطريقة مسرحية.. "ياي". تجلس في سريرها كأنها تنتظرني، تحتضن بطانية ناعمة ملفوفة بعناية حول كتلة ما، اندفعت نحوها.. "ياي"... شغلت شفتي بالتقبيل المتكرر، بالغت قليلاً، عشرات القبلات فوق وجنتيها وصمتها، إلى أن تمكّنت من الهمس مجدداً:

- مبروك..

صمتنا، وواصلت تأنيب مشاعري اللئيمة، قبل أن أميل نحوها بصورة منافقة وأنا أبتسم:

- أشوفه.

كشفت الغطاء عن كتلة اللحم الغافية والمحاطة بوداعة البراءة، مشروع إنسان طري أحمر مزْرَقّ يرقد بين ذراعيها، يزداد هواء الحجرة عفونة برائحة هذه الكتلة المدماة، ماج قلبي نفوراً وشفقة، ولكني همست بأثر ودّ خفي:

- يجنّن.. ما أحلاه... شبهك.. ياي.. يجنن..

هزت رأسها، بدت متعبة، همهمت كأنها تشكرني، انسحب الهواء من الحجرة تماماً، أكاد أختنق وقلبي مثقل، حسناً، لا يحقّ لي أن أقمع هنا شاعرة بالغيظ والغيرة، هل هي الغيرة حقاً ؟ عليّ أن أتقدم في زجر نفسي الأمّارة بالسوء، أفعل ذلك بقرار سريع، أنجح جزئياً:

- شو سميوه؟

تهمس متعبة كأنها في مسرحية "الأم":

- "شعبان".

- يجنن..

كل شيء يقود للجنون، من هؤلاء المعتوه ون؟ "شعبان بن رمضان"! هل انقطعت الأسماء عن وجه البسيطة؟

بدأت أستعيد طبيعتي، سألتها عن صحتها، والولادة، الأسئلة المعتادة في هذه الحالة، استفسرت عمّا إذا كانت ترغب بتناول شيء من الطعام، وأخبرتني أن "أم صبحي" (يكثّر خيرها) ستعد لها الشوربة وكبدة مشوية.

"أم صبحي"، يكثّر خيرها، قامت بمهام كثيرة خلال الأيام التي تلت الولادة، تابعتْ باهتمام صحةَ زوجة عمّي وأعفتني من افتعال الطيبة اللازمة، كما طبخت حلوى الكراويه وأعدّت صرر

الملبّس والشوك ولاته الملفوفة بالدانتيل الأزرق ليوم مباركة الجارات، قامت بواجباتي المفترضة بوصفي بنت البيت، شعرتُ بالحرج من الفدائية الطيبة "أم صبحي"، جاملتها وهي تصبّ الكراوية في الصحون وأنا أزيّنها بالزبيب والصنوبر:

- شو أخبار "وداد"؟ إن شاء الله مبسوطة بالعقبة؟

تنهدت بأسى:

- اللي ما إله حظّ لا يتعب ولا يشقى، خلصت من شغلها، طردوها من قيمة أسبوع، ورجعت، وهيها بلا شغل..

- يا حرام..

أبديت أسفي مستاءة من انزلاقي في مجاملات بلهاء ستفتح باب التنهد والتشكي والمواساة بيني وبين "أم صبحي"، ستعتقد أنها صاحبتي وتأخذ بالثرثرة، تركتها من دون تبرير وعدت إلى حجرتي، برندتي، تصلني قهقهات الزائرات مختلطة من صالون البيت الضيق كأنها جعار جِرَاء مسعورة بهجة وفرحاً، بينما صمتٌ كامل يأتي عبر الجدار الفاصل بيني وبين الجارة العجوز، نمت بين ذراعيّ "حسن" وتنهدت بعمق، مرر كفّه على شَعري، كلما توغلت أنامله في خصلات شعري أكثر، تساقطت الغيرة والقهر، لم نتحدث ولكنه راح ينقل راحته بين شَعري ووجنتي في سَفَر هادئ حنون، وأنصتنا معاً إلى انبعاث مفاجئ لهمهمة الجارة عبر الجدار، لم تضحك هذا اليوم ولم تغنِّ، هي أيضاً حزينة، أو مريضة! قلت ل ."حسن": "ذكّرني نودّي للختيارة صحن كراوية".

شدّ "حسن" خصلة من شعري بقسوة متعمدة، نظر في عيني، وقال:

- صاحبة واجب! لأ.. مش عاجبني صوتك.. هذا مش صوت "نارة".. مش عينيها.. مش "نارة".. ابتسامة للنبي.. أرجوك.. مشاني..

ابتسمت من قلبي على تعب، ساعدني "حسن" على تجاوز الأزمة، ناكدني بتحريضي على الزواج من أي رجل يتقدم لي، يا أهبل لم يتقدم أحد كأني مشطوبة من صحيفة النساء، اقترح عليّ إغواء أيّ رجل يعجبني فأتخلص من رفقة العمّ "رمضان" وولده "شعبان" الجديد، أمْرُ ارتباطي بزوج على سطح الأرض ليس وارداً، على الأقل في المنظور القريب، حتى لو تم خض عن الأمر

إنجابي لأبنائي الخاصّين، قلت ضاحكة:

- وين بلاقي شبهك! بدك أرضى بالهمّ مشان الخلفه، وبعدين ليش بدي أخلّف؟ للهمّ والنكد! وشو وراي أورثه لابن الكلب المنتظر؟ شقفة سيارة فولكس مكتكتة، ولسّه ما خلصت أقساطها، يعني، خلّي "شعبان" يشبع بالدنيا والبيت، ما في إشي ينحسد عليه، الله يعينه على هالعا لم.

تجاهلت أزمتي بحيث صرت أجتاز حجرتي وأسمع بكاء الرضيع "شعبان" ولا أكلّف خاطري المرور في حجرة زوجة العمّ، دائماً مستعجلة وكأن الريح تحتي، أعمال كثيرة تنتظرني في عرض البلاد وطولها.

تزعجني المهنئات يصعدن درج البيت مصطحبات طناجر الطبيخ أو صغاره ن الأوغاد، تزعجني كثرة الهدايا التي أحضرتها "وداد" في حقيبة سفر كبيرة، البلهاء تفضح هديتي المتواضعة بسخائها، لم تلائمها الغربة في" العقبة" ثغر ا لأردن الباسم، وجهها شاحب، وعيناها حزينتان استقرتا في قعر وجهها، جسدها منحنٍ وكأنها تلقّت طعنة للتوّ، لا أريد أن أصف معظم الزائرات بهذه الروح العدائية حتى لا أتحمّل أمام نفسي وزر الكراهية الجماعية التي لا مبرر لها، وبإمكاني أيضاً أن أروّض فجاجة روحي بشراء هدية للمولود، ابتعتُ آية الكرسي فيما بعد، ولكنها ضاعت وسط الكراويش المتعددة التي شُبكت بدبوس كبير على قماط المولود، أفهم أن يحتفل الحي الطيب بـ"فتحية" وفرحتها بعد عقم امتدّ أعواماً، ولكني لا أطيق احتشاد المهنئات في المساحة الضيقة وصوت حذاء "وداد" يطقطق فوق أدراج البيت من دون ميعاد نهاراً ومساءً لتطمئن على الوالدة والمولود، يحرجني اهتمامها البالغ مقارنةً ببرودي، لماذا يحاول الجميع إشعاري أني شريرة لا تُقيم وزناً لصلة الرحم في مجتمع طيب متكافل نموذجي!

أكرههم، أتمنى لوهلة لو أُلْحِق جيراني وأهلي بباص رابطة الكتّاب ، سأسمح لهم بالركوب المجاني تقديراً لأوضاعهم الاقتصادية، يمكن أن "يتشعلقوا" على سلّم الصعود أو يستقروا تحت المقاعد المهترئة إذا لم تتسع الساحة . غيرت رأيي، لا أريد مقاعد مهترئة، لتكن جلدية فاخرة، وليكن هناك تبريد يعمل بجدارة في سقف الباص، لنقل إن هذه طيبة مني تشبه طيبة من يسألون مقتاداً إلى الإعدام عن أمنيته الأخيرة.

***

يقول "أمرك سيدي":

- خير؟ بالك مشغول!

- أنا..! أبداً.. لا بالي مشغول ولا على بالي.

- مش شايفة "الأزعرينا" اللي عاملها صاحبنا؟

يقصد "سحلية" . هل خلصت من جيراني لألتفت إلى "سحلية"! ماذا يفعل هذه الأيام ؟ ربما ككل الأيام، يتقافز من مكتب إلى آخر، يدق مسامير علاقاته مع المهمّين والمؤثرين، يُلقي بقشور الموز في درب زملا ئه، لا جديد، لا مثير، حتى لو كان السيد "سحلية" يتعلم المشي ببراعة على الحبال أسوة بلاعبي "القلا قلا" و السياسيين القادرين على التوازن على برزخٍ بين الأحزاب والحكومة، بين القطّ وخنَّاقه، بين الشعب وحكّامه، بين الأبيض والأسود، و لإحقاق العدالة أقول إنه من المرعب أن نظن أن في الحياة لونَين حسب، تعدد الألوان يكسبها ثرا ءها وبهاءها، لهذا ربما أحب قزحَ، وأحب السياسيين، أراجوزات بوجوه بيضاء، وأنوف حمراء، وخدود مثل الورد.. لن أنسى الطراطير البهيجة على الرؤوس الراقصة الطر وبة، سياسيو آخر زمان، وأول زمان بالتأكيد، لا يمكن للسياسي أن يكون شيئاً آخر، ماذا يضيرني لو أن "سحلية" تحول إلى رجل مهتمّ بالسياسة؟ أو فدائياً ينبطح فجأة في طريق باص الرابطة لتدوسه العجلات وتسحنه عجينةً تنضج رغيفاً بفعل حرارة إسفلت الشارع. إ نقاذي من نفسي الشريرة وهي تتنام ى مثيرةً غضب "حسن" وخوفه عليّ مشكلة تم حلها على يد البرلمان.

أراقب لعبة الكراسي ، وأعتقد أن من حقّي الفوز بكرسي ولو كره "سحلية"، ربما لأني صحفية عبقرية موهوبة يتم اختياري لأصعب المهام، بالطبع لم أعرف من أين أبدأ حين تم اختياري ضمن فريق العمل الذي سيتابع الانتخابات البرلمانية .. بعد عامين من تجميد الحال نعود إلى ممارسة حقوقنا ونرفع أصواتنا، ندبّ الصوت الواحد، لعلي لا أعرف من أين أبدأ، ولكني حتماً معنية بتقديم إنجاز متفوق ع لى زملائي، أولاً، على تحييد الواقع المحيط بنا، "الأردن أولاً"، ولا يجوز خلط المنسف الأردني بالمسقوف العراقي، ولا حتى بالمسخّن الفلسطيني، قطعاً لا يجب فتح دفاتر الهمبرجر الأميركي، فليعتنِ كلٌّ بما خُلق له، وليكن الأردن أولاً.

أترك الأميركان مشغولين بـ"لحش" البيت العراقي، والسعوديين بغربلة المنهج الدراسي من الإرهاب وشعارات الاستقواء وحصر آليات الحياة بالدعاء والذكر، والمغاربة بدارسة أسباب تحوّل دراويش الشوارع الذين كانوا يستقطبون السوّاح إلى فدائيين تتصدر أعمالهم الانتحارية نشر ات الصباح..
أما الأردنيون فمشغولون بخياطة اليافطات البيضاء العريضة التي ترفرف في فضاء عمّان حاملةً الشعارات الثقيلة ومقاومة تبدل اتجاه الريح . في الانتخابات يفيض رزق الخياطين والخطاطين، ويكثر ذبح الخرفان ومَرْس الجميد الحجري ليصير **أداماً** شهياً يسكب فوق تلال الأرز الأميركي الذي لا يصلح لصنع منسف أصلي ولكن النساء الشاطرات يخلطن ببراعة قليلاً من أرزّ مصري وقليلاً من الأميركي ليصير منسفاً أردنياً. بأمر من رئاسة التحرير شغلت بالانتخابات النيابية، في عرض البلاد وطولها بدأت مظاهر الابتهاج، بدا الأردنيون سعداء وكأنه أول عرس نيابي، بعد تجميد عامين يحقّ للناس الابتهاج بعودة المناسف والكنافة بالجبنة اللذيذة التي تمطّ بين الصواني والأفواه، ويحق لي السعادة باستعادتي ثقةَ رئيس التحرير التي تُمنع وتُوهب وفق الظروف في مد وجزر متعاقبَين . تم وضع اسمي ضمن المجموعة التي ستلاحق أخبار الانتخابات، حذّرني مدير التحرير بصورة مبطنة من الفذلكة وخلط الحابل بالنابل، كما نصحني با لابتعاد عمّا يحرج المرشحين، وحذّرني من تداول الإشاعات وحياة المرشحين الشخصية، وشرح لي أهمية الخبر البارد الحيادي، الخبر الذي يقدم المعلومة المفيدة، فقط.
باختصار، دعاني مدير التحرير إلى التزام الحياد المهني، ولما لم أكن في مزاج تهكّمي، فإني حاولت تطبيق نظريته، فقط افتقدت "سحلية"، فالجوّ هادئ تماماً، ليست هناك أقاويل حولي، يبدو أن الفتى انصرف عني، خاصة وأنه حصل على دورة مهنية في أميركا، تناقل الأغلبية نبأ هذه الفرصة الذهبية بحسد وضيقة عين، ولم أكن منهم، فـأجواء الصحيفة تصبح حميمة في غيابه ، مما يجعل الأمر فرصة هناء ماسية لي وللآخرين، هكذا صار لدي ما يشغلني، نشطت في حركة دؤوبة، وكما يقول المثل الشعبي "من بيت اشقع لبيت ارقع"، من بيت مرشح إلى خيمة آخر، إذ أقام معظم المرشحين الخيام لاستقبال الناخبين.. لا تذكّرني الخيام بجرّ الربابة وليالي السهر، ولا علاقة لها بالبداوة، ولكنها عندما تُضرَب بهذه الفجاجة بين البيوت السكنية لا تحمل إلا احتمالاً وحيداً: المأتم. ولا أحب أن يتخذ العرس النيابي صورة المأتم، مجرد إبدائي هذا التعليق العابر محكياً

وليس مكتوباً استحقَّ نظرة تأنيب من مدير التحرير، تجاهلته، أشعر بالفرح في مهمّتي الحالية، ولا استعداد عندي لمصادرة فرحتي.

كتبت عن إقامة سيرك في مقر انتخابي، بداية ظنّ المدير أني أسخر، حاولت تأكيدَ صدق الواقعة، وصفتُ بإسهاب إقبال المواطنين بحثاً عن التسلية، هناك أراجوز حقيقي وساحر يلعب بالثلاث ورقات، هناك أيضاً مدرب يلعّب قرداً، وغناء بأصوات قبيحة ولكنها محتملة، ورقص فولكلوري يبتعد عن الخلاعة .. سيرك بكل معنى الكلمة . لم أكن ضدّ مثل هذه الدعاية الانتخابية، بل إني تعاطفت مع المرشح . إنه منذ البداية يعدُ الناخبين بالفرح والبسط، ما المشكلة؟ ! لم يوافقوا على إدراج الخبر بصورته التي صغتها، وتم جزره وتقليم أظافره وتجميد كلماته، النار ممنوعة منعاً باتاً بالقرب من البنزين، حذفوا أيضاً إشاراتي إلى أصناف الطعام المستخدمة في الحملات الترويجية لهذا المرشح أو ذاك، لم يجدوا مبرراً لمقارنتي بين مناسف اللحم ومناسف الدجاج وصواني الأوزي "شُغْل المطاعم"، وصواني الكفتة إعداد ربات البيوت، قال لي مدير التحرير:

- ديري بالك.. لسنا صحافة صفرا.. أنت بصراحة تسيئين للوحدة الوطنية وتلمزين وتغمزين إلى أصول المرشحين ومنابتهم عبر تحديد نوع الطعام.

لم أظن لثانيةٍ أن مناسف الدجاج لا تناسب إلا من كانوا من أصول فلسطينية، و أن اللحم للعشائر الأردنية، وأن الأوزي يؤشر على المنبت الشامي .. ظننت بذكائي أن نوع الطعام يؤشر على الحالة الاقتصادية والطبقة الاجتماعية فقط ، هل هناك شكّ في أن تحليلي أذكى من تحليل مدير التحرير؟! إنه أقرب إلى ربط العوامل ببعضها بعضاً، إذ تلعب الحالة الاقتصادية دور البطولة في هذا الفيلم الديمقراطي الاستعراضي الكبير، لكن مدير التحرير يرفض إعطائي فرصة إثبات وجهة نظري، كما رفض أن أتولى مهمة مراجعة حسابات محلات الحلويات وأرباحها لهذه الفترة، شطبوا تعليقي الماكر حول حركة السوق و إمكانيات الشعب المخبوءة "تحت البلاطة" والقادرة على إنعاش الحالة الاقتصادية من دون المرور بشروط البنك الدولي، لم يتركوا لي إلا الحديث في برامج المرشحين، وما أثقل ظلها : "الأردن أولاً"، "والعراق وفلسطين قضيتنا "، و"القضاء على البطالة"، و"فرصة لكل متعلم"، و"إلغاء رسوم الجامعات"، و"الحفاظ على سقف الأسعار ثابتاً"،

و"الانفتاح على العالم والعولمة "، ومناطحة الزمان، و "الإنسان أغلى ما نملك ". أشك أن دور البرلمانيين يتيح لهم معالجة كل هذه البؤر المتوترة، أعني أن صلاحياتهم لا تمكّنهم من صنع المعجزات، والزمن المتوقَّع لانتهاء صلاحيتهم قصير بحيث ستفوح رائحة عفنة عند انتهاء السنوات الأربع، ولن تتيح تركيبتهم المنتظَرة التحليقَ طويلاً على جناح الأحلام الورديةِ

أعرف أني متشائمة، هذا راجع لكوني أعود كل مساء لأرى بيتاً مزدحماً بمحبّي "شعبان" الغالي، وربما لأني أتفادى ملامة "حسن" وأغرق نفسي في العمل من دون أن أمنح عينيّ فرصة ذرف الدموع والتخفيف عن الروح، أعود للانشغال بالبرلمانيين، ألمس خلطاً خطيراً عند المرشحين بين صلاحيات البرلمان والحكومة والملك والاتفاقيات الدولية مع الجيران والأشقاء والأعداء، لهذا تكبر الشعارات وتنبت لها الأجنحة وتكتسي بالريش، وتتداخل انتماءات ا لأحزاب وتوزّعهم بين اليسار واليمين، ولم أفهم كيف ينحاز الحزبيون إلى العشائر ، وكيف تُشترى الذمم، وكيف يقاهر الرجال بعضهم بعضاً .. قهرني مدير التحرير وهو يلقى بمقالي التحليلي أمام ناظري في سلة المهملات، كأنه يستخفّ بي ويتعمد إهانتي، قال والشرر في عينيه:

- شو ست "نارة"؟ ! بدنا نرجع نعلمك ألف باء الصحافة؟ ! شو هالقصة اللي كتبتيها ؟ بدّك تفتحي علينا أبواب جهنم؟

علّمونا في الجامعة أن الخبر الصحفي ليس في كون الكلب عَضّ رجلاً، ولكن الخبر أن الرجل عَضّ كلباً، هكذا أفهم الخبر المهمّ المغاير، لماذا إذاً لا يرى مدير التحرير في خبري أي ة مغايرة! أليس أمر الراعي الذي قصّوا جدائله وقادوه إلى الانتخابات خبر يستحق أن نتوقف عنده!

دخلت خيمة المرشح الراعي من دون أن أراعي إخفاء نظرات الدهشة، لم أكن بحاجة إلى سيل من الأسئلة الذكية، كان لقاءً شعبياً محبباً، فرشتْ زوجته منديلها وتربّعت أمامي على أرض مغطّاة بالحصير، نثرت سبع ودعات بحْرية من كفّ سمينة وكبيرة، ما أبعد البحر عنا، من أين أتت بالودع؟!

قالت بثقة و نبرة متواضعة: يا بنتي لا تستغربي، حَكي الودع ما بنْزِل الأرض، وحياتك، وحياة لقمة هالزاد (أشارت إلى طبق أرز بحليب) والاّ يجعلني أنعمي وأتكرسح، شفت "منصور"، أبو فايز (زوجها) قاعد على كرسي عالي مذهّب، وحواليه الناس أُمم أُمم، بحبّوا على إيده وبصيحوا:

بالروح بالدم نفديك يا "منصور" .. شو بتقولي؟ هذا مش منام عادي، هاي رؤيا يا بنتي، أنا قلت له، هذا كرسي البرلمان، وشو لعاد؟ يعني البرلمان ما بصلح غير للطياز المربربة، و إحنا مالنا؟ شو ناقصنا؟!

قلت للمرشح "منصور":

– طيّب هالكرسي بدّه كفاءات، يعني قصدي تعليم، لا تزعل مني عمّو، بس الشهادات مطلوبة إذا غابت العشيرة، الموضوع بده...

قاطعني ضاحكاً:

– ما بدّه إشي يا صبية، بكفّيني حبّ الناس، أنا بس اللي فاهم جوعهم وعريهم، والاّ تفكري القاعدين بالفلل أفهم مني؟!

أبداً، فَشَرُوا اللي قاعدين بالفلل وحمَلة الشهادات العالية، و أبناء العشائر والحزبيين والمستقلين، والمثقفين والمعارضين والمصفّقين والمطبلين، وأصحاب الكرامات، كل هذه الأمة لا مكان لها حين يتقدم "منصور"، وراء الكواليس كان هناك بعض الضاحكين، يأكلون طعامه ويتحدثون عن رهان المقاهرة الذي قاد "منصور" إلى الانتخابات النيابية، ولا أخفي دهشتي من شعب يأكل ويطعن، كانوا في خيمته يأكلون "البحتة"، مزيج السكر والحليب والأرز المزين بالسمن البلدي، والذي فضّلته على المناسف والكنافة على سبيل تغيير الطعم ، يبتلعون ما صنعته يد زوجته الفلّاحة قارئة الودَع ويضحكون مؤكدين أن هذا الترشيح مسخرة، مقاهرة رجال لا أكثر ولا أقل، مع ذلك هناك فرصة ذهبية لنجاح الراعي الطيب، عادة ما يأكل الشعب الأرزَّ بحليب مع الملائكة، أليس مثل هذه الوليمة وعدٌ ملائكي جميل؟ عندما كتبت مقالي اختلط الحابل بالنابل رغماً عني، عرض مدير التحرير الغاضب المقالَ على رئيس التحرير، والذي بدوره سحب ثقته الغالية بقدراتي، مردداً مقولة ل."سحلية" الغائب في أميركا: "هذا هو حدّ قدرات نارة" .. أردف وكأنه يعطيني فرصتي الأخيرة:

– لا تنحشري فيما لا تفهمين، شو خَصْنا إذا كان له جدايل وإذا مَرَتُه فتّاحه، شو فرقت معنا أكلوا بحتة ولاّ كنافة!

عندما تجرأت وكتبت حول ظاهرة كَيّ بطاقات الانتخابات، تم استدعائي مجدداً إلى مكتبه

العامر، قطب جبينه قائلاً:

- "نارة"، ليش مش فاهمة عليّ؟ نحن لا نتناقل ا لإشاعات، عيب، هذا أمر يسيء لمصداقية الصحيفة.

قلت بحماسة:

- لم أكتب كلمة تشكّك بالمصداقية، كله حقائق، تصور..

لم أنتبه لكوني أتجاوز حدودي وأتبسّط بالكلام، واصلت:

- هيك عيني عينك غُرف مخصوص لكوي البطاقات، بحطُّوا ورق الفويل وبمرِّرُوا المكواي ة بتطير النجمة اللي دقْها مراقب التصويت.

نصحني:

- يا بنتي إذا بدّك تستمري معنا، بلاش حكي الجرايد الصفرا.. أقولّك، اختصّي بالمرشّحات من النساء فقط.

انتهت المقابلة وكأني سقطت في الانتخابات، تأتي مرارتي الداخلية من بيتنا الذي واصل الاحتفالَ مطوّلاً بالمولود الصغير، تأتي من القيود على طريقتي و أسلوبي في تغطية الانتخابات، تأتي من الغيظ كوني أُدْفَع للمهام البسيطة، ويرسَل سواي لتغطية محكمة العصر التي كانت قد بدأت تزاحم الانتخابات أهميةً إعلامية، على الأقل بالنسبة ل لأردنيين الذين تقطعت جلود أحذيتهم على درب مبنى المخابرات العامة، وأولئك الذين كانوا يستمتعون في زن ازيرهم بصحبة الصراصير ويطلقون عقيرتهم في الغناء: "يا ظلام السجن خيّم، إننا نهوى الظلاما".. ما أكذبهم! من يهوى الظلاما؟ لعلهم يداوون أنفسهم من الانهيار. انظروا كيف خرجت عن الموضوع! كنت أتحدث عن غيرتي من الزملاء المكلّفين بمتابعة قضية الفساد الأكبر في تاريخ المملكة، قضية البطيخي "رئيس المخابرات السابق" وتابعه "زنونة".. ما أطمعني، الدنيا نهيبة، أرغب في أن أكون في كل مكان، في تغطية انتخابات البرلمان و في محاكمة رئيس المخابرات الأسبق، الحقيقة أني لست في أيّ الأماكن.

تجاوزت خيبة رجائي بسرعة وبتّ أبحث عن سبق صحفي عبر المهمة المتواضعة التي أُوكلتْ لي، ستدفع "الكوتة" النسائية بستٍّ من الحريم إلى قبة البرلمان، ولشدة ما أرعبني السيد رئيس التحرير

من الاقتراب من المواضيع التي لا أفهم بها، فقد حاولت أن أفهم بموضوع المرأة، قرأت كتاباً حول "الجندر"، وأذهلني الحديث عن مجتمع ذكوري، هو أمر لم أناقش تأثيره في حياتي، لو لم أكن "نارة"، لو أبي "أحمد" أو "محمود"، هل يجرؤ عمي على إحضار أوراق التنازل عن البيت إلى عقر البيت؟ ولو لم أكن "نارة"، هل كنت أوقّع اسمي البهي فوقها طوعاً بلا إكراه! هكذا بطيب خاطر؟! هذه المنظمات قادرة على تحريض النساء عبر مقولات العدالة، يمكنها أن تخرب بيوتنا العامرة بالألفة والمحبة وتحرمنا نعمة الرضا. تناسيت كتاب "الجندر"، بحجم الرعب الذي يصيبني به صحن شوربة العدس، وقلت يا بنت اعقلي وانصرفي إلى عملك. فكرت بصنع قصة متابعة شيقة لسيرة واحدة من المرشحات لاحتلال منصب في مجلس النواب، أعني نائبة محتملة، استخدام تعبير "نائبة" لا علاقة لي به، ملعونة هذه اللغة القادرة على ا لإفصاح عن النوايا السيئة للثقافة الذكورية، عذراً، يبدو أني ما أزال متأثرة بكتاب "الجندر" سيئ الذكر، سأحاول أن أكون أقل تطرفاً، سأكتب قصة عنوانها "نجاح امرأة".

عليّ أن أختار واحدة من المرشحات التي تميل الترجيحات إلى إمكانية فوزها، لن أذهب إلى المحافظات والقرى حيث ما تزال المرأة ضلعاً قاصراً لا يسمح لها باعتلاء ذرى المجد، قدّرت أن فرص المرشحات العمّانيات أكبر، لا لكونهن يتقِنَّ الحديث ورسم الكحل في العيون، وتحديد الإطار الأنيق للشفاه الممتلئة، ولكن لكونهن يتمتعن بهذا الوهج الطبيعي الخاص بنسوة المدينة، حيث تبدو المرأة مقْنعة "تبيّض الوجه"، ليس مهماً أن يشعر المرء أنها شقيقته التي نسيها في سهول حوران أو مزارع جلعاد، أنا لا يضيرني أني بلا شقيقات، المهم أن أناقة العمّانية غير قابلة للنقد والتعليقات المهينة، قررت أن أبدأ مشوار اً يتيح لي مستقبلاً تأليف كتاب أعنونه ب"كفاح امرأة".

أحالني العنوان إلى بدايات كفاح السيدة "ديما"، اسم ألق ذو شفافية عالية يليق بملهمة شاعر عذري، ولكنه هنا مفتاح انتخابي، لماذا لم أفكر بترشيح شخصي الفقير ما دام اسمي أكثر إثارة! قد أحصد أصوات باعة الهريسة في عمّان الشرقية كوني حفيدة أحدهم، وقد أخسر عن جدارة لأن باعة "الدونت" وتجار "البا ستيري" سيعملون ضدي، بسملت وأنا أدعس على السجادة العجمية في الصالون الفاخر حيث أنيقات جميلات كُثُر واقفات جالسات، رائحات غاديات،

يشبهن "مانيكانات " فاترينة العرض ، لم أتمكن من معرفة "ديما " بينهن، إلى أن قالت لي "الفلبينية" بعربية ركيكة:

- ماما ديما ما في موجود.. راح شغل..

أي شغل؟ ! المساعدات ا لأنيقات اللواتي يتصرفن كفتيات ومرشدات الكشافة، يرحّبن بالجالسات، ويفسحن للرجال درباً للتسلل إلى قاعة داخلية، يشرفن على نظافة المفارش المكشكشة فوق الصواني الفضية، لكنهن لا يملكن إ جابة عن سؤالي، الفلبينيات يرتدين تنا نير قصيرة مغطاة بمراييل الدانتيل، ويضعن فوق رؤسهن طراطير لم أشاهدها إلا في السينما (وهذه غير "طراطير" الصحّاف الشهيرة) .. أيضاً لا يملكن جواباً، لكنهن يتمتعن بالأدب، فلا ينظرن شزراً لتواضع ملابسي . أصبحت على يقين أن الفلبينيات أفضل من السير يلانكيات في خدمة البيوت وأبهج منظراً، ولكن الست "ديما" تأخرت، وأنا "فرفطت" روحي، تناولت كأس عصير "الكيوي" الأخضر بتلذذ، وقلت وأنا أعيده مخاطبةً حاملة الصينية: وين شغل ماما؟ في إشي مهم لازم أنا بشوفها.. في مصاري مشان مام!!

أكذب مستخدمةً اللهجة الركيكة نفسها التي تستخدمها الفلبينية رشوةً لها وتقرباً منها، فترتبك الخادمة الأنيقة، ثم تهمس حذرة:

- صالون روميو.. ماما راح "صالون روميو".

طرت وفولكسي إلى "صالون روميو " في "عبدون"، كنت قد لمحت اليافطة مرات مقابل مطعم الحمص والفلافل ولم أفكر بتاتاً بالدخول، إذ تصورته صالوناً ذكورياً، هذه المرة وأنا أدفع باب الزجاج هاجمتني رائحة اللافندر الطيبة، عيني على رائحة شواء الشعر الحيّ التي تفوح من صالون سندريلا في "الأشرفية"، هبّت الرشيقة عند الاستعلامات لكمن شاهدت شبحاً، قالت:

- شو بتؤمر الآنسة؟!

أأمُرُ! معاذ الله، ادّعيت أني أكوّن فكرة عن المركز قبل أن أقرر ماذا سأفعل . سارت أمامي مترددة، كأن بساطة ما ارتديه فضحت انتفاء علاقتي بالمكان، أغضبني تصرف العاملة التي رجّحتُ أنها جاءت من موقعي الاجتماعي نفسه ، ولكنها تقمصت دورها سريعاً وأجادت تثبيت القناع فوق وجهها المجدور، فبدت صبحاء بيضاء . حملقتُ بالنسوة الجالسات تحت رحمة

"السشوار" وقد لففن رؤوسهن بورق القصدير الفضّي مستسلمات لجمع من الرجال المستأنثين الذين يرتدون قمصاناً لامعة ويعلّقون سجائرهم فوق الأذنين وهم يشدّون خصلات شعر النساء بـ"السشوار" الجبار، لم يغطِّ وشيشُ مجفف الشّعر على صوت الجنس الناعم و لم تكن "ديما" بينهن، واصلت سيري وراء جميلة الاستعلامات وهي تشرح لي مهام الصالون باقتضاب و إهمال مقصود، شرحها لا يعنيني على أية حال، وأخيراً في حجرة مستطيلة عثرت على ضالتي، السيدة "ديما" مرشحة البرلمان ممددة على كرسي، قدماها مرفوعتان في وجهي، وصبية فلبينية تقرفص لصيقة بها تكشط اللحم الزائد في أظافرها بهمّة، بينما فلبينية أخرى تدعك كعب قدميها بحجر يشبه مرجاناً بحرياً، هتفت:

- بدّي هذا، بدّي أساوي هيك.

غفرت جميلة الاستعلامات غبائي وجهلي بالمصطلحات، شارحة:

- مناكير وبدي كير! عشرين ديناراً..

هززت رأسي موافقة، عشرون دنياراً! الله لا يكسّبكم!

- تفضّلي ما عنا غير زبونة واحدة.

"نارة عدنان".. الزبونة الثانية في حجرة المناكير والبد ي كير، أتمدد مثل الست "ديما"، ما المانع؟ الشعب وممثّلوه معاً يحفّون كعاب أقدامهم، ليصير قفا رِجْل الست "ديما" وقفا قدمي أنعم من بشرة "شعبان بن رمضان"، وإذا ما صبغنا الأظافر التمعَ المناكير الأحمر على قمة الأنامل الحلوة.. حاولت الدردشة معها بتقدم متمهّل مدروس، لم أستلق هنا وأدفع عشرين ديناراً لأحظى بهذه المعاملة الجمالية الفريدة، أريد المعلومات، لهذا لم أفصح عن هويتي منذ البداية، تحدثنا عن فرص المرأة في الوصول إلى البرلمان، أكدت أن أحبابها كثر، وأن أملها لا ينقطع، حكت عن إيمانها بقدرة المرأة على ا لإقناع، ندت عنها صرخة حادة قطعت تدفق المعلومات، فالفلبينية الغشيمة سهت ونتشت رأس الأصبع الصغيرة في قدمها اليسرى:

- أووو.. شو ما بتفهمي؟!

ذكّرتني بنبرة رئيس التحرير، وواصلت احتجاجها:

- وين دوريس؟ ميت مرة قلت ما بحب حدا يعمل أدافري غير دوريس.

اعتذروا لغياب دوريس في "مانيلا" لإجازة قصيرة، تنهدت بغيظ قبل أن تنطلق في موال شكوى يبرز رقتها في قلب الحروف وتلطيفها، شكت حالها كأنما الخطيئة الفلبينية وحّدتنا ب وصفنا مواطنات مغلوبات على أمرهن وضعن أطرافهن في رعاية شعب غريب:

- لولا ما أنا متّرة، ما كنت رديت غير دوريس.. شو بدي أساوي؟ عندي مناسبة.

ظننت أن هناك حفلاً ما، ثم أدركت أنها تتحدث عن "مناسبة" الانتخابات، عند ها قررت أن أسالها عن رأيها بالقوانين الخاصة بالمرأة و إمكانية تعديلها لتصير ا لأنثى مواطناً كاملاً من دون انتقاص، وقفتْ وأظافرها مطلية ببريق متلألئ غاية في الجمال، ولوّحت لي مودّعة، ورحت أتقلب على الكرسي كأنه كرسي ا لإعدام الكهربائي، قلت للفلبينية المخلصة في تزيين أظافري وكشط الجلد الميت من كعاب قدمي:

- خلص.. ما بدّي.

- ما بصير.. لسه ما خلّصتي..

- ولو... ما بدّي..

ما بصير.. بدّك ما بدّك.. مصاري ما برجع..

تنمّرت القطة الوديعة وأمسكت بقدمي تقيدها كأن لحمَ أظافري الميت يهبها آخر زاده ا.

- عمره ما يرجع.. لازم أروح ورا "ست ديما" على "عبدون"..

- بس "ست ديما" مش رايح على بيته في "عبدون"..

لم أهتم لطيران العشرين ديناراً، عددتُها ثمنَ شراء معلومة صحفية مهمة من فلبينية الصالون، إنها مهنة التضحيات الجسام.

لبست حذائي مسرعة من دون تجفيف قدمي، متجاهلةً ازدراء عيون جميلة الاستقبال وأنا أرمي بالعشرين ديناراً أمامها، هرولت خلف الست "ديما" إلى صالون آخر عند الدوار السابع.

صالون آخر! تتحلى الست "ديما" بطول البال، هكذا تكون النائبات وإلا فلا، ولجت إلى ما يشبه العيادة في جبل عمّان، و ادّعيت أن عندي العادة الشهرية مبررة عدم مشاركتي في تمارين النط والمطّ على نغمات الموسيقى، مطالبةً كزبونة محتمَلة التفرج على فعاليات النادي، قادوني من حجرة إلى حجرة حيث النساء مكسيات عاريات، خارجات من حمّامات البخار إلى مسابح

الجاكوزي إلى أسرّة المساج حتى عثرت على "ديما" ملفوفة بأقمطة بلاستيكية كبيرة مثل مومياء في قلب دولاب سيارة أبيض اللون، كانت تتصبّب عرقاً، فغرت فاهي أتصنع الدهشة:

- معقول! ياي.. "ست ديما"! يا محاسن الصّدف!

شرح ت الممرضة المختصة آلية عمل الأجهزة التي تشدّ الأرداف وتلك التي تدك معاقل "السيلوليت " في الأفخاد السمينة، ثم تنبهت إلى أني لا أستمع إلى شرحها، بل و أستغرق في حوار جاد مع النائبة المحتملة وهي تستحمّ بعَرقها جراء جلسة التنحيف المضنية:

- غلبة كثير يا "ست ديما".. مش هيك؟ الله يشدّ عزمك.

تنهدتْ تعباً:

- مش مشكلة.. بتعرفي الواحدة ما بتستخسر بالنيابة إشي، هذا أقل اشي نقدمه للوطن.

رنت كلمة "الوطن" المرقّقة المنغّمة في سمعي مثل نغم منفلت، ما أصعب إ خفاء دهشتي وغبائي واستنكاري، لا أعرف أي الملامح تسابقت على وجهي البر يء، لتسرع الست "ديما " في التوضيح والشرح المسهب:

- لازم الناس تعرف الحئيئة، والحئيئة.. إن الستات عنا ما بئلّوا عن الستات في الغرب، يعني مش عشان هن شئر ورشيئات نستئل بحالنا، صدئيني إنهن مسَلْوَعات وما فيهن أنوثة، بس لو ندير بالنا عَ حالنا اشوي، وبعدين صدئيني الست اللي بتهمل رشائتها وحلاوتها بتسيء لصورة المرأة الأردنية، شوفي "نائبتنا".

- مالها؟! بعلمي.. حلوة ورشيقة وفهيمة..

- مش أصدي عَ حلاوتها.. حلوة.. آه.. بس بيني وبينك الشركس بهرموا بسرعة، لازم البرلمانية تكون صورة حلوة بتشرّف بلدها.. مش معي يا أخت "نارة"؟ صارت تسميني " أخت" بعد إعلان هويتي الصحفية، ربّ أخ لك لم تلده أمك، حاولت أن أقود حديثنا نحو قانون الجنسية والأحوال المدنية الذي يخصّ المرأة، بدأت رائحة عَرَقها تنتشر في المكان، وهي تجيب بذكاء:

- بعدين.. بعدين، بعد ما أأرا التأرير اللي بحضروا لي إياه عنه، ما بصير الواحدة تحكي عن الآنون حيا الله مثل الرجال اللي بفكروا حالهم أشطر منا، ليش نحنا شو نائصنا! زي الفل، حتى الستات بتحطّ لمسة حنونة و ناعمة على برلمان الخناشير، كمان بصيروا يعملوا حساب لكل كلمة

بحكوها، عمرك شفتي رجال بحكوا سفالة في أعْدهفيها ستات محترمة.
لم أفهم، هل تظن الست "ديما" أن الرجال يتحدثون بلغة نابية تحت قبة البرلمان؟ أظن أنهم يحسبون حساباً لكل كلمة يتفوهون بها من دون وجود المزهريات النسوية الجميلة، حتى إن بعضهم يغالي في أدبه ويميل إلى الصمت البليغ والنوم الثقيل طوال مدة تمتعه بمزايا مهامه البرلمانية.
أطرد أفكاري وأستمع إلى المزيد من عبقريات الست "ديما"، تقول:
- شو بعرفني كيف هذول الفلاحين بودّوا نسوان على البرلمان، شفتي بالله كيف صُوَرْهن؟ كيف هذول بكرهبدهم يطلعوا بالصور الرسمية؟ شو إحنا افغانستان! بس بتعرفي مش مشكلة، أنا بعرفهم هذول الفلاحين، بكره ما يخلّوا الواحدة تطلع على عمّان مشان تحضر الجلسات، بصيروا يقولوا لها ليش تأخرتي ومع مين كنتي، مع مين بدنا نكون يعني؟ مع الشعب طبعاً، مشان هيك بقول أحسن تنتخبوا ستات عمّان، أكتبي هالحكي.. آه نسوان العاصمة بظلوا هون أأرَبْ، وبروحوا بوئتْ معئول عَ بيوتهن، هيك ما بصير لَتّ وحكي بلا طعمة، واللي عندها صالون أو سهرة بظل عندها وئت بكفّي، وبعدين لهجتهن بالحكي مئبولة، وأوزانهن معئولة.
شدت الممرضة رباطَ الكاوتشوك حول جسد الست "ديما"، فاندلق الشحم من الأرداف، لملمتْ الهبر والدسم منتقلةً إلى جهاز آخر، لفت حولها أربطة جديدة وصلت أردافها وفخذيها وبطنها بنوابض كهربائية، و ما إن أخرجتُ ورقة وقلماً ودونت ما سبق من أفكار، حتى اخ تلج لحمُها وانتفض تحت وقع المساج الصناعي، وشعرت ب اطمئنان كبير على المظهر الذي ستبدو عليه النائبة عندما تُلتقَط الصورة الرسمية الأولى للفائزات في الانتخابات.
ضحك "منذر الفاتح " حتى كاد يقع عن كرسيه وأنا أنقل له وجهة نظر الست "ديما" بنساء المحافظات، قال لي:
- لا تنغشّي بالمظاهر، مين قال رجال المدينة بحترموا النسوان!
مجرد حاقد فجعني منطقه، كيف أصدّق ما يذهب إليه من أن القرويين أكثر إيماناً بقدرات المرأة وأكثر ثقة بها من رجل المدينة المتعلم الدمث الذي يفتح لامرأته باب السيارة ويفاخر بخيط البروتيل النحيل الكاشف لكتفيها الجميلتين النحيلتين، والبكيني على نهديها التفاحتين، إنه من يسمح لها أن تعمل مضيفة طيران تحطّ في عاصمة وتقلع من أخرى.. ولا يمنعها من تدخ ين

سيجارة في "كافييه لاميرابل" في الشميساني، ولا شفط دخان الأرجيلة في "كان زمان" ولكن! عند المهام الجسام فـإن على النساء أن يتنحَّ ين، ممنوع الضبط والربط.. محـظور على الرؤوس الجميلة الابتلاء بالفكر والثقافة.. ممنوع على الشفاه الوردية أن ت قرر، عليهن إفساح الطريق للخيل والخيّاله، جيش ا لإنقاد من الرجال ا لأشاوس، وينحصر واجبهن بالتمتع بفرصة كونهن غانيات صغيرات مدلّلات!

قلت لـ"منذر" بصراحة:

- أنت مجرد فلاح لم تستوعب المدينة، تكرهها، حاقد، ويحلو لك تجريح رجال العاصمة ونسائها، كما أنك تزوّر للريف وجهاً جميلاً بعيداً عن الواقع.

هز رأسه مستهيناً:

- بكرة بتشوفي بعيرِك.

استضافتني الست "ديما" في منزلها العامر في "عبدون" قبل الانتخابات بيومين، وشربت مجدداً عصير الكيوي الأخضر الحامض حلو، لتلذذت بطعمه وأنا أمرر حبابه مرطبة شفاهي، بينما تلوي الست "ديما" خطبة مرتجلة بليغة، قالت:

- تصوروا هاي الحكومة ما بتخاف ربها، ليش يعني ترفع الأسعار، والله حرام.

سألتها دمية شَعرها أحمر:

- أسعار شو؟!

-كيف أسعار شو! إنت مش بالبلد؟! الخبز.. ولك الخبز ئوت الشعوب المئهورة.

واو.. وآه.. وياي...ما ألطفهن من دون ملطمة فجّة.

هناك تعاطف عميق مع النزعة الشعبية التي تتبناها الست "ديما"، نسوتنا الفاضلات أكثر وعياً من ماري أنطوانيت، يتأوهن حسرة على كسرة الخبز الغالية، وعلى الشعوب المقهورة بالتأكيد .

وضعت كأس العصير فارغة تماماً، لقد ارتشفتها حتى الثمالة بشراهة معيبة، وبقي بعض الوشل الأخضر الكثيف يلطّخ مرايا الكأس ببهجة ربيعية، وفيما كانت الفل بينية ترفع كاسات الشراب على الصينية الرافلة بكشاكش الدانتيل، وتستبدل بها حلوى مصنّعة من اللوز الخالص والسكر، أكملت "ديما" تفسيرها الفذّ لواقع الحال، قالت:

– إذا ما بتعرفوا، أكيد ما بتعرفوا، أنا بخبركن، يعني شو هي ئليلة يزيدوا أسعار الكاز، والله مصيبق

أنا شخصياً لم أعرف أين تكمن المصيبة، احتجت إلى لحظات لأفكر بأهمية الكاز، لأتذكر ليالي الشتاء القارسة والمدفأة الخطيرة التي تبث دفئها وسمّها في قبو جدّي، لم أكن وحدي في حيرة . الدمية الحمراء الأكثر دهشة سألت ببراءة: الكاز! شو لسه حدا بستعمل الكاز؟!

– آه، والله يا أختي، شو إنتي بتفكري الناس كلها مثل بعضها؟ ما عندك فكرة كيف بستعملوا الكاز في عمّان الشرئية، المساكين، في "جبل النظيف" و"الجوفة"، و"الأشرفية".

توقفت يدي عن رفع لقمة اللوز المحلّى إلى فمي، "الأشرفية"! ها قد دخلنا التاريخ، نحن سكان الجبل العالي المطلّ على المدينة صرنا جزءاً من خطاب الست "ديما" الانتخابي. توجست ريبة من ذكرها لحجرة القبو التي يقطنها جدّي، لا أحب نشر غسيل عائلتي المتسخ على كنبات "عبدون" البيضاء النظيفة. مترقبةً وضعت قطعة الحلوى في فمي، أكملت الست "ديما":

– هناك، في الشرئية، بستعملوا الكاز كثير، آه والله، كيف لعاد بدهم يئتلوا الئمل في شَعره ن؟! هناك البيئة وسخة كثير، والئمل سارح.

اختنقت باللقمة وفاض مرار اللوز على حلاوته، أ صابني غضب هز أطراف أصابعي وصبغ وجنتي بأحمر قاتم، أشتهي خنق الست "ديما" بالضغط على جيدها العاجي المتصابي، بصقت حلوى اللوز بحركة وقحة مصدرةً صوتاً ناخعاً من بطن حنجرتي، والتقطتها بأناملي من دون حرج قبل رميها في صحن الكريستال البوهيمي . لست معنية بالعيون المكحّلة والمثقلة بالأصباغ التي حملقت استنكاراً .. شددت حقيبتي على كتفي وغادرت "عبدون"، يا سلام على أرتال الخادمات السريلانكيات الواقفات عند البوابات الفخمة المزودة بأجهزة الإنذار، لا بد أن أسراب القمل تكثر في "عبدون" الفارهة وتنتقل من العاملات وكلاب الحراسة إلى الأطفال المدللين، زجرت غضبي واعتذرت من أعماقي للكلاب الوفية والسريلانكيات المكافحات، لم أقصد إهانة رفيقات النضال الاجتماعي المرير القادمات من آسيا . قاتل الله الغضب الأعمى .. وفيما السيارة تنقلني من عمّان الرفاء تلك التي بيوتها حجر أبيض ورخام إيطالي، وحدائقها خضراء، إلى عمّان الشقاء والحجر المشحْبر المتعانق متسلقاً بعضه بعضاً، تمنيت من أعماق قلبي

فشلَ مساعي الست "ديما" في الوصول إلى البرلمان، ولتذهب الكوتا النسائية والسبق الصحفي وكل المرشحات والمرشحين والحكومات إلى الجحيم، أو يمكن إنشاء طابق ثانٍ لباص الرابطة أسوة بالحافلات اللندنية الشهيرة في الماضي، يمكن استخدامه علّيّة مكشوفة لكبار الشخصيات وأهمّها، تُقدم فيها المرطبات حتى يستمتعوا في آخر مشاويرهم في غابات عجلون الغنّاء قبل أن تُدقّ أعناقهم السمينة على صلب الحجر.

***

تعرفت على وجه الاكتئاب الأصفر، عينيه المريضتين، فمه المرخي، ومشيته البطيئة تحت جلدي، همد الغضب حزناً رائقاً في أوردتي، مؤشر البنزين في السيارة يضيء منذ الصباح، لو تماديت في تجاهله سأضطر إلى حشر جسدي مجدداً في السرفيس الذاهب إلى "جبل الأشرفية"، أقف عند محطة البنزين في عصر رائق تنبعث منه حمم ساخنة وكأن هناك موسيقى جنائزية تغذّ مسيرتي، أسدد قيمة ما ابتلعت السيارة من البنزين، يهزأ "حسن" من حزني قائلاً:

– العبي مع الحزن قليلاً، مش مشكلة، في النهاية تتوقفين لمل ء خزان السيارة ومواصلة السير من جديد.

– وحياة أبوك بلا فلسفة.

الملعون الحبيب الذي لا أب له يجيد إنقاذي عند فوهة الهاوية تماماً .. أدخل البيت أكثر تسامحاً مع الحياة، الأضواء خافتة كأن الساكنين ارتحلوا، أسمع ترويدة ناعمة وصوتاً ملائكياً يغنيّ بشجن: "يلاّ تنام.. يلاّ تنام.. لأذبح له جوز الحمام".

ما يزال قلبي عامراً بالأُنس والمحبة، سأرعى نفسي الودودة وأحبُّها، أخطو على مهلي رغبةً في الحفاظ على تواتر الترويدة الحانية، باب "فتحية" مشقوق قليلاً وضوء ناعس ينسرب نحوي، عند طرف السرير جالسة تحني رأسها وقد احتضنت الصغير وكشفت عن ثدي يلوح أبيضَ مكتنزاً تحت الضوء ، بحلمة مدوّرة كبيرة سوداء، والرضيع يتشبث بلحم الثدي بكفّين صغيرتين، وقد أنشب فمه برأس الحلمة وراح يمتصّ بطمأنينة بالغة، استوقفني المشهد كأني أمام لوحة فنان عبقري، ثم كشفت اللوحة عن خباياها في لحظة دهشة مرعبة، تلك التي تغنّي منحنية ، مَن تلقم الرضيعَ ثديها، لم تكن "فتحية" زوجة العمّ، لكنها "وداد"، الصبية "العذراء" العائدة من رحلة

عمل غير موفّقة، جالسة في حجرة النفساء تغنّي وتُرضع بسخاء طفلاً مطمئناً!
سمرتني المفاجأة، وجفّ حلقي، دفعت بي كفّ "حسن" بحزم لأجتاز رعب المشهد إلى حجرتي حيث أغلق بابي، وأرمي بمؤخرتي فوق سريري كما يسقط الحجر.
ناظراي على الجدار، وأنفاس "حسن" تحوم حولي قلقةً.
– ابتعد الآن لحظة، أرجوك، أريد أن أفكر مليّاً، أن أفسر، أن أحلل، أن أفهم.
يا سلام. .! مفهومة.. واضحة وقحة مثل عين الشمس، "فتحية" لم تنجب ولياً للعهد يرث بيتي المتداعي. ل"فتحية" رحم عاقر بري ء من كل سوء . وتتداعى الصور من ذاكرتي المهملة التي لم تتوقف عند تفاصيل بدت عابرة. "وداد" الساذجة المرتبكة تحت الدّرَج مع الفتى موفق. "وداد" تهبط من سيارة تاكسي آخِر الليل عند المفترق الذي يقود إلى الحارة . "وداد" تدخل بيتها . بعد دقائق يدخل موفق بيته . موفق يطير إلى الخليج . يغيب طويلاً . "وداد" تختفي . تجد عملاً في العقبة. "فتحية" حبلى. العمّ مضطرب. الهمس يندسّ في زوايا الحجرات وتحت الأغطية. السعادة تمثيلية هزيلة في زوايا البيت، والقلق يجوس المكان . أشهر قليلة قبل الإعلان المتردد عن حبل العاقر . "المرَة ولدت وأنتِ نايمة"! "المرة"! مَن؟ ! ثم تظهر "وداد" بعد طول سفر، وتقف أم صبحي في مطبخنا تقلب مزيج الكراوية . وجه "وداد" شاحب وعيناها حزينتان. حقيبة سفرها مثقّلة بجهاز المولود . أم صبحي تكاد تقيم معنا في رعاية الصغير . تتجمع الخيوط، وأنا منشغلة بإيسال الجميع إلى باص رابطة الكتّاب لينقلب من أعلى بقعة في عجلون؛ في حين أن أهل بيتي وجيراني ركبوا باصهم الخاص وتدهوروا على طريقتهم، لعقوا جراحهم وعملوا على تحويل الكارثة أو الفضيحة أو الخسارات إلى أرباح تعمّ الجميع. صار للعمّ وريث شرعي، وصار ل"فتحية" ولد، واجتازت "وداد" الفضيحة بمساعدة شكيمة أم صبحي الماهرة . عاشت الحارة فيلماً هندياً وحدي لم ألعب دوراً هنا مع أني أحب الرقص تحت المطر في الأفلام الهندية . لم يُشركوني في اللعب وأبقوني في الصالة جاهلةً بما يجري . انفجرتُ بالضحك طويلاً وعالياً . ضمّني "حسن" بقوة وأنا أرتجف وأتفتت بين ساعديه، لست حزينة ولا مصدومة، أفكر ب ."وداد" تنحني على الطفل وتلقمه صدرها، أفكر بمخاوفها وأوجاعها، وبالنذل موفق .. أفكر ببطولة عمّي وزوجته، أو بصفقتهما، وبي! طار البيت وإلى الأبد! هل كنت أحلم يوماً بأن يعود هذا البيت بحجارته

المتكلة لملكيتي، هل يعنيني؟!
لولا "حسن" لقررت أن لا يركب باص رابطة الكتّاب أحد سواي، سأقوده أنا على الطريق التي تتكثف فيها غابات السرو واللزاب، حيث الهواء عطر عليل، والسفوح والمرتفعات خضراء فاتنة، سأعتلي المكان، وأترك باصي يهوي حتى القرار، وينفجر مُحْدثاً لهباً ملوناً وأدخنة سوداء، لولا "حسن"..
أمسك برأسي بين كفيه، وجاء صوته عميقاً:
– عزيزتي.. حلوتي.. ولا إشي بمكانه.. صَحّ؟ كمان هالشغلة هيك، مشقلبة، تعوّدي تشوفي المشقلب.. عادي.. عادي.. المهم، ابتسامة في وجه كل الدنيا، ابتسامة للنبي، ابتسامة لـ"حسن"..
أبتسم في وجه الدنيا، هناك ما يستحق الحياة دائماً . أبتسم وأودع اكتشافي في خابية أسراري المكينة، أتلهّى بما أسفرت عنه الانتخابات من نتائج مريحة للحكومة.. شهر عسل وطني، ذكّرني "منذر" بحديثنا حول نساء المدينة والمحافظات، لم ينجح نسوة عمّان في الامتحان، كأنها النتيجة الموجعة لامتحانات الثانوية العامة في بعض المدارس البعيدة .. عادت نساء عمّان إلى بيوتهن، حتى عن طريق "الكوتا" جاءت النتائج في صالح نساء القرى .. منطق "منذر" أقرب إلى الواقع من تصوراتي، شمتُّ بلست "ديما" بطلة كتابي المتوهم "كفاح امرأة "، وكتبت أخباراً بلا أسماء عن مرشحات أُصبن بالإغماء، وأخريات ضربن مساعديهن أو أزواجهن .. كتبت أيضاً عن مرشحين رفعوا شعار "الشعب أولاً "، ثم سبّوا أبو "سنسفيل" الشعب الذي لم يمنحهم من الأصوات ما يكفيهم، فحرمهم من اقتناء سيارة كُتب على لوحتها بالأحمر "مجلس الأمة"
كتبت عن بعض الأوراق الانتخابية التي استبدلت بأسماء المرشحين عباراتٍ مثل "طز عليكم" ، أو "فخار يكسّر بعضه"، أو "عدّي رجالك عدّي من ا لأقرع للمصدّي" .. كتبت عن عودة الكنافة بالجنبة النابلسية والعكّاوية والقشدة بقوة إلى الساحة مع أرتال الأكّيلة، أقصد المهنئين، ولا عزاء للفاشلين .. كتبت أيضاً عبارة دفعت بم دير التحرير إلى إلقاء ورقتي مجدداً في سلة المهملات أمام ناظري، أشرت إلى أنها أغرب انتخابات مرت في تاريخ المملكة، حيث لم يكن هناك ما يدعو الحكومة للقيام بمحاولات استقطاب وتزوير، كما يحدث عادة وكما هي طبيعة

الأدوار التي تلعبها الحكومات في كل انتخاب سياسي، فالشعب هذه المرة قام بالمهمة على أكمل وجه، كوى وزوّر واستبعد واختار.. إنه شعب فطن يلعب بمصيره ويتمتع بالديمقراطية من دون أن يدفع الحكومة للعب دور عدا دور ال رعاية والسقاية .. انضم المدير إلى الشعب فألقى بأسراره وكنافته ومناسفه في سلة المهملات، قال إن خبري لئيم، أوافقه بأنه خبر لئيم يستحق الإعدام، وقد كان، حمله مدير التحرير متقززاً بأطراف أنامله وكأنه جرذ ميت، هوت الأوراق التي حبرت فيها أخباري وأفكاري إلى قعر السلّة المتّسخة بسجائر الزملاء وأوراق أخرى ماتت هناك.

لم تكتفِ صاحبة الجلالة "الصحافة" بإلقاء أوراقي في سلة المهملات، جرى قتلي ببط ء، لم يعد اسمي يظهر في الصحيفة، لم أعد أكلَّف بتغطية أيّ خبر كان، ولما لم يكن السيد "سحلية" في البلاد فقد استبعدتُ الشائعات التي سرت عن إمكانية نقلي إلى ا لأرشيف. في الأفلام المصرية يرد ذكر الأرشيف على أنه عقاب وظيفي ، لم أفهم، فلدي معلومة تقول إن نجيب محفوظ كان موظف أرشيف، من أين استقيت هذه المعلومة! ليس مهماً، لعلي في طريقي لجائزة نوبل! من يهتم سواء كنت في الأرشيف أو في ساح الوغى.. بالنسبة لي تهدأ المطامح والمطامع جارّةً ذيل خيباتها المتكررة، كأنما النار المتقدة حمراء تستحيل إلى شعلة رائقة زرقاء تتعادل فيها العناصر، لا شهوات مضنية ولا عيون تتسلق أدراجاً وهمية نحو العُلا، العمل يعني لي مكتباً مكيّفاً أتسكع في ردهاته بعيداً عن صالة البيت و"واع ويع" "شعبان بن رمضان" الذي يشتد ويغلظ صوته بصورة مقيتة، هذه الأيام ليس في شرق المملكة ولا غربها، لا جنوبها و لا شمالها، من هو أهنأ بالاً مني، حيث الفراغ يكتنف الحياة وحين لا يهمني شيء.

لأني استسلمت إلى الهناء، عادت بعض التفاصيل تغيب عني مجدداً، لم أهتمّ لعودة "سحلية" من أمريكا مرتدياً قمصاناً مشجرة سخيفة مرصّعة بثمار أناناس أضحكت الزملاء، والحقّ أنهم يتمتعون بالكياسة، تبدأ ضحكاته م بعد مغادرته القاعة وابتعاد هـمسافة كافية تعزله عن نوبات السخرية والاستغابة.. عندما يطلّ مجدداً، أتمكن من رصد الخطوط المرحة وا لألوان الصارخة للحديقة الاستوائية التي تستلق ي على صدره وخلف ظهره، أبتسم علناً، فيحدجني بنظرات غاضبة، وتقول عيناه: "لن تتعلمي حتى تكون خسارتك عظيمة"، الفتى "سحلية" عاد للكيد لي عند رئيس التحرير، ولكن كيده طفيف، إذ يمكز اهتمامه حول زملاء آخرين أثبتوا كفاءة في

غيابه، بينما بقيت أنا محلّكْ سِرْ .. ما أسعدني بهذا الركود الذي يصدّ عني أذى الحسّاد إذ لا يجدون ما يحسدونني عليه، التفصيل المذهل الذي غاب عني لفترة كان عودة "موفّق"، شاهدت "وداد" مراراً شاحبة ومتعجلة في مرورها من بيتنا إلى بيتهم، ولم تغب عني قسوة "فتحية" المتعمدة، لم تَعُدْ ترغب في زيارات الصبيّة المتكررة إلى البيت، خاصة عندما يكون عمّي "رمضان" حاضراً، والعمّ صار يحب البقاء في البيت رافعاً كتلة اللحم التي أسماها "شعبان" في الهواء مؤرجحاً هاتفاً:

- كر كر لئو..

يكركر الرضيع في الهواء قبل أن يقذف بمرجوع ما في معدته أبيض خاثراً فوق شعر عمّي الذي يلقي بالصغير إلى حضن "وداد"، لكن "فتحية" تَحُول دون وصول الكتلة الحية الطرية إلى يد الجارة اللدود الولود مثل مدافع بارع في ملعب كرة القدم، تشدّ جسد الرضيع الطائر محتدّة لتكاد أطرافه تنفصم، تنقطع الكركرة وينظر عمّي بطرف عينيه، ثم بحركة منتظمة تتجه "وداد" إلى باب البيت، وعمّي إلى المغسلة ينظف ما علق بشعره، و"فتحية" إلى الحجرة متمتمة بأحرف مبهمة، وأظل في الصالة أضحك حتى أنقلب على أريكة تفوح بالعَرَق وعبق المنظفات .. تسليت بتلك الصور، وفاتني القلق الذي حدث في الحارة منذ عودة "موفق". شاهدته للمرة الأولى عند عودتي عصراً، مشى نحوي مباشرة واثقاً، وكأنه سيرتطم بي، مرتدياً بدلة كحلية محروقة وربطة عنق عريضة، ذكّرتني بصور الرجال في السبعينيات، التصقت ذؤابة شعره بجبهته بأناقة مفرطة تبعث على الغثيان، وبدا كما لو أنه أفرغ فوقه أنبوبة كاملة من "موس" الشَّعر، عندما صار في مواجهتي تماماً شممت رائحة عطر نافذة، رغبت بشد ربطة عنقه وسحله ورائي على إسفلت الشارع وإيساعه ضرباً وتأنيباً للخسة التي عامل بها الجسدَ الذي لاحقه وهصره تحت درَج عمارتنا، لكني لم أفعل، قال:

- مرحب

- مرحبتين.

- والله زمان يا "نارة".. شو أخبار الصحافة؟!

أه لأ! صاحبنا يتلطف ويدردش، وأنا أتجاوب!

- أخبار الصحافة في الصحف.

"ها.. ها.."، يضحك بغباء كأني أمازحه، أتحرك من مكاني تاركة جسده يسد الشارع، فصلتني ثوانٍ فقط عن صفعه أو شد ربطة عنقه، ودخلت البيت متوترة بعض الشيء قبل أن أضحك من نفسي، إنه مجرد فتى ق ميء يفتقر إلى الرجولة، وإن كان أنجب طفلاً تضجّ صالةُ المنزل بصراخه عند دخولي.

هتفت "فتحية" جزعة:

- استنّيت تيجي إنتي ولاّ عمّك، الولد نافوخُه زي النار، بدّي اوخده عَ الدكتور.

- "موفق" تحت بالحارة، ناديه، هو أَوْلى.

صفقت الباب خلف ذهول "فتحية" وفمها المفتوح وعينيها المذعورتين، ألقيت حقيبتي فوق السرير ورميت بجسدي وراءها مقاوِمَةً نخزة حزن عابرة، كما لو أن روحاً شريرة تحاول الاستحواذ عليّ. ما ذنب العالم إذا كانت كل طرقاتي محكومة بالفشل!

أي فشل يجلّلني الآن؟ كَوني في آخر سلّم المنصب الصحفي، وبالكاد أتمكن من الإبلاء فيه؛ أم هي مسألة "شعبان" والبيت ! أهو جدّي معطوب الدماغ الناسي في زمن نحتاج فيه للذاكرة! جدّي الذي لم أره منذ يومين! أم هو الكرسي المخملي الفاخر الذي وفرته المحكمة لرئيس المخابرات السابق أثناء محاكمته بتهم الفساد.

هذا ليس عدلاً، فمنذ أشهر وأنا أطالب الإدارة بكرسي دوّار غير الذي يوازن مؤخرتي وقد عرجت إحدى عجلاته فمال بي لاوياً عمودي الفقري . يتجاهلون مطالبتي بكرسي عادي؛ في حين أن أذلّة العصر الجديد يحْظون بفراش مخملي وثير . لا أنكر أني أتفصد حسداً تجاه تلك المعاملة الخاصة التي توليها حكومتنا، ومزاجنا العربي الطيب، موفّرةً للمتهم كرسياً أحمر فاخر اً مذهّباً، من مبدأ "ارحموا عزيز قوم ذلّ".

يبدو هذا منطقياً ربما بالنسبة لكم، أما فيما يخص "نارة" الصحفية الصغيرة التي لم تكن يوماً عزيزةَ قوم، فيمكن إرجاء أمورها إلى أن يفرجها الله عليها فتتعلم كيف تعزّ حتى إذا ما أذلّتها الأيام انتصرت لها الشهامة والنخوة . بصراحة لا أعرف أي العناصر أكثر إزعاجاً لي في تلك اللحظة، ولأني لا أريد تسليم روحي لعقدة الاضطهاد التي تمارسها الشعوب المستضعَفة أغرقت

عقلي وجسدي في نوم عميق لم يسبق لي أن جربته، حتى إن غطائي ووسادتي تركا على جسدي أثلاماً وخربشات، وتغضّن خدّي وفقاً لثنيات أقمشة تخشّنت بفعل القدم، وبدا كما لو أن "حسن" يخاصمني أيضاً، لعله ملّ مزاجي السوداوي.

أيقظني من سباتي الأعمق قرعُ بابي ووشوشةٌ خافتة ينادي بها عمّي عند باب الحجرة، حملتْ دقاته الرصينة المهذبة رسالةً حول أهمية زيارته الغامضة الصباحية إلى حجرتي، لم يسبق له ولوجَ صومعتي، وكان بإمكانه أن يستدعيني إلى الصالة!

اختلط الارتياب بالوسن، ولكني همست ببحّة ضجرة:

- تفضّل.

ضجر صباحي معطوف على قلق مسائي، وعمّي ي تصرف كأنه يمتلك سراًّ حول سلاح كيماوي يجب مناقشته بعيداً عن مسمع "فتحية"، لسبب ما ظننت أن الأمر أُشبع نقاشاً في فراش "فتحية" الكئيب قبل انتقاله إلى حجرتي، لا أكفّ عن الشك حتى في مواجهة تصرف بسيط وعادي مثل هذا ؛ في حين تفوتني المؤامرات الكبرى في الحياة، لا أكتشفها إلا بعد حدوثها.

جلس عمّي على طرف السرير، وتلفّت بعينيه يستجمع شجاعته متظاهراً بأنه يستطلع تفاصيل الحجرة، وليؤكد هذا الأمر، همس:

- حلو.. اللون.

لا يحلو لي أن أفتح فمي بحديث لحظة الصحو من نوم ثقيل، فكيف إذا كان المطلوب حوار أ باهتاً حول لون الحجرة يُفرش لمجاملة مجهولة بالنسبة لي . اكتفيت بالصمت وهرش وجنتي بأصابعي، تنحنح مرتين قبل التفوّه بكلمات مرتّبة متسارعة كأنه خائف من نسيان ما تدّرب عليه مسبقاً. أظنه قال شيئاً عن كوننا عائلة مستورة، وعن احترام الحارة لاسم جدّي وأبي، وربما أشاد بإنجازي الخاص كحفيدة بائع هريسة صارت صحفية لامعة، قال شيئاً عن احترام الناس، وأمْر ما يخص "شعبان" الذي نريد له أن يكبر بيننا معززاً . طيب! كما يقول المصريون في الأفلام، "هات من الآخر يا عمّ".

صارت "نارة" صبية وعروساً، أعرف، مرآتي تقول لي هذه الحقيقة منذ سنوات، ولكن الجديد

الذي قاله عمّي من دون أن يستحوذ على اهتمامي في البداية، أنني وأخيراً حظيت بعريس، بالنسبة لفتاة مثلي لم يكن هناك أيّ سبب للسخرية ، من الطبيعي أن يحدث هذا يوماً، ومن الخبث أن أدّعي أني لا أنتظر أحداً كسواي من الفتيات، بصفاتي المتواضعة لن أستعلي على العادات وأرفض هذا المصير، ولكني ابتسمت ساخرة، عَلَيّ الحصول على مباركة "حسن" الجالس محايداً على الطرف الآخر من السرير، قلت لعمّي:

– طيب، مين عريس الغفلة أعمى القلب؟

– "موفق".

ارتعشت الحروف الأربعة على شفتيّ العمّ الذي يدرك وقاحة ما يعرضه، ويمضي مستنداً إلى غفلتي..

– "موفق" ما غيره!

الصورة الرائقة لفتى يذرع سطح منزله رافعاً كتاب التاريخ في صبيحة امتحان التوجيهي تثير التعاطف، لكن صورة الجسدين المتداخلين تحت دَرَج بيتنا تلحّ وتتمطّى في مخيلتي مانعةً احتمالات التعاطف، لم تخدش حيائي مداعباتُه "وداد"، ولكن تلك النتيجة المذهلة التي أثمرت بشراً يسمّونه "شعبان" وينسبونه لعمّي، كائناً لحمياً دبقاً صادر بيتي إلى الأبد، كائناً بريئاً في جوهره إلاّ أنه وُلد لصاً.. يصير لالتصاق الجسدين الفارع والمكتنز دلالات كثيرة أبعد وأعمق من الصورة، يتململ عمّي في طرف السرير حيث البروز الخشبي يضغط فخذيه، وتغطس مؤخرته عند الانخساف الناجم عن الفراش اللين، سيسعدني أن يعثر على كدمة بنفسجية أعلى فخذه غداً، لعل رضّة في اللحم تؤلمه.

قلِق ومتململ أكاد أشمّ رائحة احتراق أعصابه، وإن تظاهر بالهدوء .. كل الخيوط في يدي . أشعر بموقعي يتيح صفعَ الجالس أمامي بيسر و من دون تبعات من تأنيب ضمير، هل أخبرته "فتحية" عن تعليقي اللئيم؟ هل جاء "موفق" في غفلة مني ليعبّر عن ولهه بعد هذا اللقاء العابر في منتصف الشارع! ما هو لون فستان "مونيكا لوينسكي" الذي طار معه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية؟ الآن أعرف أني أهلوس، ما الذي جاء بفستان المتدرّبة البريئة في البيت الأبيض إلى حجرتي في اللحظة التي ينتظرون مني فيها إعلان موافقتي على الزواج من الفتى العائد

من حقول النفط في الخليج والساكب علبة "الموس" كلها على شعره الملتصق اللامع، هكذا يرسمون الحكاية السعيد ة، سيدخل "موفق" إلى بيتنا ويرث ابنه بيتي، ويرثني هو ، ويتأكد عمّي وزوجه من انحباس لساني ما حييت، ونعيش في تبات ونبات، وقد نخلف صبياناً وبنات اً، إخوة وعزوة وسنداً للعزيز "شعبان"، و"توتة توتة خلصت الحدوتة" ، وينسدل الستار . بارع عمّي وزوجته في تحويل التراجيديا إلى ملهاة ممتعة بنهايات سعيدة، قُبَل وابتسامات عريضة، ولكني ممثلة سيئة للغاية، أحبس ضحكتي فيحتقن وجهي احمراراً لا علاقة له بخفر الصبايا، يتنحنح عمّي مرات، ويصير لزاماً عليّ أن أضع حدّاً لهذا العزف الغامض المنفرد، أتنفس كي أسيطر على عضلات وجهي الضاحكة، ثم بهيئة ممثلة أحني جذعي إلى اليمين و أدير رأسي يساراً، هكذا صرت في مواجهة وجه عمّي تماماً، هربت عيناه من عيني، ولكني ناورت قليلاً، تستهويني لعبة القط والفأر، ابتسمت بوداعة لثانيةٍ فخدعته، منحته ابتسامتي اطمئناناً مستريباً فتجاسر على العودة بناظريه إلى وجهي، سحبت كمية أكبر من الأكسجين وأوشكت على تفجير قنبلة روحي المكبوتة، وظل "حسن" يخاتلني من وراء ظهر عمي، يرجوني المحافظة على وداعة الماء، يسكب ماءً على ناري، واتتني الفرصة لإشهار خنجري ولم أفعل، وقفت بحزم مهذب:

- يدوّر غير عروس، أنا ما بوخذه.

- ليش؟!

سنتحاور!! حذار أيها العمّ العزيز، سيستدعي الحوارُ الشريرةَ فِيّ، عندها لا ضمانات على أن شكل الحياة سيستمر على ما هو عليه، عَلَيّ أن انهي الأمر قبل تغلُّب منطق الغضب، قلت بهدوء:

- ما بعجبني، وبس..

وقف عمّي متأرجحاً مثل حصانٍ كبا، تهدّل رأسه بين كتفيه وهو يغادر غرفتي، لم أتوقع انسحاباً هزيلاً مثل هذا، إلى متى نظل وهذا العمّ الحبيب نرجئ صدامنا؟!

انكفأت في حجرتي لا أخرج إلا إلى المرحاض، وعاملت "حسن" بجفاف، حمّلته مسؤولية طيبتي في التعامل مع فرصتي الوحيدة للانتقام، ولكني في أعماقي كنت أدرك أني أحاول حمايته من الاكتئاب الذي ألَمّ بي، اكتئاب! أنا "نارة عدنان" المتوهجة دائماً وأبداً، الساحرة التي تحملت

لطمات الحياة الخفية ضاحكة هازئة، يصيبني الاكتئاب، هذه نكتة، ولكني حبست جسدي في الحجرة ليومين حتى صار أخضرُها حشيشاً ميتاً، مرّرت أناملي فوق الأشياء المتناثرة، الإطار حول صورة زهرة، علب الزينة، دُبّ أبيض بآذان خضراء، أقلام وأوراق وبطاقات دعوة قديمة إلى مؤتمرات صحفية، علق الغبار برؤوس أصابعي، فتسلّيت بنفخه في الهواء ومراقبة تساقطه مجدداً فوق الأشياء نفسها، الواضح أني أهملت تنظيف حجرتي مؤخراً، لم يقرع أحد بابي ليومين متتاليين، تناولت كِسَراً من بسكويت جافّ، لم يكلف الزملاء أنفسهم بالسؤال هاتفياً عن الزميلة المتغيبة .. قبل خروجي للقاء الدنيا مسحت الغبار عن كل جزء في الحجرة، وصففت شعري، ملونة شفتيّ بورديّ لا أعرف في أيّ الأدراج العتيقة عثرت عليه، تجلس "فتحية" باسترخاء فوق أريكة الصالة تشاهد أغنية ضاحكة لمحمد هنيدي وهو يلعلع مرتدياً ثوب امرأة "وراس أمي تعبانة" ، نعم، "وراس أبوي تعبانة"، قطعت "فتحية" ضحكتها البلهاء عند مغادرتي غرفتي وعدّلت جلستها ضامّةً "شعبان" إلى صدرها كأني سأعضّه! فلستقام ظهرها، هذه اللئيمة لم تسأل إذا كنت قد تناولت وجبة خلال أيام اعتكافي، على أية حال هي ليست أمي، فعلى ماذا ألومها؟ قلت بإهمال:

- هاي.

لم تردّ، ولم أنتظر، واصلت خطواتي وفتحت باب المنزل، هبطت الدرج بجسد متهدل، حاولت رفع رأسي قبل دقّ باب جدّي مرتين، دقق الرجل الناسي في عتمة الحجرة وأنا أنسلّ مثل طيف الرعب، زمّ شفتيه وعينيه ثم استرخى فابتسمت، لعله تعرف إليّ! لم أره منذ زمن، حتى أنا نسيته، كان يعرف أننا سننساه ، فقرر نسيان الجميع قبل أن يغتالوه بنسيانهم .. خبيث هذا الجدّ الحبيب . جلست قربه، رائحته مزيج من عَرَق جديد وآخر جاف، وشذى خفي يماثل تلك الرائحة المنبعثة من رجع الحليب في فم "شعبان"، فاضت روحي وانثنى رأسي يبحث عن متكأ .. رغم أن كتف جدي صلب وحافل بمدببات تنغرز في فروة الرأس إلا أني استرخيت تماماً، واستمر على حياده لا يستجيب للحظات وجعي ولا يحرك ساكناً، كأنما رأسي المنثني الباحث عن أمان، وهمٌ لا ثقل له، وان استقر بحمله ووجعه فوق كتفه. في هذا الفراغ الموحش عادني "حسن"، مرر كفّه فوق خصلات شعري، متجاهلاً جدّي الذي يتجاهلنا جميعاً، التقط "حسن" بحنوٍ شفتيّ

الحزينتين، شعرت بحرقة دموعي تبلل أسفل ذقني وفوق الكتف المحايد ة الذي مرغتُ عليه ا أشجاني، بكينا قبل أن يعنّ على بالي أنا و"حسن" أن نضحك ونغني "ضحكَ طفلين معاً".

لا أعرف امرأة بمثل سذاجتي.. في الوقت الذي يستوجب الفرح أشعر بالحزن، أخشى أن يعاودني الشعور المرير كثيراً في سنوات عمري اللاحقة والمتاحة، لعلي أُصبت يوماً في مركز المناعة النفسية إصابة طفيفة تفاقمها ا لأيام، ومثل ذئبة تسعى للبقاء ما أزال أتمتع بالقدرة على لعق الجراح .. عالجت بمجمل الجروح في الماضي، وليس من الذكاء أن أسمح لحدث تافه وعابر أن ينكأها مجدداً، وإن ارتختْ همتي ليومين لئيمين لعبا بجراحي، فلقد تعافيت وعدتُ إلى صحيفتي، لم أعاتب أحداً لعدم الاستفسار عن غيابي، في الواقع أنا لا أفتقد أحداً إذا غاب، ولا أتوقع أن يفتقدني أحد، وليس من ا لمنطقي أن أشتاق لـ"سحلية" أو "كعب الكباية" أو "منذر" ولا حتى لـ"أمرك سيدي".

وجدت الزملاء غافلين عني، مهتمّين أكثر من أي وقت مضى بحدثٍ محليّ، المحلية لا تعني أننا نتحدث عن تعبيد شارع على خطّ الموت السريع بين عمّان والكرك، وليست قطعاً ردم حفرة في ماركا، لقد فوجئت بأن محلّيتنا انتفخت أوداجها، وتكوّر بطنها ، وتلوّنت بالخطوط الزرق والحمر كما لو أنها إعلان لمعجون الأسنان "سيجنال 2"، وباتت تضاهي العالمية أهميةً وفائدة، و إلا ما الذي دفع الزملاء للتناطح لتغطية أحداث المنتدى الاقتصادي العالمي المنعقد في البحر الميت؟!

صغار يبحثون عن بدل مادي لأيِّ مهمة، إنها مبالغ صغيرة بخيلة، لكن مهامها متعددة، للزملاء أبناء وزوجات و أمهات، ولهم مرضى، و أقارب يتزوجون، وفي بيوتهم أن ابيب معطوبة وأسقف تدلف من حمّامات الجيران، ولهم أحلام متواضعة في مشتريات أساسية وأخرى نافلة، مكيّف محلّي يعمل على الماء، مدفأة علاء الدين الحديثة، شراشف ل لأسرّة، فيديو، خروف، نذر لنجاح الولد في التوجيهي، كلها أفراح صغيرة لا يتمكّنون من تحصيلها لولا انعقاد المنتد ى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، وأنا التي تكالبتْ على فرص المهنة فيما مضى، أتعفف تماماً كأني زاهدة بوذيّة.

هناك حيث البحر غير قادر على ا لإدلاء بشهادة غير الملح القراح، اجتمع العا لم يرسم صيغة جديدة للاقتصاد، بعد هذا الحدث الجلل لم يعد لائقاً استضافة ذاكرتي لعمّي و"فتحية" و"موفق"، غسلتهم بملح البحر الميت، ولو لم يتم اختياري للذهاب إلى هناك.. كان لا بد من

إرسال المراسلين ا لأقدر على فهم كيف يُدار الاقتصاد، وأنا بصراحة لا أعرف من أين تؤكل الكتف، بل و إني أترك نصف لحم الفخ ذ في عظمة الدجاجة المشوية التي أبتاعها من "مشاوي عمّان" في شارع الصحافة كلما استبد بي الجوع، نبّهني "حسن" إلى هذا البطر، ولكني لا أتجاوب معه تاركةً فتات طعامي لقطط المزابل، على الأقل أشعر بثراء يمنعني من نهش لحم يفيض عن شبعي لأهبه أقاربي من الحيوانات الأليفة .. من الطبيعي أن فتاة تجهل التدبير الاقتصادي مثلي، وتتغيب يومين عن العمل من دون إبداء الأسباب، ستُحرم من النزول إلى البحر الميت، لهذا كانت مهمتي رصد الصور القادمة عبر جهاز الكمبيوتر عن المنتدى، ثم تحويلها إلى جهاز التنفيذ في قسم المونتاج، لأكتشف أن المثقفين توقفوا عن التنفس في تلك الفترة بانتظار ما تسفر عنه توصيات المنتدى، لم يُعقد نشاط واحد ولا حتى أمسية شعرية لمبتد ئ ينثر الكلام ويهيم في العبارات، فقد زارنا أكابر العا لم وأثرياؤه، وتجنبت بناتُ الاستقبال الذكيات المنتقَيات بعناية ارتداءَ الفساتين بحضور الرئيس الأسبق "كلينتون"، كازانوفا الأميركي، توقفنا لمراقبتهم يستمتعون بالنخيل المتمايل في الفنادق الفاخرة في غور ا لأردن حيث شَجّت حفرةُ الانهدام العظيمة العا لَمَ إلى نصفين طولياً، مما يثير دهشتي، فإذا كانت الطبيعة قد اختارت التقسيم الطولي، لماذا يقوم البشر ممثَّلين بالتكتلات السياسية الكبيرة بتقسيم العالم عرضياً؟

كل ما جرى في البحر الميت ليس مهماً تماماً بالنسبة لي، إذ ما أزال ألمح الموظفين يسارعون الخطى للّحاق بالباصات عند الفجر، وما أزال أشعر بالغربة عند دخول فندق "الرويال بالاس"، لكن المهم حقاً، والذي بيّض وجوهنا أمام الزوار ا لأكابر، هو حلّ المشكلة الأزلية لمنطقة البحر الميت بإبادة الذباب الكبير الطنّان الذي يحب مرتادي المكان عادةً، ويتعلق بأكياس النايلون وشطائر اللبنة في أيدي الصغار، وفتحات كاسات الشاي المحلاّة، كما يحلق حبوراً فوق أسياخ اللحمة وهي تُشوى في منقل الفحم .. لقد وقعت معجزة حقيقية، فلم يصادف الزوار ذبابةً واحدة من تلك التي تتمسح بجلود المواطنين كالقطط المنزلية .. حدثت إبادة جماعية لأسراب الذباب ترحيباً بالضيوف، لقد داهمته ا المبيدات الفتاكة كما تفعل صواريخ شارون في المخيمات الفلسطينية. وعلى أهمية هذه الخطوة الحضارية في باب مجاملات الزوار وكرم الضيافة الذي يشهد القاصي والداني لنا بالتفوق في مضماره، إلا أني ولمجرد المخالفة، أعدّ ما حدث تعدياً صريحاً على

البيئة وموجوداتها، وقد شعرت بالسعادة عند انفضاض المنتدى وعودة الذباب الذي سرعان ما تحركت جحافله الميمونة من مناطق الأغوار المجاورة لتحرير مواقعها من الغرباء والعودة إلى مواطنها مجدداً.

بعد انقضاء المنتدى لم أعد أنقل الصور عبر الإنترنت إلى قسم المونتاج، ولم يُبْدِ المدير الموقر أية إشارة تكليف بعمل محدد لي، وكانت لديّ أسبابي في عدم العودة إلى البيت .. ليست مرابضتي في المكتب لنهارٍ بطوله، وتحمّلي السندويشات البايتة في كافيتريا العمل كلّها همّة ونشاط أُحسَد عليهما، كنت أعمل القلم لساعات في كلمات لا معنى لها، أخطط، وأحياناً أنسخ أوراقاً متناثرة حولي، أو أخباراً قديمة، وأردّ على الهاتف فأتسلى بمحاولة معرفة أشكال الناس من أصواتهم، بعض الأصوات تسمح بمعرفة أعمار أصحابها، أما الأشكال فهي اختراعي الخاص، أعرف أني أقع في بئر الملل.

***

منذ الخطوة الأولى في الحارة، وعندما يلوح دكان موظف المخابرات السابق تبدأ رحلة الغربة، لو أن جدّي العنيد المغلَق كصندوق في قاع البئر يتلطف يوماً فيردّ السلام، لكان هناك ما أنتظره من هذا العالم المنطوي على أسراره، أجسد "حسن" بمجرد مروري من الصالة الكئيبة المقفرة إلاّ من أشباحها الثلاثة، عمّي، وزوجته، وابنهما المزعوم، بتّ ألحظ انقطاع زيارات "أم صبحي" و"وداد"، هذه الـ"فتحية" لا تخلو من بأس، لا بد أنها عالجت الأمر بنجاح لتحمي أسرتها الصغيرة من الطفيليّين، قرأتْ تعاويذَ سحرها الأسود كي تغيب المرأتان من حياتها، و ظللتُ وحدي عصيةً على السحر، شوكة في الخاصرة، وغصّة في الحلق، أشعر بثقل وجودي، لهذا أمرّ بسرعة موصِدَةً بابي خلفي، أحياناً أخرج إلى الحمّام وأرمي بأكياس البسكويت الرخيص على الطاولة وسط حجرة الضجر، قائلة:

- هذا لـ"شعبان".

بلغ الرضيع سن الفطام وما خرّ له جبين، اللهم إلا جبيني، بات "شعبان" يقضم البسكويت كما يقضم عمري وحجارة بيتي، أساعده على سنّ أسنانه بصورة تليق بابنة العمّ البارّة، تقلّب "فتحية" مربعات البسكويت من دون تعليق، عندما أخرج من الحمّام يكون الرضيع قد فتّت

بسكويتي فوق "مريلته" المتسخة وعلى الأريكة وتحت أقدام أمه، أغلق بابي وأتأمل خضرة حجرتي، ثم أمدد جسدي بالكامل على فرشتي المنبعجة صعوداً وهبوطاً كما تضاريس جسدي، يتبخّر الناس، ويسقط سكون ناعم، تنعدم الهمهمات الغامضة من الجدار العازل بيني وبين الجارة الهرمة و يتلاشى الوشُّ المنتظم لجهاز التلفاز في الحجرة المجاورة، و أستدع ي ارتباك الحب ووهمه الغامض، يتجلى سحر الخيال كأن نبع ماء يغدق من مكان عميق، ويسيل فوق صخري وناري، تتردد أنفاس "حسن"، تداعب بهجة الروح، ويتنزل عليها غموض وفتنة الحب المستحيلة، طاقة الحنان الماتعة التي يشكلها البشر في مخيّلاتهم مثل الطين الزلق بين أنامل فنان يحوله إلى إناء فخاري، هكذا يمنح العشاق أحبا ءهم قاماتِهم الفارعة ومحاسنَهُم السماوية، هكذا يتشكل المستحيل، وتسهل رؤية اللاموجود بتاتاً، لماذا لم أعثر على رجل من لحم ودم أُلبسه ثوب خيالاتي؟ لماذا يعجز الرجال الحقيقيون عن إشعال فتيل ناري؟ لماذا أشك أساساً بأن أحداً خُلق مستحقاً للحب الكبير الذي أملكه، ولماذا أكتفي بطيف يمنعني من مجرد الاقتراب والتجربة؟ رغم تسبب هذه الأفكار بوجعٍ يتسرب في فلجات اللذة ويَحُول دون اكتمالها، فـإني أداوي مللي لمئة عام قادمة، مثل بنت على أرجوحة، دختُ، ولا أرغب الترجّل.

أعاقب محبتي بإخضاعها لمنطق التحليل، أتهّم "حسن" بأنه وراء ضبابية الرؤيا وحجب الآخرين عني، وصمم آذاني عن نداءاتهم، رغم أن قلبي فراشة تتخطفها بهجة ألوان الربيع، أقدّر الجمال وأتبع دروب الشذا، ألمح بفرح التماعات الوجد حينما ألتق ي برجل جميل، لا يعاتبني أحد على استخدام صفة "الجميل" عند الحديث عن الرجال، لا أعرف من هذا المأفون الذي ربط الكلمة ربطاً محكماً وفجّاً بالنساء وحدهن، فالرجال لا يخلون من الجمال، أيبدو ما أقول تناقضاً واضحاً بين إقبالي و إدباري؟! ربما، ولكني محمّلة بحدس لا أُحسد عليه، أتمنى لو حُرم ت هذه النعمة المقيتة، فمنذ لحظة الملامسة الأولى بيني وبين أيّ رجل، عندما تمتد اليد للسلام المحايد البريء، تنتقل في ثانيةٍ كل جينات الرجل الذي أودع كفّه كفّي خالي الذهن، فأرى الخديعة في اللحْظ الفتّان، في زاوية انطباق الجفنين بالتحديد، ألمح ا لازدراء المتواري وراء نظرة الإعجاب، والعطاء المحسوب بقطّارة في ضغطة الكفّ على الكف، وأقدّر برودة القلب وفتورَهُ في حرارة الابتسامة المفتَعَلة، وتقول لي العيون إن كل ما هو متوقَّع مؤقت وخادع وغير ما يبدو تماماً، لحظتها ترتفع

الأسوار العالي ة بيننا، تنطلق صفارات الإنذار في قلبي وعقلي.. وي وي ويييييييي، أسمعها ترجف كياني و تحرمني من متعة الذهاب إلى لحظة مضيئة، يصير الكون مظلماً، لا يمكن القول إني أبني تصوراتي بناءً على تجربة فاشلة أو موقف مسبق، ربما كان من حياة ماضية لم تعشها "نارة" التي تحكي اليوم، هذ هالحال ليسرت مصدر سعادة لي، فمثل كل امرأة على وجه الأرض أشته ي أن يغشّني أحدهم مرة ومرتين وثلاث، أن يلتبس كلامه عليّ، أن تعمى ظنوني ويموت حدسي، فلأصدّقه، ثم أقتسم قلبي معه مثل رغيف، ولما لم تقع المعجزة بعد، وما أزال في انتظار غودو! مَن غودو هذا؟ ! اللعنة على عشْرة المثقفين والمسرحيين ومجانين الكتابة الذين يلحسون عقلَ المرء بنماذجهم المضحكة وأراجوزاتهم وفزّاعات الحقول وأوهامهم المخيفة، أما أنا فأ كتفي ب"حسن" ويكتفي بي، أتوجس ضياعَ العمر، أرقب في منابت شعري شيباً مخادعاً يتسلل عند المفارق، فأعمد إلى تلوين شَعر فوديه بالفضي البديع، أشّيبه معي، وأعدّ معه آثار ضربات السنين على وجهينا، تجاعيد صغيرة فاتنة تلوح في الثنايا حيث ابتسامات العيون، وفي انحدار الأنف إلى الذقن، في الغالب تثير هذه التفاصيل الاشمئزازَ عندما يتعلق الأمر بوجه يحدق ببلاهة كما "موفق".

أنحشر بين مكتبي وحجرتي بين حبر الورق وطيف "حسن"، يصبح العالم صغيراً وموحشاً ، فكل مخاوفي من البشر لا تدفعني للاعتكاف النهائي في حجرتي الخضراء، ربما إذا شختُ ولم تحملني أقدامي بفعل هشاشة العظام، أو خانني جسدي بكساح مفاجئ، أقول ربما أصل إلى مصالحة مع الهروب من العالم، فأكحّل عينيّ الاك تئابِ المنطفئتين، وأربط شَعره المغبر بالشرائط, أسمّيه تأملاً، وأمنح أحزاني وأوجاعي صفةَ الفلسفة، أما اليوم وأنا بخفة ريشة عصفور، فإني أ شتاق للنشاطات التي تخلط البشر وتوزع الأرباح بصورة تضحكني وتغضبني ولا تحقق سعادتي، ولعلي لا أبحث عن هذه السعادة إطلاقاً، لا أتمتع بصبر وحمق الفلاسفة الباحثين عما يسمّونه "الخلاص"، ربما كنت أتمتع بدور الشاهد أو بتلك الخلطة السرية بين الجمال والقبح في العالم، بين الفرح الذي يتأتى من تفاصيل صغيرة لا تغيّر في مسيرتي شيئاً، وبين الحزن المنهمر من فيضانات الدنيا كلها، هكذا أتمشّى على برزخ سعادتي ولا ألجُها، أريد أن أضحك، أريد أن أعمل، أن أغذّي مزاجي كمتعاطي الحشيش، أن أحب الناس، أن أعدّل ثقافتي أيضاً.

أغْلَق بالشّرك كلما سمعت بكاء الرضيع ووقع نعل عمي متنقلاً بتثاقل بين حجرته والحمّام، تجوس "فتحية" البيت حافية في معظم ا لأحيان، كأنه بيتها . وسط تيارات التناقض التي تغمر أوقاتي أفكر بفعل شيء جديد، شيء يحوّلني إلى فتاة لا همّ لها، ينسخ بطرفة عين كل ما حولي. بدأت أفكر بالمشي الطويل مثل السيدات الممتلئات اللواتي يربطن شعورهن شادّات بشرة الوجوه الناصعة وهازّات أردافهن المثيرة فائضة الأنوثة في محاولة لمعاقبة كل هذا السخاء وضبطه في بنطلونات الجينز القبيحة، النساء اللواتي يتمشّين عصراً في شوارع "الرابية"، الفرق بيننا فائضٌ في اللحم يمتَزْنَ به، اخترت "جبل الأشرفية" ملعباً لرغبتي الجديدة، س أذرعه صعوداً وهبوطاً كأني أوسّع حجرتي الشخصية، ليس منطقياً حصر العالم في خضرة الحجرة التي تجثم على القلب حيناً، وتشق شرايينه عنوةً أحياناً، يمكنني مدّ مساحة سروري البسيط المتواضع عبر طرقات الجبل العتيقة، لو مررت بباب المستشفى أو المسجد، وإن ارتاب المصلّون بفتاة ترتدي الجينز الضيّق على أرداف مُذابة؛ في حين تمر المحجّبات آمنات وقد احمّرت خدودهن بفعل الخجل أو تراكم بودرة المكياج رديئة الصنع، تردّني النظرات المستريبة على عجل لأمارس رياضتي اليومية في الأحياء الداخلية، أراقب الصبية وهم يلعبون الكرة ويتلصصون على مؤخرتي التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وأسمع عباراتهم المضحكة وهم يبحثون عنها مشتعلين حماس ةً، وألمح رؤوس الأمهات تطلّ من شرعات النوافذ، وعيون الباعة الجالسين في بوابات دكاكينهم تتحرك برزانة خبيثة مع التفات طفيف لأعناقهم، أشعر أن وجودي محقَّق ما دام هذا الجمع من الناس ينظرونني وينتظرونني، لا عن افتتان بي، ومن قال إني أنشد فتنتهم واللعب برؤوسهم الطيبة! ! فقط أريد من مشاويري الساذجة أن ينطوي مروري على معنى ما، من دون تبادل ثقل من أي نوع مع الكون، لا أُثقل كاهله بجسدي وروحي، ولا يثقل صدري بتفاصيله حلوها ومرّها، أصير خفيفة متحررة، وقد أمرر رائحتي بالمكان ليذروها الهواء أو أطبع فوق التراب مقاسَ قدمي الذي سيمحى بمرور عجلات سيارة أو خطوات إنسان أو حتى قطة شاردة، لهذا أفزعتني كفّ "وداد" وقد أطبقت على ذراعي بغلظة عند عودتي عصراً من مشوار المشي الممتع، كأنها عثرت على لقية.. إن مجرد اقتراب أحدهم مني بعد ساعة متواصلة من المشي يربكني، يوقعني ببعض الشك في أن رائحة عَرَقي تفوح من إبطي، فاجأتني "وداد" كجنّية، فقابلتها بجفاء، تجاهل تْ نفوري

وأحكمت قبضتها على ذراعي، سحبتني وراءها بإصرار لزج، قالت باستعطاف:
- الله يخليكِ، بدّي أحكي معك، تعالي شوي، شوي، مش رح أأخْرِك.
لا أرغب في الحديث معها، لكني انسقتُ وراء انكسارها بفضول مستتر، توقعت متعةً في جانب من الحكاية، وقاومت الدهشة التي اعترتني عند دخولي بيت "أم صبحي" الذي لم أدخله منذ كنت طفلة.
كم ابتعدت عن الناس وابتعدوا عني، عندما أشعر بمثل هذه المفارقات، تعاودني فكرة أن وجود "حسن" في حياتي شرخ علاقتي بالبشر، وأقام السدود والحدود، و صادر اقترابي من ا لآخرين، وأحار إذا ما كان هو حلاً لغربتي، أم سبباً فيها.
أطرد أفكاري الشيطانية وأتأمل المكان، كل الأشياء في مكانها، فيل خشبي عتيق انشقّ بطنه بفعل الجفاف، ومنفضة سجائر نحاسية اسودّت انحناءاتُ وخطوط الزركشة فيها، حتى تلك المزهرية الزجاجية الملونة بفجاجة وزهورها البلاستيكية الوردية مغسولة ومنتصبة فوق طاولة الصالون المربعة كما كانت منذ زمن مع مزيد من الخدوش والتخرشات التي رُسمت فوق سطح الطاولة.
وحدي تغيرت! كبرتُ وقستْ ملامحي واشتد جلد ذراعي وبتّ أتحكم برعشات وجنتي إذا اهتزت، ربما تغيرت "وداد" أيضاً، رغم كونها ترتجف مستجيبةً لضربات عواطفها الحمقاء ، تلك التي كانت "مربربة" بدت شديدة النحول وعيناها غرقتا في تجويفين رماديين، و قد ضمرت وجنتاها، واختفت ربلتا الساقين الممتلئتين وراء قماش البنطلون البني .. حذّرني عقلي من التعاطف، ففكرت بالهروب السريع من البيت الذي يفوح برائحة الوجيعة، يمكن أن أقف على حين غرة وأركض نحو الباب كمن رأى شبحاً، ولست مدينةً لها بأي تفسير أو تعليل، احتمال اندلاق أحزانها على يدي يزعجني، لكني أثبت في المقعد مدقوقة بمسمار الفضول والحشرية، أقول:
- أنا مستعجلة.
لم تسمعني، جلست إلى يساري حائرة خائفة لثوانٍ، ثم انتقلت إلى يميني بقلق واضح وأنفاس مهمهمة، انسكب الوجع من عينيها فطارت كل إمكانية لتعاطفي، لا أحب هذه البكائيات ولا

استعداد عندي لتراجيديا ا لآنسة "وداد"، أطاحت بفضولي لأشحذ في وجهها سكاكين قسوتي وإهمالي، لا يمكن التكهن بالأسباب التي تدفعني إلى مثل هذه القسوة تجاه رفيقة الطفولة التي تجيد شطف الأدراج.

التمعت دمعتان كبيرتان في فضاء عينيها:

- صحيح بدّك تتجوزي "موفق"؟!

سقطت الدمعتان، عاودني التعاطف ممزوجاً بالسخرية، لعل ملامحي رقّت لحظتها وفقدت شيئاً من قسوتها.

- موفق! مين! هذاك الهبيله!

ارتعش صوتها وانحدرت الدمعتان خطّين:

- يعني مش مزبوط؟ إشاعة؟ مش صحيح؟!

وصلت الدمعتان حتى نهاية دقنها وانفلشتا:

- شو هو هذا اللي مش م زبوط؟ أعوذ بالله، طبعاً مش مزبوط، أصلاً لا هو بطيقني ولا أنا بطيقه، من زمان، من وين جبتي هالحكي؟!

بإمكاني أن أكون شريرة، فأدّعي أنه غازلني رغم أنه لم يفعل صراحةً، ثم تقدّم لخطبتي وردَدْته، وهذه فعلها، لكنها غريقة وليس في الجوار إلا يدي، صارت فجأة امرأة مكلومة جريحة، وصار لزاماً عَلَيّ أن أبدي مؤازرة نسائية أسوة بمفكرات "الجندر" وقضايا تحرير المرأة وانتزاع حقوقها، بإمكان الوغد الذي أحبّته أن يعلّق فؤادها على مذبح جزار في واجهة زجاجية وستظل هي أسيرته مثلما تقول الأغنية الشعبية "حبيبي لو ضربني بشبريته لامسح الدم وأمشي ورا خطوته"، كأنها منذورة للذل على يد الحبّ والغيرة، ينكفئ رَجُلها فتمد يدها متسولة حباً مستحيلاً واهتماماً منقوصاً، تنسحل وراءه مخربشةً جسدها وروحها معفرة بتراب طرقاته، جريمة لا يطالها قانون، اغتيال كراهية على يد الحب، لن أسمح له بالانتصار علينا هكذا لمجرد المقاهرة الصبيانية ولو كرهتُ أوجاع الصبيّة التي لا أحب أن أكون مكانها، ولا أتنازل عن الصورة الوردية الآمنة التي يوفرها "حسن" لصالح وجع مجنون لا معنى له ولا قيمة! تقول ناري إن هذه حماقة لا يجدر بالنساء الانسياق خلفها، ولكن وحالها تثير الأسى والمرارة، عليّ التصرف بنبل .. فيما بعد،

عندما أسحبها إلى الشاطئ الوهمي الآمن، يمكن أن أتيح المجال لخسّتي كي تشمت بأوجاعها، سأنكر معرفتي بها وأنسحب تاركةً لها معالجة جروح ذلّتها وحيدة، أما الآن، فمن أجل نضال النساء التاريخي المجيد عليّ طمأنة خوفها، كلماتي حوّلتها إلى ذبابة طنانة، غمرتني بعبارات التقدير والعرفان الجوفاء، وسفّهت من الفتى مواريةً اهتمامها وجزعها، قالت إن الأمر لا يهمّها، ولكنه مخادع يستحسن الحرص منه . لم أسالها عن التفاصيل وتركتها تعلّمني بحصافة وعن خبرة ضرورةَ الحذر من خبث الرجال، كل ما كنت أخشاه أن يصل تسارُرُنا حدَّ الاعتراف بشأن "شعبان" النائم في بيتنا، قطعت الحديث على عجل، كانت نصف راضية، كذلك كنت، فأنا لا أملك لامرئ (ولا حتى لنفسي) رضا تاماً.

***

منذ غادرت بيت "وداد" ضاحكة، راضية بعض الشيء عن حكمي على الأشياء وتحكّمي بنزوات مشاعري، وأنا معجبة بحكمتي في مواجهة التفاصيل العاطفية المخلّة بالكرامة، و حصافتي وقدرتي على الاستماع إلى ا لآخرين من دون أن أكون طرفاً، كما أفعل مع حوار الزملاء في المكتب.

– إحنا شعب ما برضينا إشي، بنوكل وبننكر مثل البْسَاس.

كل هذا لأني أبديتُ رأياً حول مقال صحفي كشف الطابق!

أكتب بإهمال شديد خبر خلاف نما إلى علمي في رابطة الكتّاب، أحاول أن أبدو ذكية وأنا أشير إلى الوقائع من دون الدخول في معركة الأسماء، لم أنضمّ إلى حوار "سحلية" و"منذر" الذي يديرانه على بعد خطوات مني وكأني لا أسمع، توشك الطاولات أن تنقلب إثر نقاشهما السياسي، أضحك في سري كثيراً، إذ تبزغ أعراف الديوك الشرسة من مقدمة جبين كل منهما ملوّنة ومتشنجة، لا يستخدمان منقاريهما أبداً، كونهما ينتميان إلى فئة البشر الذين تلقوا تدجيناً حضارياً عالي المستوى.

كتب صحفي أم يركي مقالاً عن ا لأردن الواقع بين المطرقة والسندان ، ولا أحب الإشادة بذكائه وحكمته وسعة أفقه كما يفعل السيد "سحلية"، فـ"سحلية" هذه الأيام مخطّط بجرأة رسام حداثي، يخجل "سلفادور دالي" أن يضيف مثل هذا التنافر اللوني في لوحته، لكن "سحلية" أكثر

حداثة وجرأة، وقد تناثرت النجمات على وجهه منذ عاد من أم يركا ونال علاوة خاصة عن الخبرة التي اكتسبها هناك، والتي لم نلمسها بأنفسنا، ولكن رئيس التحرير، وهو الأقدر على قياس الأمور بحكم كرسيه الوثير المجلوب أساساً من أميركا، لمس تلك الخبرة وثمّنها عالياً .. بصراحة لست قادرة مثل "سحلية" على تصفح " النيويورك تايمز " والادعاء بأني فهمت مقال المدعو "آلان كاول" . حتى هذا الاسم الفني لا تتجاوز أهميته عندي ا سمَ "كعب الكباية"، بل إن الأخير يفْضله بما تتيحه خبرته من إخفاء عيوبي في الكتابة، فإذا كان "كاول" هذا يدّعي بأن الأردن محشور بين عدوّين، العراق و إسرائيل! فإني أستهجن كل كتب التاريخ والتربية الوطنية، وأتساءل عن المدارس التي أضاع فيها صحفي "نيويورك تايمز" عمره من دون أن يميز بين العدو والشقيق. هو حرّ، أقصد هذا حد معلوماته، لم يَضِعْ له وطنٌ ولم يفقد أباً وكل حماسة صديقنا الأثير "سحلية" لن تقنعني بأن معلوماتي مغلوطة وقد عشت عمري أتمتع بعدوّ وحيد .. من باب المتعة أن يكون العدو واحداً، وأن لا نعلق في حجيم تعدد الأعداء والجبهات، ألا نستحق أن ننظر باتجاه واحد خائفين عوضاً عن التلفت المذعور لكل جهات العالم! وإلا ما الذي ذهب بأبي إلى فلسطين! أبي العجيب الذي يحضر كيفما شاء، ومن دون استدعاء، وفي وسط كتابتي لخبر رابطة الكتّاب، يتراءى أمامي معفّراً بغبار طريقه، وقد علقت بعض أشواك في رداءه الكالح المخزق، وابتلّ بنطاله وهو يعبر النهر، يجلس اللحظة في مكتبي منطعجاً كأنه قادم من الموت، مبتسماً كأنه يتذوق الحياة، يمنعني من فهم نظريات "سحلية"، ومن إتمام المقال المحايد الذي أحاول تفصيله من دون إثارة النعرات، ما هذه الزناخة! يجب أن يكون حرس بوابات المؤسسات الإعلامية أكثر يقظة، فلا يسمحون بمرور الآباء، خاصة أولئك الموتى، المفقودين أو الشهداء.

لم أتدخل في حوار العالمين هذا رغم رفضي لمقولة العدو الثاني، لم أبح بأفكاري، ف ."منذر" يعجبني أحياناً ويكفيني مشقةَ فتح فمي، وهو ينبّه إلى عبارات المقال التي سمّاها "السمّ في العسل"، فعلى حين يدافع المقال عن ا لأردن، فإنه يسمّ ي الشعب بالمواطنين الحرونين . الله الله.. يشتمنا في عقر دارنا.. وينعت الجوارَ بالقسوة .. مشفق على بلدنا من شعبه ومن جيرانه العرب على وجه التحديد، لا أنكر ذكاءه في تحويل المعاني،ومزج الألوان وتضييع الملامح، والدفاع عن حكومتنا أو عرشنا، أشخبط بقلم أحمر مربعاتٍ في مثلثات في دوائر، وقد أقطع الخطوط أو

أقاطعها، "خرابيش جاج" يعني، وأتفرج بفضول على الأشكال التي لوّثت بياضَ الورق.

وقف مدير التحرير في الردهة منادياً باسمي، يا الله، لقد نسيت أني جزء من هذه المؤسسة الإعلامية، فإذا بالتكليف يتذكّرني، استثناءً، عليّ حضور جلسة مجلس النواب التي تنظر في قانون الخلع، نظر "سحلية" باستنكار قبل أن يفسر له مدير التحرير أسباب هذا القرار المتهور في تكليفي دون سواي، فالموضوع اهتمام نسائي تام، أحياناً يُخَيَّل إليّ أنهم يتذكّرونني سهواً، همس المدير بلؤم في أذني وأنا أنصرف ملبيةً نداء المهنة:

- من دون فذلكة، كلمة ورَدّ غطاها، اكتبي اللي بقولوه وبس.

أفسد فرحتي بذكر خيبتي.

قبل الوصول إلى ازدحام الحركة المرورية في قلب "العبدلي" توقفت بـ"فولكسي" الصفراء في الشارع المقابل لمجلس ا لأمة أتأمل الفن الرفيع الذي هندس هذا المبنى وذلك التو اؤم الفريد بينه وبين مسجد الملك عبدالله على الجهة المقابلة، يقع المبنيان الجميلان الأنيقان على مفترق المساحة بين عمّان الغربية وقاع المدينة الشعبي، وتزدحم الطرقات بالسيارات المتجهة إلى العمق أو تلك الخارجة إلى الضواحي، وتصطفّ خلف مجلس ا لأمة سيارات المحامين والقضاة الذين يتوجهون إلى المحكمة العدلية في الاتجاه المقابل مرتدين بدلات أنيقة تميزهم عن أصحاب الحاجات المتعرّقين الداخلين من البوابة الفارهة نفسها ليحسموا بالقضاء أموراً تعقدت في مسيرة حياتهم، كل تلك الحركة المشبعة بصهد الظهيرة وسياط الشمس و أوجاع الناس وغاياتهم تلتفّ التفافاً قاسياً حول مجلس الأمة الذي شفطني لحظةَ ولجتُ بوابته، كأن هناك سحراً للمكان .. إنه الفيصل المديني لمدينتنا، وهو الوجه المشرق لدولتنا. هذا ما سأكتبه، أبتسم لنفسي كأنني محترفة حصيفة، رسخت كليشيهات الصحافة الرائجة مكانها في ذهني واستعدادي النفسي، ونظراً للحصانة التي يتمتع بها هذا المجلس الموقر، والشرعية التي استمدّها من الانتخابات الحرة (لنتصرف بطيبة وننسى أمرَ كَيّ البطاقات)، فليس بالإمكان أن أسخر كعادتي من الأشياء والبشر المحيطين بي، وهكذا أكتشف أن مزاجي السرّي ينساق مرغماً إلى حكم القانون والمتعارَف عليه وحوله .. أسعد بكوني مواطنة نموذجية تحترم نوابها، رغم أني شخصياً تنازلت عن حقي وتهاونت بشأن الانتخاب، فلم أدمغ بطاقتي الانتخابية بالنجمة.

لكن امتثالي لمواطنتي المحترمة والملتزمة بالثوابث لم يمنع نارتي المشاغبة من مشاغلتي في أكثر اللحظات أهمية، وحين كان النواب يترافعون عن قضايا البيئة ويشيرون باستحياء مؤدب إلى بعض حالات الفساد والتطبيع، كصحفية تحترم مهنتها كان عَلَيّ أن أهتمّ وأبذل جهداً في رصد أقوالهم، على الأقل لآمن ردّة فعل مدير التحرير وعدم اغتياله لي مجدداً بالتناسي، لكني معذورة وأعرف الأسباب التي جاءت بنارتي المشاغبة إلى المكان، لم أتمكن من تجاهل النائب الذي يفقد توازن رأسه بين الفينة وا لأخرى فتسقط أجفانه ثم يتدلى رأسه إلى الأمام قبل أن يعدله في قفزة مفاجئة كلما سمع صيحة أو تصفيقاً في القاعة الدائرية، لم أتمكن من تجاهل التطريز الفلاحي للنائبة الجميلة وهو يلوح كباقي الوشم في معصم اليد، مبدداً جهود أبناء المدينة في تمدين القاعة، ثوبها جعل للريف ا لأردني حضور فاقعاً.. شد انتباهي التنافرُ بين الثياب، ا لإشارة الأكثر أهمية على اختلاف المنابت والجذور في بلد صغير قادر على ضَمّ المتناقضات تحت قبة البرلمان، أليست هذه التفصيلة مبعثَ فخرنا واعتزازنا؟ يجب أن أذكرها في تقريري، لكن الذي حال بيني وبين الاستماع الدقيق لمناقشة قانون الخلع، أولاً تأكدي المسبق من أن هذا القانون سيمر مرور الكرام كونه مطلبَ العولمة المجيدة، وثانياً مراقبتي ذلك النائبَ الذي كان يمصمص شفتيه متلذذاً بكلماته، يبربش عينيه موافقاً نفسه حول عبقرياته، يرقّص حاجبيه استنكاراً أو تعاطفاً محاولاً إيقاعك في فخ وجه ة نظره الجوهرية الفريدة، وزميله الذي يحرك كفيه ملولواً أنامله كمن ينقر أصابع البيانو، "يلخمك" ليطعمك تلك ا لأصابع الثخينة مثل حبّات الزلابيا، ف إذا ما انهمر صوته تيقن أنه أنشب أظافره في مخّك الصغير البريء، وكتب رسالته الخالدة، إلياذته التي لا تبزها إلياذة.

الحقّ أقول لكم، لقد شاهدت مثل هذه النماذج تماماً كأنها نسْخ كربوني أو جيني لا يقل عبقرية عن استنساخ النعجة "دوللي"، شاهدت هذه "المساطر" في منتديات المثقفين، وراقبت المثقفين يبربشون أعينهم ويمصمصون شفاهم على الصورة نفسها، يلولوون أناملهم أو يتحدثون برؤوس منطعجة كأنها "ملوية سامراء" العتيدة، يعلّقون عيونهم في ا لأعلى إذا ما تحدثوا كأنهم مثقف ون كوني ون، وقد يقلبون نظراتهم الطائرة الهائمة في ا لأفق كأنهم مستنسَخ ون عن "القذافي"، وهنا بيت القصيد.. لقد اكتشفت وجه التماثل والشبه بين المثقفين والسياسي ين، إنهم خرّيجو مدرسة

درامية واحدة في فن الأداء والتمثيل، وقد تكون لهم التوجّهات الحميدة نفسها، مَن هؤلاء الخبثاء الذين يقولون بمسافات ضوئية بين السياسي والمثقف؟ هذه إشاعة مغرضة يُراد بها شقّ الصفوف، ويجب وضع حدّ لانتشارها المدمر والمعيق لإنجازات مشتركة مباركة.

الحقّ أقول لكم، ما يجب أن يُلجَم، هو شطحات عقلي المدمرة التي منعتني من تبيُّن ما حدث حقاً في المجلس عدا تلك النتيجة التي لم أصدّقها ولم أتوقعها بردّ النواب لقانون الخلع، برافووووو، ما نزال قادرين على التصدي للتوجّه الدولي، والصراخ بأعلى صوتنا بأن رجالنا أكثر فحولة من أن يرتضوا بهذا الذلّ والعار في منح النساء حقّهن في الفراق مع دفع الحقوق المالية للرجل، وإعفائه من مترتبات هذا الزواج أو الطلاق، رجال حقيقيون، لا تُملى عليهم شروط ترفع ولايتهم على حريمهم وتحرمهم من حقوقهم في سحل النساء في ردهات المحاكم، رجال لا يرتضون الضيمَ، ولو جاء بأوامر من النظام العالمي الجديد.

أعترف أن "منذر" كتب الخبر عوضاً عن خبري مستعيناً بتقرير وكالة الأنباء "بترا"، ولكنه حوّر وعدّل قليلاً، ثم بكرم حاتمي كتب اسمي في مقدمة الخبر، فمنحني بهذا العطاء السخي شيئاً من الحرج المؤلم الذي جررته ورائي إلى السيارة قبل أن أصعد "جبل الأشرفية"، إلى متى سيخفي زملائي الطيبون عثراتي! فجأة، يكاد صدري ينشقّ ضحكاً، الضحك الكثير الذي أمارسه سراً يثير الشجن ويميت فرحة القلب، ولكن كل ما يحيط بي يكتسب تلك الطاقة الكوميدية التي ستنتهي بي إلى الوقوع في جبة الحزن.

خبر "منذر" الموقّع باسمي شفع لي عند مدير التحرير، بدا كما لو أننا ندخل مرحلة ثقة جديدة، فأخباري نموذجية، وتعليقاتي منعدمة، ودوامي منتظم، ومجلس النواب أبدى ثقته بالحكومة الجديدة، وردّ قانون العقوبات، وسحب جواز السفر الأحمر ممن امتلكوه زمناً من دون مسوّغ .. كل ما يحدث في البلاد والعباد يبعث على البهجة، ويشبه فرحة العيد على الأراجيح المخلّعة التي تتقابل فيها المقاعد الخشبية التي بالكاد تطير.. فرح غامر، وموال غزل علني ومقبول ومشفوع له مع العزيزة أم يركا، يغازلون انفتاحنا وديمقراطيتنا، ونغازل كرمهم ومواقفهم الشجاعة في مكافحة الإرهاب ونشر محلات الفلافل في البلاد طولاً وعرضاً، أعتذر، موضوع الفلافل هذا لم يحدث أبداً، من أين لأم يركا أن تعرف أننا أصبحنا نحب الفلافل؟ وأن مطاعمها انتشرت بالسرعة

نفسها والاجتياح نفسه الذي تشهده مطاعم الهمبرغر والبيتزا؟! الحق أننا نحشر أم يركا في كل شؤوننا رغماً عنها، رغبةً منا ورهبة، وأن كثير ين منا يدّعون بأنهم يفاجَ أون بتصريحات "بوش الابن" ومحبته العميقة ل ."شارون" ورعايته الدائمة لجارتنا التي وقّعنا معها معاهدة السلام (إسرائيل).. لا يخلو "بوش الصغير" من الخبث رغم طيبته وصراحته ، فكثيراً ما يفاجئنا، فيحرن الرؤساء العرب مثل أطفال اكتشفوا أن رفيق اللعب في الحارة يتقاسم مع فتى من حارة أخرى سندويشاتهم، ويسمح له بركوب دراجتهم من وراء ظهورهم . ما يزال الرؤساء ببراءتهم الأولى، براءة يفتقر لها الصحفيون والكتّاب، غير أن جارتنا "أم موفق" التي جاءت لتلقّي خبر إضرابي عن الزواج، وجلست تقزقز بزر البطيخ أمام شاشة تلفازنا، وتصدر أصواتاً كقرض الفئران تتبعها بتفّ ناعم باتجاه كيس من النايلون، سألت جادّة لتجيب:

- شو رأيك يا صحفية؟ والله ما أنا داري من شو متعجبين! قال مش عارفين! انصدموا الحزانى، قطيعة، والله أني كنت عارفة هيك بدّه يسوّي "بوش"، مش هجرة!

رغم ظني للوهلة الأولى أنها تقصد سذاجة ابنها، إلا أني تبيّنتُ سرعتها في تناسي مهمتها الأساسية العائلية، عندما راحت تشاطرني نقاشاً سياسياً رفيعاً وهي تشفط الشاي قبل أن يبرد .. شعرت بالاسترخاء وأنا أُجالس امرأة لا تحمّل نفسها عبءَ الإلحاح في مسألة الخطبة لابنها، خاصة أن بكاء "شعبان" بدأ يختلط بحديثنا . استمعت بإعجاب لتحليلها السياسي وتكهناتها حول ما سيفعله رئيس الولايات المتحدة الأم يركية. أذهلتني بمعرفتها وذكائها، تحكي ما سيفعله الرجل وما قد يكون سراً عسكرياً وسياسياً لا يعلم به إلاّ خبراء البنتا غون، كأنها ضالعة مع المخابرات الأم‌يركية، تشير عليهم وتنسّق معهم، اللئيمة! هذا وارد في زمن ا لأعاجيب.. إذا كان صاحب الدكان على الناصية صاحب رقم ورتبة في يوم من الأيام الغابرة، لماذا لا تكون هناك أسرار حول أسلحة الدمار الشامل في حوزة الحيزبون "أم موفق"! أو لعل الحجاب رُفع عنها، فصارت من أصحاب الكرامات، وإلا كيف لها أن تعرف أن "بوش" سيساند "شارون" حتى آخر قطرة دم فلسطينية، رغم أن أحوالنا معه سمن على عسل، وبيننا من الخفايا ما لا يعلم بها إلاّ الله، و"أم موفق".

الرؤساء "يا حرام" يفاجَأون بموقف "بوش" كل مرة، يُصدَمون "الحزانى" على حدّ تعبيرها

بصراحة، للّهجة الشعبية عبقرية لا تتمتع بها الفصحى، أما الحكام فلعلهم أكثر انشغالاً بحال شعوبهم، وهذا النمس "بوش" يغتنم الفرصة لمد اعبتهم بقسوة، يتحرك من ورائهم ومن دون علمهم، يوزع سندويشات الزيت والزعتر التي أعدّها أمهاته م زوادةً للشبع، على أولاد الحارة المنافِسة، ويترك "البسكليتات" الآمنة عرضةً لركوب المارّين من العصابات والحرامية الذين يحملون "الأمواس" والسلاسل القوية، وجارتنا "أم موفق" تحكي ما سيفعله "بوش" كأنها تقرأ أفعاله في فنجان القهوة المقلوب.. هذه المرأة ثروة قومية، وعلينا استغلالها كمحلل استراتيجي أو مستشار سياسي، ولكن منذ متى يستشير أحد امرأة مثلها؟! صيف حار، وقد جلس النواب لإعطاء الثقة بالحكومة، وقلت لمدير التحرير بثقة ما بيننا من ودّ مفاجئ:

- اعفِني، يمكن "منذر" أفهم بالسياسة، أنا حابةِأروح على مهرجان جرش.

سيارتي تكركع، وهناك دخان أسود ينفلت من مؤخرتها بين الحين وا لآخر، أرهقني الميكانيكي عند نزلة "الأشرفية" عبثاً ببطن السيارة المسكينة، ومع ذلك قدتُها حتى شارع ا لأعمدة في جرش مسافةَ ساعة وسط تتابع السيارات الخارجة من عمّان لحضور المهرجان، قبل الوصول رحت أغنّي بصوت مرتفع أغنية لـ"فيروز"، ضحك "حسن" الجالس في المقعد المجاور متّهماً ذوقي بالخلل.

- مش حافظة إشي من شعر "أدونيس"! على الأقل وانتِ رايحة تكتبي عن أمسية الافتتاح اللي بدّه يغنّي فيها.

- يا فهيم، قبل ما تتفلسف شوف حالك، أولاً "أدونيس" مش مغنّي، شاعر، وبعدين شو بحفّظني هيك خزعبلات؟ لا يكون مفكْرُه المتنبي!

- مين المتنبي؟

- واحد شغل الناس وراح، الله لا يردّه، مش مهم.

- والله صايره مثقفة!

- مَن عاشر القوم أربعين يوم أ، وبعدين ها ي ثقافة عناوين، ا لأهم ثقافة الغناء الخفيف "أخاصمك آه".

واصلت الغناء، وحسن يردد خلفي "أسيِك لا"، هكذا اقتنعت أننا نشبه مهرجان جرش السنوي ونقيم مهرجاننا الحميم في السيارة، غفرت للناس التصادم الذي لا يليق في المدرج الأثري الروماني

المبهر، نظراً لأن "نانسي عجرم" جميلة مثل دمية باربي وأحلى، تناسيت الازدحام، كما تجاهلت الحرارة التي انصبّت فوق الرؤوس قبل ساعات من غياب الشمس، وظهور السنيورة ا لأمّورة على المسرح الذي استضاف في الماضي "فيروز" و"ماجدة الرومي"، واليوم يقتفي آثار الموضة. ثوب "نانسي" كان على آخر خطوط الموضة، مشدود ملصوق، شفيف مثل أداء الحكومات النزيهة، وكانت الفنانة الفاتنة ذكية ومبدعة، إذا خانها الميكر وفون أو صوتها، وفترت صفقات آلاف المعجبين المنتشرين المتسامحين مع أوجاع مؤخراتهم إثر الجلوس الطويل على حجارة المدرّج، تستدير مثل حنظلة "ناجي العلي"، وتبدأ في وصلة تَلَوٍّ مثيرة ومبدعة تختز ل كلّ فنون الشرق، فتشتعل الحماس ة مجدداً في دماء المتعبين، ويصيح الحضور كلهم، أردنيين وسواح اً خليجيين وعرباً وأوروبيين فضوليين، يصيحون معاً وأنا معهم، بصوت قوي واثق: "أخاصمك آه، أسيبك لا"، ويهتف "حسن" بحماسة منقطعة النظير:

- تعيش "نانسي عجرم"، تعيش، تعيش، تعيش.

الغشيم، التبس عليه الأمر، فظن أننا في مظاهرة من أيام زمان.

أما مقالي "الجرشي" فلم أسمح ل."منذر" أن يضع فيه نقطة واحدة، في محاولة للتمرد ولإثبات قدراتي الذاتية، مع ذلك نال الاستحسان، خاصة أن الصحف الأخرى هاجمت ضيفتنا الفنانة بما لا يليق، ورحبتُ أنا بها مثمّنةً دورها في إشاعة الفرح بين جمهور حزين . أنا شخصياً شعرت بالفرح، ليس هناك حولي من هو أجمل من "نانسي عجرم"، فكيف لا أفرح بالبقية الباقية من دلال المرأة وأنوثتها وسطوتها الجماهيرية، رغم أن مدير التحرير أساء الحكم عليّ مرجّحاً أني أصلح تماماً لمثل هذه الأخبار الخفيفة اللطيفة، فحرص على تحويلي إلى كتابة تقارير سريعة وموجزة عما حدث في برنامج "سوبر ستار" التلفزيوني، لو أنه تكرم بإرسالي إلى بيروت أسوةً ببنت الكردي مذيعة البرنامج الحسناء، لهان الأمر، ولتحملت مشاق المهمة ببعض المشي على كورنيش البحر الذي لا نعرفه، أو في "شارع الحمرا" الشهير، ولكنه طالبني بمشاهدة البرنامج مساء كل أحد وموافاته عن حجم التصويت ل ."ديانا كروزون" ونوع الأغاني التي اختارتها منافستها "رويده عطية"، ورصد أي تآمر بينها وبين الفتي م كتنز الوجنات "ملحم زين"، وبالطبع كان لا بد من الإشادة بالحملة الإعلانية التي أطلقتها شركات الاتصال ومالكي الموبايلات

لدعم بطّة ا لأردن ذات الصوت الذهبي . بصراحة كنت أنجز مهمة وطنية، وأتورط بالتصويت أيضاً كي لا أرى تلك السورية "سوبر ستار" للعرب، أما كفاهم مطربات ومطربات لأعوام طويلة سابقة، ليفسحوا لنا مجالاً، "ا لأردن أولاً "وإننا قادمون، وها هي "ديانا" تشق الصفوف دافعةً بجسدها العريض وصوتها القوي جموع المتنافسين، الكارثة الوحيدة في هذا الشأن أني كنت مضطرة لمشاهدة البرنامج وسط ا لأعزاء "رمضان" و"شعبان" و"فتحية"، بالطبع يجلس "حسن" لتخفيف غربتي، أحبّ سخريته من الأمور التي تنبثق عن المهام الجسام، أحبّ بساطته، براءته، أحبّ نفسي معه حيث أكون نقية ككرة ثلجية، طفلة بجديلتين، أحب ا لارتماء في أحضان بهجته الخالصة، هكذا أحتمل عمّي وزوجه و"ملاكهما" الصغير، هكذا أحتمل العمر نعيماً وعذاباً.

في خضم متابعتنا الجادة للحملة الشعبية والرسمية لإيصال فاتنتنا الجسيمة إلى لقب "سوبر ستار العرب"، أتوقف لحظات أمام الهجوم على مقر الأمم المتحدة ببغداد بقتلاه وجرحاه الكثر، أتعامل مع روحي كما أتعامل مع غريق، أشرئب برأسي فوق الموج وأتنفس وأحاول الإبقاء على ناري مشتعلة، لا أدّعي أن مثل هذه الأخبار المكرورة توجعني إلى حد الموت كما يفعل الشعراء والكتّاب عادة، لعلي تبلّدت قليلاً في سعيي لتوطيد أركان مناعتي، لعلّي أقل حساسية من الآخرين في انشغالي بحماية نفسي من الانهيار، لعل هذا البرود حصني المنيع في وجه الحياة، لعل الكل مثلي، وإلا كيف يتسنّى لشعبنا أن يواصل التصويت لمعبودة الجماهير ذات العيون الكحيلة والنظرات التي تذكّر بلمعان عينَيّ "سميرة توفيق" في صباها رغم مقتل ممثل "كوفي عنان" في بغداد، ووقوع ما لا يقل عن مئة وخمسين إنساناً من لحم ودم مثلنا بين جريح وقتيل في انفجار حافلتين في القدس، وإيقاف "إسرائيل" للمباحثات بينها وبين الفلسطينيين ! نحن مصابون بداء اللامبالاة. إنها خبرة السنوات الطويلة من الدماء المستنزفة وموت الأحلام وتوقف السعي نحوها والزحف على رمضائها . فقط نفتح أعيننا دهشةً عند اعتقال "طه ياسين رمضان" ونعود لتلك الأجهزة العجائبية فنضغط على أزرارها لإيصال دعمنا ومحبتنا وتأييدنا ل ."ديانا كروزن" التي وصلت إلى اللقب المعجز المثير، وتسنمت المكانةَ اللائقة الرفيعة في دنيا الطرب في الزمان الذي استلمنا فيه الجثمانَ المفتت لصحفيتنا الصغيرة النحيلة "رهام الفرا" التي شطرتها القنابل أشلاءً في

بغداد.. بغداد.. بغداد.. جرح جديد، سأخيطه على صديده وأنساه.

صمتُ حارتنا يشبه صمت العالم إزاء ما يحدث كل يوم . الغريب أن الحارة تكون في حراك قبل أن تقتحم "الفولكس" الصفراء الدربَ، فإذا ما لاحت وعمّ المكان رجعُ نشازها، تبتلع الأصوات امتدادها، وتنكفئ من دون مبرر، أهو مروري؟ متى أضحيت بهذه الأهمية؟ متى اكتسبت تلك الهيبة التي تدفع الصغار الذين كانوا يلاحقون الكرة ويتدافعون بالمناكب، إلى الاصطفاف عند جانبي الطريق مفسحين لـ"عطوفتي" الدخول بجلال إلى الحارة؟ أوقف السيارة عند أول النزلة، لا أثق بقوة المكابح فيها، وتراودني الأفكار أحياناً حول احتمال أن أصحو لأجد سيارتي تهورت حتى النهاية جارفةً في دربها عامود البلدية الذي يحمل إشارة "تمهل أمامك مطبّ "، إذا ما ترجلت من سيارتي بدا لي الشارع مثل لقطة في فيلم مشوّش بطيء، بسبب خلل حدث في بكرة التشغيل، يتحول الراكضون إلى مجرد أشباح تتحرك بصمت، يتناقص الهواء تدريجياً حتى لينعدم، حركة بليدة تؤكد كونَ كل ما يحيط بنا مزاحٌ سمج، الحركة الوحيدة التي ألمحها في تلك اللحظة، يدُ صاحب الدكان المخابراتي المتقاعد تمتد نحو مذياع صغير معلّق في منتصف بابه الحديدي، أتنبه إلى كون المذياع ليس معلّقاً للعرض تماماً، كأنه مخبّأ! يلوح بصعوبة بين كراكيب ا لألعاب البلاستيكية وفراء ا لأرانب ذات العيون الزجاجية الملونة .. تعبث يد صاحب الدكان بمفاتيح المذياع، أقترب أكثر فأتبين وراء شاشة بلاستيكية شريطاً بنّياً كابياً يتوقف عن الدوران بتوقف أنامل صاحب الدكان عن العبث بالمفاتيح، أدرك من دون دلالة أن المذياع مسجل صغير ..

عندما أجتاز الرجل، تتفتح الفكرة في مخيلتي، صاحب الدكان ارتد إلى الداخل بمجرد رؤيتي كلصّ مذعور ضُبط متلبساً، ورغم أن قدمَيّ واصلتا جرّ جسدي باتجاه البيت، وأني كنت أخيّر نفسي بين الصعود إلى حجرتي أو السلام على جدّي في القبو، إلاّ أن الفكرة اندلقت فجأة كحمم بركانية .. لماذا يسّجل هذا المأفون ؟! ولمن؟ ! إذا افترضنا أن الصغار اللاعبين في الحارة خطر على الأمن القومي، فإن كل ما سيتداولونه هذه الأيام تحديداً مفاضلة ساذجة بين "ديانا كرزون" و"رويدة عطية" الرشيقة، سينحازون لخير بلدهم الوفير وهو يفيض في زنديّ البطة ديانا. وإذا ما مرت "أم صبحي" فإنها ستسأله عن سعر المطهّر المقلّد لماركة "ديتول" والذي يفوح برائحة كريهة. وليس مرور جدّي بمحتمَل ولا هو بمفيد نظراً لصمته. "أم موفق" الخطيرة قد تكون

غاضبة لحظة مرورها فتسبّ "سنسفيل أبو بوش "، بوصفها متخصصة فيما يفعله في الشرق الأوسط، ولكنه تخصص لا يزعج أحداً ولا يتجاوز قيد أنملة قيمة وأثر المحللين السياس يين في الدوائر العربية شرقاً وغرباً. وبطبيعة الحال لا يظن صاحب الدكان أن "وداد" ستقف معاتبةً فتاها النذل تحت حديد الدكان الصدئ، هي تفضّل درَج بيتنا حيث لن تصل أصواتهما إلا إلى جدّي الحريص على كتمان الأسرار في بئره العميق ة. وأنا أمرّ صامتة عادةً، وعمّي المتجهم لا يحدّث أحداً، و"فتحية" قد تترك صوت بكاء "شعبان" وهو في حالة مغص قوية مسجَّلاً كسيمفونية للفزع.. لمن يسجّل هذا المتقاعد في حارة أُحيلت على المعاش أسوةً به!! أم هي الخبرة السابقة التي لا يمكن التخلّي عن شرورها ومحاسنها!

لأن الفكرة اكتملت في مخيلتي، دفعتُ باب القبو الغارق في العتمة، داهمتني رائحة برميل السولار الذي تركته "فتحية" الحمقاء هناك، لم أنتظر لحظات لمعرفة طريقي، بسهولة عثرت كفّي على ذراع جدّي، شددته مقهقهة:

– بعدك قاعد، قوم، قوم يا زلمة، تعال نتسلّى، نروح سَوَا، نحكي عند مسجّل الدكان، مثل ما بدنا، عن جَدّ مش مزح.. مثل ما بدنا، اعتبرها "هايد بارك الأشرفية"، تعال نحكي نكت سافلة يتسلى عليها صاحب الدكان في المسا، تعال نعترف عن أسلحة الدمار الشامل اللي مخبّيها في القبو، يلاّ بطّل لؤم، وعامل حالك ساكت وناسي، تعال نغنّي ونسجّل لصاحبنا الدكنجي أغنية "فوق الخيل فوق الخيل شد العزم وشد الحيل".

استجاب جسد جدّي لشدّ ذراعي، لكن ذاكرته أبت ا لانصياع، ولأني تمكّنت من رؤية نظراته الفارغة المحايدة، توقفت عن ثرثرتي وقهقهتي التي لا تراعي احتراماً، مررت كفّي بحنو فوق جبهته، خصلة شعره المبللة بعرَقه التصقت عند فوديه، ففاض قلبي حناناً، قبّلته وأنا أشتمّ رائحته الحريفة الناشئة من تباعد أيام حمّامه الخاص، امتزجت رائحته بعنف برحيق السولار، وكأن حنجرته همهمت بأحرف ما، سألته إذا كان قد تناول طعاماً اليوم، كعادته لم يجب، فانصرفت إلى المطبخ أبحث عن بقايا طعام لي وله.

يمكن أن أتعامل مع مجمل الحياة التي تمر ببرود يماثل برود الأمة حيالها، كأني عينة نموذجية لبلادة الإحساس، غير أني أقلّب جمري على طريقتي . بصراحة، لا أعرف ما هي طريقتي هذه . لم يعد

"حسن" قادراً على معرفة إمكانياتي وردود فعلي حيال الأحداث، وأشفقت على نفسي من هذه المسافة الغامضة بيني وبين قريني الأثير، ولكنه كان يفتح فاه مندهشاً وأنا أعلّق على عملية اغتيال "باقر الحكيم"، وعلى مجازر النجف التي يتساقط فيها الضحايا تباعاً:
- فصل جديد في كتاب الملاطم الشيعية، شيء ملّ.
ليس ذلك أني لا أهتمّ، ولكني لم أعد أملك القدرة على تفتيت هذا القلب بين دمٍ في العراق ودمٍ في جنين، ومسجّل صاحب الدكان الأخرق، الذي إن كُشف أمره لن يحظى بكرسي وثير أحمر ككرسي أسياده، وسيكون من السهل جعله كبش فداء . أعتنق اليوم ما يمكن أن يسمّى "فلسفة البلادة"، يقول "حسن" إن دمي صار ثقيلاً، وإني بتُّ سوداوية إلى حدّ لا يطاق . أفكر جادّة في إعفائه من مرافقة هذه السوداوية، ولكن جانباً مضيئاً في النفس يقول :"حاولي مرة أخرى". يتجدد الأمل باستعادة نفسي مثلما يتجدد أمل الحالمين بالجوائز والهدايا كلما أطاروا غطاء عبوة "البيبسي" ليجدوا تلك العبارة "حاول مرة أخرى".
مهنياً أحاول بوقاحة عالية، لأن توالي الخيبات يملي على الإنسان المتّزن الانسحاب في اللحظة المناسبة، وها أنذا أواصل وقد صممت أذني عن نداء المنطق، ومدير التحرير الذي تهاون معي مؤخراً وغفر جهالتي السابقة، متوقعاً أن الاحتكاك المهني لا بد سيعطيني الفرصة لأجود بقدراتي، عاد وتخلّى عن أوهامه، حين ناقشته مطولاً بضرورة إفراد صفحة كاملة للحديث عن خطيبة ولي العهد، "الأميرة نور".. عندما ظهرت صورتها للمرة الأولى على صفحات الصحف تملّيت هذا الحسن الناعم المترف وتلك النظرة الحلوة، وقلت بحماسة: "إنه وجه ملكة". لم تعجب ملاحظتي الزملاء.
- صار ولي العهد ذا النورين، "نور" ثالثة وبطلع في الأردن كرز.
بكامل براءتي كنت أتحدث عن اسم "نور" الذي تكرر في حياة ولي العهد مرتين، مرة أمه، ومرة خطيبته، رغم أني أعي بأن اسم الأم هذا مستعار لضرورات التنصيب الملكيّ.
انزلقت كباتي "كعب الكباية" فوق أنفه وهو ينظر نحوي نظرة تحذير، وقال لي "منذر":
- وبعدين معاكِ!
الزملاء الطيبون يحاولون وضع المطبات أمام تهوري المجاني، لماذا يتمشى الذعر في الطرقات؟ حتى

لو لم تكن صحيفتنا "هايد بارك" الديمقراطية، فإننا ندردش ببراءة الأطفال، مجرد دردشة، حتى لو أن صاحب الدكان خبأ مسجلاً في مكان ما! فمثل هذه التعليقات تقال في الطرقات، تقولها "أم موفق " بشجاعة من دون أدنى حرج، تقولها "فتحية " وهي تقارن خيبتها بحظّ النورَين، المعتوهة، شو جاب لجاب!! لماذا لا نتمكن من الضحك مع أنفسنا وعن أنفسنا؟! ازداد اقتناعي بأننا شعب عبوس.

في صحيفتنا الغراء يجب وضع حد بين الجدّ واللعب، حفاظاً على وقارنا الأزلي، وتأكيد أ على قدرتنا الفذة بالاستمرار من دون الانزلاق إلى مراتب الصحف الصفراء التي تحوّل الفأر جملاً. في كل لحظة أحتاج إلى تذكيري بموقعي الصحفي المتميز، وبالسياسة العامة التي لا تنسجم بتاتاً مع مزاجي. كثيراً ما تأتي الأخبار منسجمة معي، ولكن يُطلب مني تحديداً تقطيع أوصالها وتهذيبها واغتيال قيمتها ودلالتها، كأن تدجيني لا يتم إلا بهذه العملية التعسفية . بمثل هذه الروح الباردة كتبت خبر ظهور قرد في حديقة مجلس الوزراء واختفا ئه في الواقع كتبت بدايةً ما يشبه القصة القصيرة . ربما منذ هذه الحادثة اكتشفت رغبتي الخفية بالتحول إلى دنيا الكتّاب المبدعين

تنطّطت قرود الكلام في رأسي مثل القرد الذي ظهر في الدوار ا لرابع مقتحماً مبنى رئاسة الوزراء العتيد المحاط بالحرس والرشاشات ا لأوتوماتيكية . هذا القرد المجلوب حتماً من غابات إفريقيا والذي لا يوجد له شبيه عندنا، ربما في حديقة الحيوانات، هل يوجد لدينا حديقة حيوانات أساساً؟! لا بد أن القرد النادر فرّ من أحد البيوت الفارهة للدبلوماسيين والأثرياء والتي تشق جبل عمّان وصولاً إلى الضواحي الغربية . أعتقد أن الأمر على درجة عالية من الأهمية والخطورة بعكس ما أبديته عند صياغة الخبر الجاف الذي وافق عليه مدير التحرير . لا بد من طرح أسئلة كثيرة: ما الذي أتى بالقرد إلى هذا المكان تحديداً؟ وكيف لم يبلّغ صاحبه عن اختفا ئه؟ فليس من المنطقي الافتراض أنه بلا صاحب يقتنيه في بلاد لا تتوالد فيها القرود . هل كان مزوداً بجهاز تسجيل أسوة بمذياع صاحب الدكان؟ أو لعله يحمل فيروس ا لإيدز المدمر وأُطلق لهدفٍ ما نحو مبنى رئاستنا الموقرة كما تُطلَق العاملات الصينيات في شوارع مدينة إربد .. ثم وهذا الأهم، من هم الموظفون الذين قضوا نهارهم يحاولون ا لإمساك بذيله المنفلت الطويل وهو يتقافز كالعصفور من فنن إلى فنن في الحديقة الغنّاء قبل أن يختفي تماماً ؟! كل هذه التحليلات الذكية المرافقة

للخبر قمت بقصقصتها كخيّاطة ماهرة تصغّر ثوبها ليليق بصغيرتها . حزتُ إعجابَ مديري، ولكني لم أرضَ عن حرفيتي المريضة تلك. لا يروقني هذا التبسط في معالجة أمر مثل هذا، كما لم تعجبني نظرات الاستنكار التي حدجني بها "سحلية" عندما تغزلت بعينَيّ ا لأميرة الجديدة، نحن نقزّم الكبير وننفخ البالونات الصغيرة، ربما لهذا أضعنا فلسطين، ما أغرب ما تأتي به الأفكار! ما علاقة فلسطين بالقرد الهارب في حدائق جبل عمّان الغناء؟!

كلّ ترّهات النهار التي أحاول تفاديها بوصفها نفلاً زائداً في حياتي التي لا معا لم لها، تعاودني ليلاً. تبدو الأشياء بعيدة متنحّية عن دربي، لكنها تتسلل كلص ظريف في خفايا النوم، تحديداً في الأيام التي أنسى فيها اصطحاب "حسن" إلى سريري، بتّ أنسى اصطحابه أحياناً أسوةً بكل العشاق الملولين . يظل جالساً في كرسيه يراقبني وأنا أتعرض لاغتيال أحلام المنامات . تخرج أحلامي من عباءاتها وتتمشى في حجرتي. تتجسد كأنها ممثلة إغراء تفضح جسدها على خشبة المسرح. تأتي الأحلام أحياناً على هيئة "فتحية" وعمّي، وهذه ألطف تجسّداتها . تبدأ "فتحية" بالدوران حولي بحركة منتظمة، يتبعها عمي أو يسبقها، لا أتمكن من التحديد، ذلك أني نائمة والموقف دائري للغاية . "فتحية" تحمل "شعبان" في بعض الأحلام ، وقد تحمل مغرفة شوربة العدس، يخبئ عمّي وراء ظهره شيئاً ما، ومهما بذلت جهداً لاكتشاف هذا الشيء وتحديد ماهيته أفشل، فكلما تمكنت من رؤية معصمه أكملَ دورانه حاجباً الشيء عن مرمى نظري، وفي معظم الأحيان لا أتحرك . مرات قليلة كنت أسبقهما وأشارك في حركة الدوران المهووسة حتى أدوخ كما في حلقة الزار، فأعاود النوم من جديد، ولا أكاد أميز الحلم من الواقع، يخيَّل إليّ أن دوراننا هو الواقع فأهرب منه بالنوم العميق، لأسقط في فخ طبقة جديدة لحلم آخر، يتجسد بصورة قاسية ويفتقر إلى رحمة الله، تخرج الأحلام من أجساد حيوانية . يكون هناك جمع من الضباع يأكلون لحمي بنهم وشراهة، وأشعر بدمي يسيل على فتحات شفاههم المدلاّة، ثم، كما خلْق جديد، يتجدد اللحم في نموٍّ أكثر إيلاماً من انتزاعه، وأتقلّب في هذا الوجع المضني قبل أن تلوح إشارة تنبئني بأن ما أراه مجرد حلم يمكنني الاستيقاظ منه والتقاط أنفاسي وتجفيف عَرَقي عند أول بارقة للفجر . أنظر بعتب نحو "حسن" كأنه من تسبب في وقوعي في الهاوية بجلوسه البارد على الكرسي مراقباً . النذل يريدني أن أستدعيه دائماً، لا يأتي حين الحاجة من تلقاء

نفسه . الحبيب يشعر بنظرات العتب المسلّطة عليه، تنهار المسافات بيننا ويقترب ويحتويني، نتشاغل بِعَدّ تجاعيد نا على الجفنين المرهقين في زاوية الفم.. حيث تحمل كل ابتسامة ألماً غامضاً.. لم نعد أطفالاً.. اجتزنا مفازة الصبا.. دخلنا في البرزخ.. حيث لا فكاك وحيث نسرق أفراحنا من غضون الوجه الحزين، من العلامات التي تحْدثها المخدات على وجناتنا حين تتكرمش جلودنا وتنسحق وجناتنا، من هناك نسطو على لحظات حلم اليقظة فنحلّق والعا لم يهبط، يسقط وراءنا، نغرد في زمن النوح.. لكوابيس الليل فوائد إذا ما انتهينا بإلقاء أنفسنا في فردوس المتعة، أعرف أنا و"حسن" أن حبّاً كهذا ما كان ليتحقق لولا الحجرة الخضراء.. بتث شيئاً من بهجتها و إن بهتت، مغلقة على سرّنا الأزلي حيث يمكننا الإجهاز على الكون وصنع عالمنا الخاص، ما أزال لا أعي أيّ التفاصيل هي الحلم، وأيها الواقع، أعرف أني عندما أغمض عيني سيكون سهلاً تماماً أن يتلاشى هذا ال"حَسَن" الذي رافقني عمراً، ينفلش مثل هباء، كأنه ما كان، كأنه شوال عبأته رملاً، خواء حشوته زمناً برَجُل! رجل لا يستطيع أن يمد يده وأنا أهو ي من جرف عالٍ! رجل لا صوت له يناديني! لا يكون إلا إذا ناديته باسمه، ولا يتشكل إلا إذا رسمته على أطراف الخيال، ماذا أفعل عمري كله بهذه الدمية التي فصّلها خ اطري واخترعتُ وخطتُ صفاتها على هواي؟! هذه مرحلة جديدة من أحلام الصباح.

يحدث خلط كبير، قبل أن يبدأ عقلي باحتلال مكانته ويتقدم ليحلل ويفصل ويعيد ترتيب الأشياء.

الكائن الذي أصيره عندما أرتدي ثيابي وأُخرج مفاتيح سيارتي وأنا متجهة نحوها قطعاً غير الذي أظنه بنفسي، فأنا لم أتبين مدى تلك الرهبة التي يُحدثها مروري لولا صمت الشارع، كما لم أتبين مدى الغموض الذي تتحرك فيه علاق تي الشائهة الشائكة مع "فتحية" وزوجها، إلاّ وهي تعبر الشارع بمحاذاتي تحمل "شعبان" بوجد وجزع أم حقيق يٍة تشقق كيس بطنها لانتفاخه بالثمرة، وشطر فرجُها عندما أطلّ رأسٌ منه نحو العا لم، أحيّي قدرتها على لعب الدَّور بجدارة، ولو أنها تفادت الالتقاء بي عند الدرَج، قلت باستهانة:

- عَ وين من الصبح؟!

- عمّك طلع بدري.

هذا ليس جواباً عن سؤالي، أي حوار عقيم يقوم بيننا نحن سكان البيت نفسه الذي سيؤول إلى قطعة اللحم الباكية بين ذراعيها . أوشكتُ أن أكمل طريقي، لكن صيحات "شعبان" المرورة منعتني، كأني انزعجت أيضاً لإجابتها البليدة، ماذا أتوقع من "فتحية"! كتلة الغباء التي أمامي، ماذا أتوقع منها؟ ها أنا أتقلب بين احتقاري لها وإعجابي الذي مرَقَ كَسَهْمٍ منذ ثوانٍ.

- طيّب، على وين؟ بَوَصْلِك.

لا أعرف سبباً لكرمي الصباحي هذا، إلا أني لم أكن راغبة في الوصول إلى المكتب . أشرق وجهها، الأمر يستحق إذا كنا سنكتشف إشراقة لوجه السيدة "فتحية" الكظيم . انفلت لسانها متحمساً:

- يكثّر خيرك، والله بدّي أقولّك، بس خفت نعطلك عن شغلك.

أيّ شغل! تحرير فلسطين بانتظاري! واصلت حماسها رغم صمتي:

- "شعبان" زي النار، طول الليل ما نام.

هل رأى كوابيسي تتمشّى في حجرات البيت ليلاً!

- خير!

- لُوزه ملتهبات، وقلت لعمّك من امبارح ما أخد ولا أعطى، الله يسامحه، هَيّ الولد طق من العياط.

ركبتْ سيارتي الصفراء للمرة الأولى. لم يركب أيهّم سيارتي، وحده "حسن" يرافق مشاويري . علا صوت "شعبان"، من دون إكراه اصطحبت الضباع معي إلى حيز يخصّني وحدي . تواصل صراخه، وأنا أقود سيارتي بلهفة الأم نحو "مستشفى الأشرفية". تقمصت الدور الإنساني تماماً من دون أدنى إحساس بأني أمثّل . كنت صادقة كما يجدر بي . لا يمكن القول إني صنعت معجزة هذا الصباح، فكل ما في الأمر أني اصطحبت امرأة وطفلاً إلى المستشفى ثم جلست أتفرج على أرتال المنتظرين دورَهم، يحملون أوجاعهم ويراكمونها في مقاعد الانتظار المخزقة المكسّرة التي تصيب العامود الفقري بالتواء غريب . الروائح الحادة المنبعثة من كل جانب، والآهات ، والعيون المنكسرة، والأجساد التي تجرّ أوجاعها في الممرات الطويلة العابقة برائحة الصنين والمطهّرات

الممرضات اللواتي يتحركن بتثاقل، والأطباء الشبان الذين يرخون السماعات الطبية على صدورهم.. كل هذا الوجع صفعني بقسوة وحرّضني على تحقيق صحفي، حين قالت "فتحية":

- روحي لشغلك، احنا بنستنّى الدور.

- هذا شغلي.

نظرتني بعيون ماعز تفتقر إلى الفهم . أكتشف الجانب الس يئ في مهنتي المقدسة . صار الوجع مهنتي، شغلي . الموتُ سبقٌ صحفي مهم، ربما مثل الحانوتي الذي يفيد من تكاثر الموتى، أصبحت أجد لذةً للوجع، بمعنى أنه يشكل المادة الأولية للخبر الصحفي. عبرت درب الاحتراف باتجاه موات العواطف . هل هي مهنتي المسؤولة عن هذا المنحى ال لاإنساني، أم إنها طبيعتي التي ساعدتني وأنا أصحو من كابوس الصباح كي أغازل "حسن"، ثم أمضي كأي ة مواطنة لطيفة حساسة في توصيل "شعبان" إلى المستشفى ليعالَج من التهاب في لوزتيه!

هناك معلومات لا يمكن التأكد من صحتها إلا بسؤال مختصّ، لهذا راودتني فكرة استيقاف أحد الأطباء الوسيمين الذين يمرون مزدهين بمر ايلهم البيضاء، لسؤاله عمّا إذا كان التهاب اللّوز تين قادر على قتل طفل أتمّ عامه الأول فقط! يحق لي أن أفزع من أفكار شيطانية تداهمني في أنبل اللحظات الإنسانية، كأني منذورة للشرّ، أو أني جئت للتأكد من موت الرضيع لا إسعافه، لهذا رفعت حقيبتي التي كنت ألقيها بإهمال على الأرض، ووقفت بنزق منصرفة من دون النظر نحو "فتحية" وكبشها الصغير الصارخ في حضنها والذي أردته لوهلة أضحيةً مناسبة، خاصة وقد ارتفع أذان بصوت شجي وفي غير أوقات الصلاة من مسجد "أبو درويش" المجاور للمستشفى. غيرت رأيي عند وصولي إلى المكتب، لم يعد جسد "شعبان" الواهن المريض أضحيةً مغرية، وكأني أتطهّر بسببٍ من وجع الصرخات التي جادَ بها الرضيع هذا الصباح، كأني غفرت له جريمةً ارتكبها بتشريفه إلى الدنيا فرداً لا لزوم له إلا سرقتي مع سبق ا لإصرار والترصد. تدحرج الغفران إلى فؤادي المتعَب مثل مسيح ، ولعلي كنت أسير منوَّمة بفعل هذا الشعور العذب بالارتياح، لأصطدم بصدر " أمرك سيدي" ، الذي كان يستعد لمغادرة الصحيفة، إلا أنه انحرف إثر اصطدامنا العفوي وساوى بين خطواتنا، فدخلنا المؤسسة معاً، قال بارتباك مكشوف:

- كنت رايح..

لم يكن لبقية الكلام الذي يمكن أن يقال معنى، رايح! جاي! لا شأن لي، واصلنا الاستماع إلى صوت خطواتنا الصاعدة إلى المكتب، راح يعيد ترتيب الأوراق أو نبشها، محْدثاً فوضى بلهاء، لعله يبحث عن ورقة نسيها فأعادته، أطل "هيد آند شولدر" عند الباب محتجّاً:

- معقول، بعدَك هون! وأنا بفكرَك سبقترلي.

رفع كفّاً تائهة أمام وجهه، وحكّ جبينه بسرعة وهو يجيب:

- ورقة السفير..! كانت هون! هيها، أأااوف، الحمد لله.

خرجا يضربان الأرض بقدميهما كأنهما في استعراض عسكري، تبعهما "سحلية" كما لو كان يتزحلق في الممر، وهرش "منذر" رأسه قبل أن يضرب مفاتيح "الكي بورد" صارخاً:

- ما صارت، ما صارت.

هل كان عَلَيّ سؤاله عن هذه التي ما صارت ويبدو أنها صارت اليوم! لم أستغرق وقتاً طويلاً لأقرر أن لا أسأل، بي من مخلفات الأنين في "مستشفى الأشرفية" الشيء الكثير، وما أزال أحاول استبعاد وخزَ الضمير المتململ الذي يلومني على ما تمنيته لـ"شعبان" البريء، واستحضار عذوبة الغفران الذي غمرت به هذا الصباح، وليس من المنطق أن أزيد حساسية روحي بمتاعب "منذر"، أظن أن السبب نفسه دفع "كعب الكباية" ليتسلل بعيداً كأنه في إعلانه الدائم بأن كل ما يحدث حوله لا يعنيه، وما هو إلا مجرد مصحح عجوز مسا لم يعرف حدوده والخط الأحمر الذي يقف وراءه بتبجيل كبير.

مساءً، استغرق "شعبان" في نوم عميق بفعل المضاد الحيوي الذي دلقته "فتحية" في فمه، واسترخت الأجساد الثلاثة المتعبة على الأريكة في الصالة، وأصدر التلفزيون وشّهُ المنتظم والمعتاد، مرافقاً أزيزَ الثلاجة في إيقاع منتظم يسمح بسماع رجْع أنفاس " رمضان" كخلفية ناشزة، وحتى هفيف الهواء الناجم عن تقلّب "فتحية" على جنبيها إذا ما مر وقت على تحنطها في جلسة ثابتة. إنها سيمفونية الحياة في البيت الميت . فجأة، وعلى الشاشة الفضية المشوشة رأيت التي "عمرها ما صارت، ولكنها صارت اليوم" . كان الثلاثي السائر بيمن الله ورعايت ه، "سحلية" و"أمرك سيدي" و"هيد آند شولدر" يسيرون جنباً إلى جنب وقد ارتدوا بزاتهم الرسمية، ويحملون (للعجب) أزهاراً مثل عشاق أفلام الأبيض والأسود، يتوسطون شاشة التلفاز كما لو أنهم بصدد

الحصول على الأوسكار العالمية، يتحركون برزانة العلماء الأجلاّء السائرين في ممر مفروش سجاداً أحمر للوصول إلى منصة التكريم . مططت عمودي الفقري من دون أن أرفع مؤخرتي عن المقعد، والتقطت محوّل التلفاز رافعة الصوت في أول بادرة اهتمام مني بالبث المرئي منذ انتهى مار اثون "سوبر ستار العرب ". لم تكن المعلومة صعبة أو بحاجة إلى تعليق، فالصحفيون المنفتحون، "الليبراليون" كما يسمّون أنفسهم، الأبرع على وجه البسيطة، الأكثر إدراكاً لمقتضيات المرحلة، والأوسع أفقاً، كانوا يتقدمون على الأقدام مسيرةً تذكارية لضحايا الحادي عشر من أيلول بصراحة ، أنا لم أستوعب في البداية عن أيّ ضحايا يتحدث المذيع، وأي حا دي عشر من سبتمبر يعني. قام دماغي بعملية مسح سريعة حول الضحايا والمذابح وكل "هولوكوست" طالت حياتنا وعرفناها، وعاد خائباً . أدركت أني بحثت في ملف مغاير عندما وصل ركبُ المسيرة إلى السفارة الأم يركية، فانحنوا كما في المعابد الهندوسية، ووضعوا بخشوع حزينَ أزهارهم، قرنفلاً برتقالياً، ووردا أحمرَ على ضريح متخيَّل للضحايا الذين لم نَرَ أشلاءهم كما يحدث مع ضحايا جنين مثلاً . هؤلاء الضحايا الذين قضوا بموتٍ نظيف للغاية لم نعهده في شرقنا العربي ولكن أميركا علّمتنا إياه . ها زملائي اللامعون يعتذرون عن همجية الإرهاب، ويتحولون من فتيان أتوا من قرى الجوع والأحلام الميتة والنضال العقيم إلى أصحاب ياقات بيض في أحد أهم أفلام الكاوبوي العالمية، يعلّمون الأمة درساً في الوفاء لذكرى البرجين الشامخين وقد اخترقتهما الطائرات فتهاوتا في لحظات، يفتحون أعيننا على حجم الدمار الذي ساقته لحظةُ تعصّبٍ أعمى اندفعت إليها شياهُنا السوداء الضالّة، يدفعوننا للاعتذار عن وجود رهط من المتحمسين يعمدون إلى مقارنة مآسينا الأبدية المكتوبة لنا، والتي ساقها إلينا قدرٌ أحمق الخطى، بمآسي الدول الكبيرة.

ما وزنُ وقائع مارقة مثل تلك التي تدكّ البيوت الصغيرة في الأراضي الفلسطينية، وتبعثر الأشلاء المدمّاة التي كانت أعضاءً في أجساد بشرية قبل أن تشطرها قذائفُ شارون ؟! فالمقارنة عمل خسيس، لأنه يعني إصرارنا على تنمية نزعة الإرهاب فينا، والإصرار على عناد مريب في أن نرفع رؤوسنا.. لكل هذا، بدا زملائي الأعزاء سفراء نموذجيين لروح التسامح التي نتحلى بها كحضارة عريقة.

أما إصرار أبي الغائب على الحضور في مثل هذه الحالات، والزجّ بصورته الباهتة بين ناظري وشاشة التلفاز كما لو كان مومياء رماها سرّاقها، فليس إلاّ نزعة مَرَضية تخصّني وحدي، وعَلَيّ معالجتها في أقرب فرصة ممكنة.. ربما، أسوةً بسواي المستنيرين، سأتمكن من الذهاب في الذكرى التالية لهدم البرجين الجميلين إلى السفارة أحمل قرنفلة بيضاء.

لم يعد في الشاشة ما يغريني بالمتابعة الحثيثة ولا حتى الاستماع إلى سيمفونية البيت المعتادة، أزيز الثلاجة ووَشّ التلفاز وأنفاس عمّي وهفيف ثوب زوجته، والجنون المنبعث من التواء المغنية الصغيرة روبي على قناة "مزيكا" وهي تصدح بـ "إنت عارف ليه، بحبك ليه، وحبك ليه بيحلالي؟!".. ما يدريني!! وها هو بطل الشاشة الأسبق "الصحّاف" الذي جعل الإعلام يأخذ دور البطولة في الحرب، يلعب دوره في مسلسل الاعترافات الجديد . لم يعد هناك ما يهمّ، كل الأشياء آخذة في الذبول.

أقلب الشاشة الفضية بالضغط على الأزرار شمالاً ويميناً.

يعلن التلفزيون الأردني تشكيلة وزارية جديدة . المتحدث الرسمي في التشكيل الجديد امرأة، هناك ثلاث وزيرات، تقول لي "أم صبحي":

- عقبالك يا صحفية.

فأفرط ضحكاً . نباري العالم في تمكين المرأة، ولنا في تاريخنا صولات وجولات، منذ ألف ليلة وليلة، وطلع الصباح وسكتنا عن الكلام المباح!

دخل شهر رمضان، بزغ هلاله رقيقاً كابياً كأنه سينكسر، تعلقت بانثنائه الجميل مثل فقيرة على أرجوحة تكاد توقعها أرضاً، تدريجياً ما لبث أن تدوّر بدراً، فقاعة تعتلي الكون وتغري بنفخها بعيداً، كانت فاتنة السينما المخضرمة نبيلة عبيد ترمي بألفاظها الإنجليزية على رؤوسنا حجاراً ثقيلة، "وات هابيند؟"، "هونست"، "يس"، وكنت أشهد انكسار الجميلة التي لعبت دور رابعة العدوية، وأقول: "هو بعض هذا الزمان، فلشتدّي زيم.

أحتمي بالأرشيف بحثاً عن وقائع لطيفة و آراء نزيهة يكتبها مدبّج و الأعمدة اليومية مُشِيدين بالتشكيلة الوزارية الجديدة، وكل تشكيلة وزارية عرفتها هذه الأصقاع، أرتال من الصحف المصفرة المهترئة، التي تفوح بعبق الأغبرة.. للرائحة قتامة ترى وتسمع، والورق خشن افتقد جدّته، ولكن

الكلمات نفسها ما تزال طرية ومتداولة، كلها تدبّج في مديح الظل العالي، "مديح الظل العالي"! من أين سقطت هذه العبارة على ذاكرتي المنهكة؟ لعلها بعض مخلفات أولئك الذين أركَبْتُهُم الباصَ المتدهور عند أعلى قمم عجلون الجميلة . المقالات في العموم تفضح فساد ما مضى وتُعوّل على ما هو آت، والأزمنة تتشابه، الحقائق المغيبة تتناسل وتنمو لها الفروع وتجود بالثمار، ما بين ذاهب وآتٍ وكأن الزمان ذاتُ الزمان، حيث يخنق كتّابُ الأعمدة الحكوماتِ الجديدة بالحب والأمل المرتجى والتطلعات العراض.

حلق رئيس التحرير في وجهي المغبر من أتربة الأرشيف قائلاً: "شو يعني؟ شو بدك تقولي؟".

لا يمكن شرح كلماتي، الأوراق تشرح نفسها، هو مقال لطيف حول الأغنية التي يصرّ الكتّاب على ترديدها في كل المحافل غير منتبهين لتبدّل الأزمان والبشر، مجرد مداعبة ساخرة، كلماتي لا تقنع رئيس التحرير الذي يرفع حاجباً ويزمّ عيناً واحدة مستنكراً، لافتاً انتباهي إلى أني ألعب كثيراً ولا أنتج شيئاً مفيداً، وأنه لم يعد يحتملني، رغم لحظة الغضب العابرة التي شعرتُها وأنا أمرّ بالأرشيف والتي أوحت لي بإلقاء عود ثقاب يأكل يابس الأوراق الصفراء المتراكمة، فقد ردعني وجه موظفة الأرشيف "أم أشرف" التي ابتسمت بودّ أمومي لدى مروري .. ما ذنبها إذا كانت محاطة بكل هذه الترهات؟ هي على أية حال امرأة تعيل أسرتها وتخلص لمهمتها. رفعت ابتسامتها غضبي، بل وغمرتني بالرضا.

رشرشَ المطرُ نافذةَ حجرتي الخضراء، وغنّى عند ارتطام القطرات بالزجاج البارد موْقِعاً نغماتٍ أشبه برجع نقرات حالمة على "دربكّة"، داعب خيالي في تصورات متتالية عن بشر يسيلون فوق الزجاج صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً، أو قططاً تشبه تلك المختبئة في الزوايا المخفية عند أسفل الشارع، ينشز صوت رذاذ المطر مستعيراً نغمةً من نشيجِ سعال جدّي، وتنساح القطرات خطوطاً.. أتأمل من دون إجهاد تلك الصور التي حوّلت نافذتي إلى خريطة لامبراطورية الكون المتشابكة المتقاطعة المنفصلة من دون رحمة، أتتبّع بإبهامي من الداخل الخطوط نفسها، ثم بعبث لا أدري دوافعي منه، أبدل بإصبعي المهذبة إصبعي الوسطى وأعمل في الكون تجريحاً.

كيف للمدوّنة الكاتبة أن تعلم ما شعرت به، إن ألّفت أو زوّرت على لساني مشاعر ومواقف تزعجني ؟! كيف أعاتبها أو أنكر؟ ! أصبحت كلّي ملكاً لها، تقتلني كما يحلو لها، فأموت

مبتسمةً مسترخية. لعله حلمٌ حقاً، ربما أكون نائمة ا لآن في دفء ذراعَيّ "حسن"، إذا لم يكن هو ذاته حلماً أبله، إذا لم يمت كسواه، بموتي قد يموت، فنستريح معاً على السرير الذي يفوح برائحتنا، أجترّ الجراح و ألعقها، ربما، هذه طمأنينة ترفة فادحة أستبعد حدوثها في الحياة واقعاً، حتى وجه "حسن" بدأ يتلاشى، ما عدت أذكر لون عينيه، ولا رائحة أنفاسه، ولا ملمس جلده، ما عدت أستطيع تجميع ملامحه كأنه لوحة "بازل" مركبة وصعبة، لم أعد أساساً متحمسة لمثل هذه اللعبة وقضاء العمر في تجميع نتف الصورة، وما ضرّني لو ظلت اللوحة غائمة وملتبسة، ومضيعة!

كلُّ ما مرّ حلمٌ سمج، لا أتذكر شيئاً، لا أريد أن أتذكر شيئاً، لست في المكان نفسه، ليست المدينة نفسها ولا الزمان، كل هؤلاء لم أعرفهم، لا يعنيني أن أتذكر، أنا هكذا مرتاحة، سعيدة، أشعر بالصفاء، هذا الغيم في السماء غيمي، لم يرسله أحد إلَيّ، هو من بنات مشاعري، من رجع خواطري، من شوقي للمطر، من اتكائي الطويل على شفا الهاوية، من شجاعة أناملي على الإمساك بظلال حلم، تشكّل أو انكسر، من جرأة إصبعي المشاغبة على العبث السفيه مع صور الكون.. هذا الغيم غيمي ، والسماء سمائي أراها تنطبق على مهلها، دهليز طويل شفاف رائق بانتظاري، كأني لا أرى السيارات المسرعة تفرّ من أقدارها، كأني لا أعلم مسبقاً بأمر الموت الذي يعدّه جدّي الناسي وهو يشعل النار في قاع القبو لتمتدّ ألسنة حارّة وكاشفة ومجنونة من قلب البناء وصولاً إلى البيت موصَد الأبواب، كأني لم أساعده بتاتاً بتحريض نار قلبي على الانتصاب لتشرقط شرراً في عتمة داخلي ثم تخترقني إلى الخارج مساندةً النار القادمة من القبو، والتي تسللت دخاناً رمادياً وحرارةً واعدة قبل أن تنقضّ بشراسة مطيحةً بالباب الخشبي، وتعيث الفوضى بالأرائك وتوصيلات الكهرباء المكشوفة التي تتطاير شرراً شَروداً فاتناً، يستنسخ التماعات وهمية مبهمة وسط سحب الدخان الداكنة التي اقتحمت حجرتي مثل غائبٍ عزيز ملهوف وراحت تنفث نجوماً باتجاه النافذة وترتدّ بدفع الهواء ورذاذ المطر، لم أهرع لعناقها، ولكني ألتوي على ناري، أتقوّس مثل جنين، أضمّ ركبتَيّ بيدَيّ، ثم أحني رأسي للبركان واضعةً وجهي في أحضان إضمامتي، أشتمّ الحريق في أغطية السرير وأوراق الصحافة التي تصير رماداً، أرقب بلاغةَ

النار تتراقص مضطرمةً في فضاء الحجرة وتوقع عزفاً مشتركاً ومتنافراً وعبقرياً مع انهمار المطر في الخارج، أسمع العويل القادم من المجهول، تعالي.. تعالي..

يتمدد "بريموس" الغاز بانتظار انفجار وشيك، أسمع دويه قبل أن يكون هناك صفير يشقّني تماماً، أصارع استغاثة اللحم المشوي، وجبة النار الشهية وأظافرها المنشبة في الفؤاد، وصولاً إلى ذروة الموت ورعشته، وأُسْلِم خيالي للون الأرجواني الذي تمازج في فضاء الغرفة بدخانها الداكن، أُميت أعصابي عن الوجع المستشري باللحم والدم، أترك النار تلحسني جذلى، تعشقني جوّه وبرّه، وتنشب لهابها في دمي، تطهّر الروح والجسد معاً، تفتتني ثم تعيدني إلى أصل الأشياء، تحرق آثامي الطفيفة، وتقضي على عطر التفسخ الآدمي وعفونته، وتعدّني عروساً للبعث من جديد، وداعاً.. وداعاً..

يضريء الماء عبر النافذة، قبل أن يخترق طائرٌ غامض رمادَ الحجرة الأسود نحو النور الوهّاج.

لعلي كنت "نارة"، حارسة النار والماء، لعلي تخاطبت وحارسات الروح، لعلي لم ألتقِ بشراً مبلّلين بالماء مشتعلين بالنار، لعل قلبي القوي حصانٌ وحشي متعَب يتوق لبرية لا نهائية، لعلي لا أنشغل أكثر بمصيري، لعلي لم أكن أبداً .. من الأجدى، أن أنصرف إلى النسيان، أغلق جرة الآلهة على ناري بانتظار زمن جديد.

....

